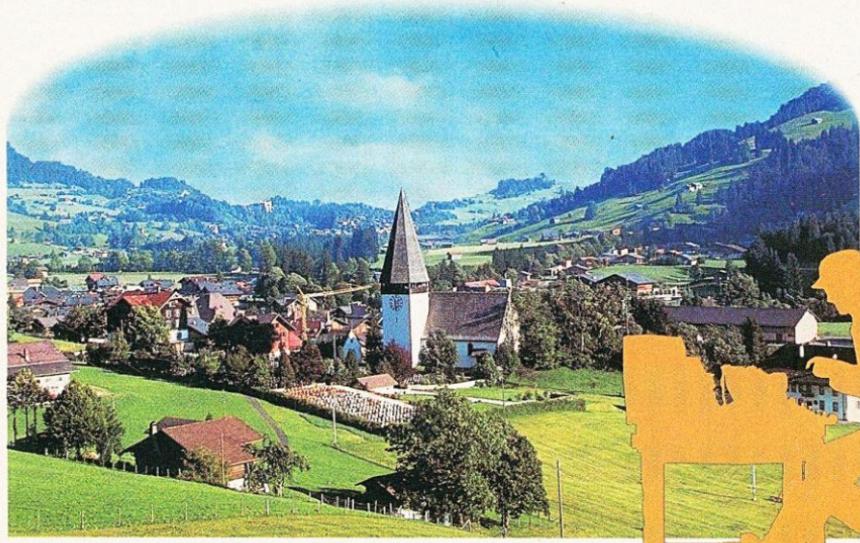


Agatha
Christie

أَنْعَاشُ كِرِيسِيٌّ



الإِصْبَعُ الْمُتَحَرِّكُ



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

٤٠

الإصبع المُتَحَرّك

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٣ بعنوان

The Moving Finger

Copyright Agatha Christie Mallowan 1943

جميع الحقوق محفوظة للناشر:
شركة الأجيال للتأليف والترجمة والنشر
بموجب الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين ممثلِي المؤلفة القانونيين.

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو ميكانيكية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٠٤

لائِئَانَا كُرِبِيلِيَّةٌ

الإصْبَعُ الْمُتَحَرِّكُ

طُبِعَتْ لِلمرَّةِ الأولىِ بِاللُّغَةِ الإِنْجِليْزِيَّةِ عَامَ ١٩٤٣

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون

تنفيذ الغلاف: سارية مجاهد ديرانية



الأجيال
للترجمة والنشر
١٩٤٦ Publishers

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

مقدمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذة، أغاثا كريستي، تسائل كثيرون بدهشة واستغراب: "لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟".

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنفائض ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النفائض، وإن بدت غير ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أيّاً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطبعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندرى ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراح هذا الخطأ المتعتمد: أهوا لتقليل حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتسهيل القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن من قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليل واختصار قد أربك القارئ إذ غيَّب عنه بعض التفصيات الهامة، كما فوتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكتير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبة في طريق فهمه لحداث الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسمَيْ بِطَلَنِي أغاثا الشهيرتين، هيركيول بوارو والكابتن هيستنغر، قد كُتبَا بأشكالٍ متنوعة وصورٍ متباعدة خلال الروايات،

وكانهـما مجموعـة من الأشـخاص المـختلفـين!

(٤) أما الطبـاعة فـمأسـاة لا تـقل حـجمـاً عن مـأسـاة التـرـجمـة وـتكـاد تـنـافـسـها في السـوء والـرـداءـة! اـمـتـلـاتـ الروـاـيـاتـ بـالـأـخـطـاءـ المـطـبـعـيـةـ الـتـيـ لمـ يـحـفـلـ بـتـصـحـيـحـهاـ أـحـدـ، وـصـفـتـ أـسـوـاـ صـفـ ثمـ طـبـعـتـ عـلـىـ أـسـوـاـ وـرـقـ. وـمـاـ زـالـ أـولـئـكـ «ـالـناـشـرـونـ...ـ»ـ يـصـوـرـونـ طـبـعـةـ عـنـ طـبـعـةـ حـتـىـ صـارـتـ مـقـاطـعـ كـامـلـةـ مـنـهـاـ مـطـمـوـسـةـ مـسـتعـصـيـةـ عـلـىـ القرـاءـةـ لـاـ تـكـادـ تـبـيـنـ حـرـوفـهـاـ وـأـلـفـاظـهـاـ.

(٥) ثـمـ اـجـتـهـدـ «ـالـناـشـرـونـ...ـ»ـ فـوـضـعـواـ لـهـذـهـ الرـوـاـيـاتـ أـغـلـفـةـ يـظـنـ مـعـهـاـ أـنـهـاـ لـيـسـ سـوـىـ قـصـصـ فـاضـحةـ مـاجـنـةـ، فـكـانـ أـنـ أـعـرـضـ عـنـهـاـ كـثـيرـ مـنـ النـاسـ الـذـيـنـ ظـنـواـ أـنـ صـورـ أـغـلـفـتـهـاـ تـعـبـيرـ عـنـ مـحـتـواـهـاـ، وـزـهـدـ فـيـ هـذـاـ الـأـدـبـ الرـفـيعـ كـثـيرـ مـنـ الـمـتـأـدـيـنـ.

(٦) وـأـبـاحـ هـؤـلـاءـ «ـالـمـتـرـجـمـونـ...ـ»ـ لـأـنـفـسـهـمـ أـنـ يـتـدـخـلـواـ فـيـ عـنـاوـينـ الرـوـاـيـاتـ وـتـبـوـيـهـاـ وـتـرـتـيـبـهـاـ؛ـ فـمـسـخـواـ عـنـاوـينـ الـأـصـلـيـةـ وـاستـبـدـلـواـ بـهـاـ مـاـ ظـنـوهـ أـكـثـرـ إـثـارـةـ أـوـ أـدـعـىـ لـجـذـبـ الـقـرـاءـ.ـ وـاعـتـدـواـ عـلـىـ تـبـوـيـبـ الرـوـاـيـاتـ فـأـدـخـلـواـ بـعـضـ فـصـولـهـاـ فـيـ بـعـضـ،ـ وـعـلـىـ تـرـتـيـبـ مـجـمـوعـاتـ الـقـصـصـ الـقـصـيـرـةـ فـبـعـثـرـواـ مـاـ كـانـ مـنـتـظـمـاـ وـشـتـواـ مـاـ كـانـ مـجـتمـعاـ.ـ كـلـ ذـلـكـ بـغـيرـ سـبـبـ وـاضـحـ وـلـاـ تـعـلـيلـ مـفـهـومـ.

(٧) وـأـخـيـراـ،ـ كـانـ الـعـدـوـانـ الـأـكـبـرـ عـلـىـ أـغـاثـاـ كـرـيـسـتيـ بـأـنـ نـحـلـوـلـهـاـ مـاـ لـيـسـ -ـأـصـلـاـ-ـ مـنـ كـتـابـتـهـاـ.ـ وـذـلـكـ أـنـ النـاـشـرـينـ لـمـ رـأـواـ إـقـبـالـ النـاسـ عـلـىـ مـاـ حـمـلـ اـسـمـهـاـ قـدـ طـمـعـواـ فـيـ مـزـيدـ مـنـ الـبـيـعـ وـمـزـيدـ مـنـ الـرـبـحـ،ـ فـجـأـوـاـ بـرـوـاـيـاتـ لـاـ يـعـرـفـ مـؤـلـفـوـهـاـ فـالـحقـوـهـاـ بـهـاـ وـنـسـبـوـهـاـ إـلـيـهـاـ،ـ حـتـىـ بـلـغـ مـاـ نـُـشـرـ فـيـ السـوقـ بـاـسـمـهـاـ مـئـةـ وـيـضـعـ

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُرجم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقعنا عقداً ينص على الحق الحصري لنا بالطبعـة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشروع الترجمة الطويل الذي استغرق نحوـا من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آن معاً، ونفذنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلـا العملين تولاه مترجمون محترفـون أصحاب خبرـة وكفاءـة ودرـاية واسـعة باللغـتين، العـربية والإـنكـليـزـية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تـمت المراجـعة الكـاملـة والدـقـيقـة لـكل نـص مـتـرـجم؛ لـغـويـاً، وـنـحـويـاً، وإـملـاتـياً. مع العـناـية بالـتـفـقـير والـتـرـقـيم (وضع العـلامـات من نقطـة وـفـاـصلـة وـسـواـهـما). وـتـولـى هـذـا الـعـلـم واحدـاً من أـفـضـل المـخـتصـين في هـذـا المـجـال.

(٣) الصـفـ والإـخـرـاج: وقد نـفذ هـذـا الـعـلـم لـدى أـفـضـل مـراـكـز الصـفـ، وـيـذـلـ في الإـخـرـاج من الجـهـد غـايـتـه ليـأـتـي عـلـى أـفـضـل شـكـل مـمـكـن. وـكـان أن وـقـع الاـخـتـيـار عـلـى قـطـعـ الكـتـاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراء لميولِ كثيرٍ من القراء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجعة بعد المراجعة للنص النهائى المصنفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتعاه الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكِن يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم رواية الأدب العالمي، ولكن المرء مطالبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقى ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيده ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفقنا؟

نرجو أن تكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكْم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردننا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامتها لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطربنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجمة مرةً بعد مرة، غير عابئين بما نصرفه من وقت أو بذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضي عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحبينا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نهجنا اعتماد الفصاحة بلا تكلف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرسنا ما اعتمدناه مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّزبة» (بضم الشين بلا واء بعدها اسماء للحساء) و«السَّلطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سَرَّ العامل» (بمعنى أخلاقه وصرفه من عمله) و«أَشَرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبهنا إلى بعض المفردات مما يُخلط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكر يُؤنَّ خطأً، و«الحماس» بالذكر لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالثانية، و«الشرطة» جمع مذكر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حفظة الأمن في البلاد، الواحد شُرطيٌ وشُرطيةٌ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكتاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبهنا إلى بعض ما درج على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحّ وسمع عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خجلٌ»، وقولهم: «مندهش» والصواب «دهشٌ» أو «مدهوشٌ»، وقولهم: «خصيصةً» والصواب «خصوصاً»، و«الجدية» والصواب «الجدّ»، ومنه: كان الأمر جدياً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جدّاً، و«جاوزوا سويةً» والصواب «جاوزوا معاً» لأن «سويةً» تعني الأستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يسمع، والصحيح «الجواهير»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرد يقول: "أشتهي أن أكون يد من يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بآمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاً» (إن لا)، ومثلها: «إنما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: «وهو أقرب إلى الصواب». وفي عدد المئات (كثلاثمائة وخمسين، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مائة وخمس مائة، الخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تثبت همزات القطع وتُحذف همزات الوصل ، وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنين أو يجردونهما كليهما من النقط ، ومثل ذلك بالنسبة للناء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح" ، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح ، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح ، فتأمل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم ، وبين فعل المضارع والأمر ، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالٍ النصب والجر ، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشدة -خصوصاً- في غير المواقع المدركة سلبيّة؛ إذ هي دلالة على حرف ممحون.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عنابة ممكناً؛ إذ هي - كما سماها بعض الأدباء - «علامات للفهم»، بها يتم المعنى ويُفسّر المقصود. وأتبعنا في تحديد العلامات ومواقعها الأصول التي اعتمدتها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّعة في عالم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسر في الصنف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غير متفق عليه ولا هو معتمد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أنار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأملت مخرج هذا الحرف ومخرج الجيم لوجدتهما متبعدين تباعداً بيناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتب - فيما نُقل قديماً عن الفارسية - كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يتَّفق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غيناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عربوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غريتتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاٹا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبة إليها: «إنكليلز» و«إنكليلزية»؛ لشيوخ كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسبة المخرج، فاثبتنها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرفقة (كما في: cat)، والألف المفخمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرفقة (كما في: bone)، والواو المفخمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيسٌتنغز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، أملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن تكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرر

* * *

المؤلّفة في سطور

تعتبر أغاثا كريستي أعظم مؤلّفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما يُباع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد ترجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليوني (ألفي مليون) نسخة!

ولدت أغاثا كريستي في بلدة توركى بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قط إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت تزيله فراشها تتعافى من مرض ألم بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجبت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جربى وسترين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «تلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايزلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرح مُحبٌ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي ولدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد جرحي الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالوان، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت على التل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في العراق». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجده بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة ومضوّعاتها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حبكتها وترتبط أحدها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محللة كوامنها باحثة عن دوافعها بعقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجل أو يسوء. وقد حرست على أن تقول لنا فيها دائمًا: «لا بد أن يتصرّ الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هيركيل (هرقل) بوارو، والأنسة ماربل. أما بوارو فقد «ولد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشرت لها، ثم استمر بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطـي متـقاعد أهـم ما يـميزه ذـكـاؤه الـخارـق (الـنـاتـج عن «الـخـلـايا الرـمـاديـة الصـغـيرـة» في دـمـاغـه!) وشارـياه العـظـيمـان اللـذـان ليس لهـما مـثـيلـ فيـ الدـنـيـا! وغالـباـ ما يـرـافقـه فيـ تـحـقـيقـاته صـاحـبـه الشـهـيرـ، الضـابـطـ المتـقـاعـدـ، الكـابـتنـ هـيـسـتـنـزـ، الـذـي يـتـمـيز بـطـبـيـعـتـه الطـيـةـ وـذـكـائـهـ المـتوـاضـعـ وـحـبـهـ الـكـبـيرـ لـبـوارـوـ.

وأما الآنسة ماريل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذة على الملاحظة والتحليل وفهم عميق للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكة واسعة من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روایات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومانسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصبِّدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٣٠، أي لحوظ ثلاثة أرباع القرن! أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبرني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

الإِصْبَعُ الْمُتَحَرّكُ

الفصل الأول

أخرجني الأطباء -أخيراً- من لفائف العصعص بعدما عانيت منها ما عانيت، وجاءتني الممرضات يحاولن حملني بكلامهن المعسول على تحريك أطرافي بحذر. وفيما أنا مستاء من حديثهن معي وكأنني طفل رضيع أخبرني ماركوس كِنْتْ بأن عليَّ الذهاب للعيش في الريف قائلاً: هواء نقى وحياة هادئة دون أي عمل... هذه هي «الوصفة التي أقدمها لك». ستولى شقيقتك رعايتك هناك. كُلُّ ، ونم ، وقد أفراد مملكة النبات قدر الإمكان.

لم أسأله إن كان بإستطاعتي الطيران من جديد؛ فمن الأسئلة ما لا يستطيع المرء طرحه لخشيه من الإجابة. وللسبب ذاته فإنني لم أسأله -خلال الأشهر الخمسة الأخيرة- إن كان سيُحکم عليَّ بأن أبقى مستلقياً على ظهري طيلة حياتي. كنت خائفاً من تطمينٍ متملقاً لممرضةٍ تقول لي: "كُفْ عن ذلك ، ما هذا السؤال! نحن لا نسمح لمرضانا بأن يتحدثوا بهذه الطريقة!".

ولذلك لم أسأل... وقد مضى الأمر على ما يرام وتبيَّن أنني لن أكون مُقدداً عاجزاً؛ فقد استطعت تحريك ساقي والوقوف عليهما ،

ثم استطعتُ أخيراً المشي ببعض خطوات. ولئن كنت أشعر وكأنني طفل جَسُور يتعلم الْدَرْج بركبتين مرتعشتين وقدمين ملفوفتين بالقطن، فإن ذلك لم يكن سوى ضعفٍ لن يلبث أن يتّهي.

وقد أجابني ماركوس كنت (وهو طبيب قدير) عن السؤال الذي لم أسأله، إذ قال: سوف تتعافي تماماً. لم نكن متأكدين حتى يوم الثلاثاء الماضي عندما أجرينا لك ذلك الفحص النهائي، أما الآن فأستطيع إبلاغك بكل ثقة. ولكن... سيكون الطريق طويلاً، وربما يبعث على السأم. فعندما يتعلق الأمر بشفاء الأعصاب والعضلات فإن على الدماغ مساعدة الجسد، وقد يؤدي أي استعجال إلى الانكماش. تستطيع فعل كل شيء شريطة أن لا تتعجل الشفاء؛ إذ إن أي تصرف كهذا سيعيدك إلى المستشفى مرة أخرى! عليك أن تأخذ الأمور بتمهل وبارتياح، فالإيقاع هنا بطيء تماماً. ليس جسدك وحده هو الذي ينبغي أن يشفى، فأعصابك قد ضعفت بسبب اضطرارنا لإبقاءك خاضعاً للأدوية لفترة طويلة. ولذلك أقول لك: اذهب إلى الريف فاستأجرز بيتك، واهتم بالسياسة المحلية للقرية وبفضائحها وبالقليل والقال فيها واهتم بجيرانك كما ينبغي. بل لو كان لي أن أوصحك لأشرتُ عليك بأن تذهب إلى مكان ليس لك فيه أصدقاء أصلاً.

أومأت برأسِي وقلت: لقد فكرت في هذا الأمر فعلاً.

لا شيء أشد وطأً على المرء من اندفاع أصدقائه لزيارتِه متظاهرين بالشفقة عليه فيما هم منشغلون بشؤونهم الخاصة، فلا يلبث الواحد منهم أن يبدأ بالحديث: ولكنك تبدو رائعاً يا جيري..

ما رأيكم أنتم؟ آه، بالتأكيد. لا بد أن أخبرك يا حبيبي.. ماذا تحسب
باستر قد فعل الآن؟

كلا، لا أطيق شيئاً من ذلك.. حتى الكلاب أكثر حكمة؛ فهي
ترحف مبتعدة إلى زاوية هادئة وتلعق جراحها ولا تعود إلى عالمها
إلاّ بعد أن تبراً من علتها.

وهكذا قمتُ وجوانا -بعد بحث محموم في سجلات وكلاء
العقارات عن بيت في الجزر البريطانية- باختيار البيت المسمى
«ليتل فيرز» في لايمستوك كأحد الاختيارات لمعاينته، وكان السبب
الرئيسي لاختيارنا هذا أنها لم تُر لايمستوك أبداً من قبل، ولم نكن
نعرف أحداً في تلك المنطقة.

وعندما رأت جوانا «ليتل فيرز» قررت على الفور أن هذا هو
البيت الذي نريده. كان يقع على بعد نصف ميل تقريباً خارج لايمستوك
على الطريق المؤدي إلى منطقة السباحة. وهو بيت أليس أيضاً له شرفة
مائلة من الطراز الفيكتوري مطلية باللون الأخضر الفاتح، ويُشرف
على منظر جميل فوق أرض منحدرة معططة بالنباتات، وإلى الأسفل
يرتفع برج كنيسة لايمستوك من الناحية اليسرى.

كان البيت ملكاً لأخوات عوانيس من عائلة بارتون لم يبق منها
على قيد الحياة إلاّ واحدة هي الصغرى، واسمها الآنسة إميلي.
 وكانت الآنسة إميلي بارتون امرأة مسنة رائعة صغيرة الحجم، ذات
شكل يوحى بانسجام لا يصدق مع بيتها. وقد شرحت لجوانا بصوت
ناعم فيه نبرة اعتذار بأنها لم تؤجر بيتها من قبل أبداً، وأنها في الحقيقة
ما كانت لتفكر بفعل ذلك... ولكن الأمور -كما ترين يا عزيزتي- قد

تغيرت كثيراً هذه الأيام... الفسق بالطبع، ثم إن هناك أسمهي التي كنت أظنهما دوماً استثماراً مأموناً، والحقيقة هي أن مدير البنك نفسه قد أشار علي ببعضها، ولكن يدو أنها لا تربح شيئاً هذه الأيام. وهي أسمهم أجنبية بالطبع! وهذه الحال تجعل الأمر صعباً للغاية. أنا واثقة من أنك ستفهمي يا عزيزتي؛ فأنت تدين لطيفة جداً ولن تغناطي لما سأقوله: إن المرأة لا يجب أن تغير بيته للغرباء... ولكن يجب عمل شيء، كما أنتي -بعد أن رأيتكم- سأكون سعيدة لوجودك هنا... فالبيت يحتاج إلى حياة شابة، ولكن لا بد أن أعترف بأنني لا أحذ فكرة وجود رجال هنا!".

عند هذه النقطة كان على جوانا أن تخبرها عنى، وقد تمالكت الآنسة إميلي نفسها بشكل جيد وقالت: يا عزيزتي، فهمت... يا له من أمر محزن! حادث طائرة؟ هؤلاء الشباب شجاعان جداً. وعلى هذا فسيكون أخوك -عملياً- رجلاً مقعداً...

بدا أن تلك الفكرة قد هدأت السيدة اللطيفة الصغيرة؛ إذ يفترض أن لا انغماس في مثل تلك الأنشطة الذكرية الخشنة التي تخشاها إميلي بارتن. وحين استفسرت بحياء إن كنت أدخن قالت جوانا: يدخن كمدخنة، وأنا الأخرى كذلك!

- بالطبع، بالطبع. هذا غباء مني.. أخشى أنني لم أتغير مع الزمن! كانت أخواتي جميعهن أكبر مني سنًا، وأمي العزيزة عاشت حتى بلغت السابعة والستين... تصوري! وكانت شديدة التمسك بالانضباط. نعم، نعم، الكل يدخن الآن... الشيء الوحيد هو أنه لا توجد في المنزل منافض للفائف التبغ.

قالت جوانا إننا سنحضر معنا الكثير من المنافض، وأضافت مبتسمة: لن نضع أعقاب لفائف التبغ على أنثائك الجميل، هذا وعد مني لك؛ فأننا لا شيء يغيظني أكثر من رؤية الناس يفعلون ذلك.

وهكذا تمت تسوية المسألة، واستأجرنا ليتل فيرزا لمدة ستة أشهر مع خيار التمديد لثلاثة أشهر أخرى، وأوضحت إميلي بارتن لجوانا بأنها شخصياً ستكون مرتاحه جداً لأنها ستعيش في شقة تابعة للخادمة «فلورنس المخلصة» التي كانت تعمل لدى إميلي ثم تزوجت «بعد أن عاشت معنا خمسة عشر عاماً». قالت: إنها فتاة لطيفة وزوجها يعمل في مهنة العقارات. لديها بيت جميل في الشارع العام للبلدة، وغرفتان جميلتان في الطابق العلوي. سأكون مرتاحه تماماً هناك وستكون فلورنس سعيدة جداً لوجودي عندها.

وهكذا بدا كل شيء مرضياً، وتم توقيع العقد، وانتقلت مع جوانا إلى البيت. وبما أن بارترidding، خادمة الآنسة إميلي، قد وافقت على البقاء، فقد كنا موضع رعاية جيدة، وذلك بمساعدة «فتاة» كانت تأتي كل صباح، وكانت تبدو نصف بلهاه رغم أنها ودودة.

كانت بارترidding امرأة متوجهة شديدة عنيفة في أواسط عمرها، وكانت ماهرة في الطهي. ورغم أنها استاءت من مسألة التأخر في العشاء (إذ كانت عادة الآنسة إميلي أن تتناول عشاء خفيفاً من البيض المسلوق) إلا أنها كيفت نفسها مع أسلوبنا وذهبت أبعد من ذلك إذ اعترفت بأنني أحتاج لتقوية جسدي وتغذيتها.

وعندما استقرت أمورنا ومضى أسبوع على وجودنا في البيت، جاءت الآنسة بارتن باحتشام وتركت لنا بطاقات تهنئة. وقد حذرت

حذوها كل من السيدة سيمونغتن زوجة المحامي ، والأنسة غريفيث شقيقة الطبيب ، والسيدة كالثروب زوجة الكاهن ، والسيد باي من مؤسسة برايورز إيند . وقد تأثرت جوانا كثيراً لهذه اللفتة وقالت بصوت متهدج : لا أكاد أصدق أن أولئك الناس قد زارونا حقاً... وببطاقات تهئة !

قلت : هذا لأنك يا عزيزتي لا تعرفين شيئاً عن الريف .

- هراء . لقد أقمت مع الناس في الريف كثيراً في العديد من العطل الأسبوعية .

- هذا لا يستوي أبداً مع العيش في الريف .

أنا أكبر من جوانا بخمس سنوات ، وإنني - حين أتذكر البيت الأبيض الكبير القديم الذي كنا نعيش فيه والحقول التي تمتد أسفل منه حتى تصل إلى النهر - لأتذكر كيف كنت أزحف تحت شباك العليق دون أن يراني البستانى ، ورائحة الغبار الأبيض في الإسطبل ، وصوت حوافر الحصان وهي تضرب الأرض في داخل الإسطبلات .

ولكن عندما صرت في السابعة وصارت جوانا في الثانية من عمرها ذهبنا لنعيش في لندن مع إحدى العمات ، ومنذ ذلك الحين أصبحنا نقضي الأعياد هناك في حضور المسرحيات والتتره في حدائق كينسينغتون في القوارب ، ثم اعتدنا لاحقاً الذهاب إلى صالات التزلج ، وفي شهر آب كتنا نذهب ونقيم في أحد الفنادق الساحلية .

قلت لجوانا وأناأتأمل كل هذه الذكريات وأشعر بوخز الضمير لاحساسى أننى أصبحت مريضاً أناانياً : ستكون حياة الريف هذه مخيفة

بالنسبة لك... ستفتقدين كل شيء؛ فأنت تحبين الحياة الاجتماعية مما لا يتصور وجوده في هذا الريف الهدائى.

ضحكـت جوانا وقالـت إنـها لا تهـتم لـذلك عـلـى الإـطـلاق، ثم أضافـت: بل إنـي فـي الواقع مـسـورة جـداً لـلـهـرـوب من ذـلـك كـلـهـ. لقد سـئـمت حـقاً الأـماـكن المـزـدـحـمةـ. وـرـغـمـ أنـكـ لـنـ تكونـ مـتعـاطـفـاً معـيـ، إـلـاـ أنـيـ أـقـولـ لـكـ بـأنـ قـلـبـيـ قدـ انـكـسـرـ عـلـىـ فـرـاقـ بـولـ، وـسـأـحـتـاجـ فـتـرةـ طـوـيـلـةـ حتـىـ أـنـفـلـبـ عـلـىـ ذـلـكـ.

كـنـتـ مـرـتـابـاً فـيـ كـلـامـهـاـ هـذـاـ؛ فـسـيـرـةـ جـوانـاـ فـيـ عـلـاقـتـهاـ بـالـشـيـانـ تـسـيرـ دـائـمـاًـ عـلـىـ نـفـسـ النـمـطـ. كـانـتـ تـقـعـ عـادـةـ فـيـ حـبـ مـجـنـونـ لـشـابـ ضـعـيفـ الشـخـصـيـةـ تـمـامـاًـ، وـدـائـمـاًـ ماـ يـكـونـ ذـلـكـ الشـابـ «عـقـرـيـاًـ لـمـ يـفـهـمـهـ أـحـدـ». وـهـيـ تـنـفـقـ الـوقـتـ فـيـ الإـصـغـاءـ لـشـكاـواـهـ وـتـعـمـلـ كـلـ ماـ فـيـ وـسـعـهـ حـتـىـ تـحـصـلـ لـهـ عـلـىـ الـاعـتـرـافـ الـعـامـ بـقـدـرـاتـهـ. وـيـعـدـ ذـلـكـ...ـ عـنـدـمـاـ يـصـبـعـ نـاكـرـاًـ لـلـجمـيلـ، تـصـابـ بـجـرـحـ فـيـ الصـمـيمـ وـتـقـولـ إـنـ قـلـبـهاـ قدـ انـكـسـرـ...ـ إـلـىـ أـنـ يـأـتـيـ الشـابـ الـكـثـيـبـ الـذـيـ يـلـيـهـ، وـيـكـونـ ذـلـكـ عـادـةـ بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـسـابـعـ مـنـ الشـابـ الـذـيـ قـبـلـهـ!ـ وـلـذـلـكـ لـمـ أـحـمـلـ مـسـأـلـةـ قـلـبـ جـوانـاـ الـكـسـيـرـ عـلـىـ مـحـمـلـ الـجـدـ، وـلـكـنـيـ أـدـرـكـتـ بـأـنـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـرـيفـ كـانـتـ مـثـلـ لـعـبـةـ جـديـدةـ بـالـنـسـبـةـ لـشـقـيقـيـ الـجـذـابةـ.

قالـتـ: عـلـىـ أـيـةـ حـالـ فـإـنـيـ أـبـدـوـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟

أـمـعـنـتـ النـظـرـ فـيـهاـ أـتـفـحـصـهاـ وـلـمـ أـسـتـطـعـ موـافـقـتهاـ عـلـىـ مـاـ تـقـولـ.ـ كـانـتـ جـوانـاـ تـلـبـسـ مـلـابـسـ رـياـضـيـةـ، وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـهـاـ كـانـتـ تـلـبـسـ تـبـورـةـ ذاتـ مـرـبـعـاتـ أـبـعـدـ مـاـ تـكـوـنـ عـنـ الذـوقـ،ـ أـمـاـ نـصـفـهـاـ العـلـوـيـ فقدـ غـطـتـهـ

بكزة سخيفة وصغيرة ذات أكمام قصيرة. وكانت تلبس جوارب من الحرير، وحذاء رياضياً جديداً لا عيب فيه.

قلت: كلا، كلّك خطأ. كان يجب أن ترتدي تورة صوفية من التويد، ويفضل أن تكون خضراء داكنة أو بنيّة باهتة. ويمكنك أن تلبسي فوقها كنزة كشمير جميلة، وربما ستة من الصوف وقبعة من اللباد وجوارب سميكه وحذاء قديماً. وعندها... وعندها فقط... ستجدين نفسك منسجمة مع المحيط هنا في الشارع العام لبلدة لايمستوك، ولن تكوني نشازاً كما أنت الآن.

ثم قلت مضيفاً: كما أن وجهك كلّه خطأ أيضاً.

- وما العيب فيه؟ لقد وضعْتُ عليه أفضل مسحوق للتجميل.

- بالضبط. لو سبق لك العيش في لايمستوك لعلمت أن الأفضل أن تضعِي قليلاً من البوترة حتى لا يلمع أنفك، وربما أثراً من أحمر الشفاه، دون مبالغة فيه، وتبقى على حاجبيك كما هما بدلاً من اختصارهما إلى الريع.

قهقهت جوانا وبدت مسرورة جداً وقالت: أتظنهم سيرونني فظيعة الشكل؟

- كلا، سيرونك غريبة الشكل فقط!

عادت جوانا تتفحص البطاقات التي تركها زوارنا. زوجة الكاهن وحدها هي التي كانت محظوظة (أو العكس!) في العثور

على جوانا في البيت. قالت جوانا بحماسة: أعتقد أن هذا المكان رائع فعلاً يا جيري! جميل وممتع ويتمنى للعالم القديم... لا يمكن للمرء أن يتصور حدوث شيء بغيض هنا، أليس كذلك؟

ورغم علمي أن ما قالته كان هراء، إلا أنني وافقتها؛ ففي بلدة مثل لايستوك لا يمكن أن يحدث شيء سيء.. ولعله من الغريب أننا تلقينا بعد أسبوع واحد فقط من ذلك الرسالة الأولى!

* * *

أرى أنني قد بدأت ببداية سيئة... فأنا لم أعط أي وصف لقرية لايستوك، وبلا فهم لطبيعة لايستوك يستحيل فهم قصتي.

في البداية أقول إن لهذه البلدة الصغيرة جذوراً تمتد في الماضي. كانت لايستوك في زمن الفتح النورماندي بلدة ذات أهمية، وكانت أهميتها هذه دينية بالدرجة الأولى. كان في لايستوك دير للرهبان، وقد خرج هذا الدير سلسلة طويلة من الرهبان الطموحين ذوي التفوذ. وكان لوردات وبارونات المناطق الريفية المحاطة يتربّبون من الكنيسة عن طريق منح الدير جزءاً من أراضيهم. وهكذا أصبح دير الرهبان في لايستوك غنياً ومهماً وصاحب نفوذ في المنطقة لعدة قرون، ومع ذلك فقد جاء الوقت الذي جعله الملك هنري الثامن يقاسم أقرانه من الأديرة نفس المصير. ومنذ ذلك الحين أصبحت إحدى القلاع هي التي تسيطر على البلدة، فيما بقي للدير بعض الأهمية بما له من ثروة وحقوق وامتيازات.

وبعد ذلك تراجع -في القرن الثامن عشر- المد الحضاري

للبلدة فانهارت القلعة، ولم تمر بالقرب من البلدة أى من خطوط السكك الحديدية أو الطرق السريعة، وتحولت إلى بلدة ريفية صغيرة غير مهمة، تمتد الأرض الشبيحة من ورائها، وتحيط بها المزارع والحقول الهدأة.

كان يقام فيها سوق مرة كل أسبوع، وفي ذلك اليوم كان المرء عرضة لمصادفة الماشية في الأزقة والطرقات. وكان يقام فيها سباق خيل صغير مرتين في كل عام لا يشارك فيه من الخيول إلا كل معمور لم يسمع به أحد، وكان فيها شارع عام وحيد جميل تحف به بيوت فخمة يخرّب تناسقها وجود واجهات المحلات في طوابقها الأرضية وهي تعرض الكعك أو الخضار أو الفواكه. وكان في الشارع العام محل كبير للأجواء، ومحل كبير مهيب للأدوات المعدنية، ومكتب بريد مبهج، وصف من المحلات المنتشرة التي لا هوية لها، ومحلان متنافسان لبيع اللحوم، و«مخازن دولية». كما كان في الشارع طيب ومكتب محاماة، وكنيسة جميلة ضخمة جداً شيد بنيانها عام ألف وأربعين وعشرين وفيها بعض الآثار السكسونية. وكان في القرية - بالإضافة لذلك كله - مدرسة جديدة سيئة التصميم، وحانتان.

هكذا كانت لايمستوك. وبتشجيع من إميلي بارتن فقد جاء زيارتنا كل من هب ودب في القرية، وكان على جوانا أن ترد - بعد ذلك - على كل تلك الزيارات بعد أن اشتترت قفازين وأنخذت تلبس قبعة من المخمل ليس ثمة أسوأ منها.

بالنسبة لنا، كان ذلك كله جديداً ومسلياً؛ فنحن لن نعيش هناك

إلى الأبد. كانت - بالنسبة لنا - مجرد فترة استراحة، ولذلك أعددت نفسي للالتزام بتعليمات الطبيب والاهتمام بجيري. وقد وجدنا - أنا وجوانا - في ذلك متعة عظيمة.

تذكرت تعليمات طبيبي ماركوس كنت في الاستمتاع بالفضائح المحلية، وإن كنت لم أخمن كيف ستصل تلك الفضائح إلى مسامعي. ولكن الغريب في الأمر أن الرسالة - عندما وصلتنا - سلّتنا أكثر من أي شيء آخر. أذكر أنها وصلت وقت الإفطار. قلبتها بتکاسل كما يفعل العرء حين يمر الوقت بطريقاً فيجد لذة في إطالة كل حدث إلى أبعد مدى له. وجدتها رسالة محلية تحمل عنواناً مطبوعاً على الآلة الطابعة، ففتحتها قبل الرسائلتين اللتين كانتا تحملان آخرتا برید لندن، وكانت إحداهما فاتورة غير مهمة والثانية من أحد أقاربي المضجرين.

كانت الرسالة مشكلة من كلمات وحروف مطبوعة تم قصها ثم إلصاقها على ورقة. نظرت إلى كلماتها بعض الوقت دون فهمها، ثم شهقت. وقد عبرت الرسالة - التي استُخدمت فيها عبارات بدائية جداً - عن رأي كاتبها بأننا، أنا وجوانا، لسنا أشقاء.

كانت جوانا تعبس وهي تنظر إلى بعض الفواتير، فرفعت بصرها وقالت: هاه، ماذا في الأمر؟ تبدو مصعوباً تماماً.

قلت: إنها رسالة مغفلة من التوقيع وقدرة جداً.

كنت ما أزال أعاني من الصدمة؛ إذ لم يكن للمرء أن يتوقع مثل هذه الأمور في لايمستوك الهدائة.

أظهرت جوانا اهتماماً شديداً على الفور: حقاً؟ ماذا تقول؟

كنت قد لاحظت في الروايات أن الرسائل المغفلة من التوقيع، والتي تكون ذات طبيعة سيئة مقرضة، يتم تجنب عرضها على النساء قدر الإمكان. ويعني هذا ضمناً ضرورة حماية النساء -مهما كلف الأمر- من الصدمة التي يمكن لتلك الرسائل أن تتركها على أجهزتهن العصبية الحساسة. ويؤسفني القول أن عدم عرض الرسالة على جوانا لم يخطر ببالي أبداً؛ فقد سلمتها لها على الفور، ولكنها برهنت على صحة إيماني بصلابتها بعدم إظهارها لأي انفعال غير السرور.

- يا لها من رسالة قذرة فظيعة! سمعت كثيراً عن الرسائل المجهولة، ولكني لم أر واحدة من قبل. أهي دائماً هكذا؟

- لا يمكنني أن أخبرك... إنها أول تجربة لي أنا الآخر.

بدأت جوانا تفهّمه ثم قالت: لا بد أنك مصيب بخصوص المساحيق التي أضعها على وجهي يا جيري... أحسبهم يرون في فتاة هجرها أهلها!

- نعم، ومما يشجع على هذه النظرة أن أباًنا كان رجلاً طويلاً القامة داكن البشرة ذا فلك طويل بارز، وكانت أمّنا شقراء الشعر زرقاء العينين وصغيرة الجسم، وأنا أشبهه وأنت تشبهينها.

أومأت جوانا برأسها متأملة: نعم، نحن لا تتشابه أبداً. ليس من شأن أحد أن يظننا أخوين.

- هناك شخص لم يرنا كذلك بالتأكيد.

قالت جوانا إنها ترى هذا الأمر ممتعًا جداً. أمسكت بالرسالة من طرفها وسألت عما ستفعله بها. قلت: أعتقد أن الإجراء الصحيح هو إلقاءها في النار باشمئزاز. ثم قمت بتطبيق ذلك، فصققت جوانا باستحسان قائلة: لقد فعلت ذلك بطريقة جميلة؛ كان يجب أن تكون ممثلاً. من حسن حظنا أن النار ما زالت متقدة، أليس كذلك؟

وافقتها قائلًا: من شأن سلة المهملات أن تكون حلًا أقل درامية. كان بوسعي طبعاً إشعال النار فيها بعد قبض ثقاب ومراقبتها وهي تحترق بيضاء.

- إن الأشياء لا تحترق عندما تريدها أن تحترق، بل هي تنطفئ، وربما توجب عليك إشعال العديد من أعواد الثقاب.

نهضت وذهبت صوب النافذة، ثم التفت بحدة وهي تقف هناك وقالت: ترى من الذي كتبها؟

- لا يedo محتملاً أبداً أن نعرفه.

- نعم... أظن أننا لن نعرفه.

سكتت لحظة ثم قالت: عندما أفكّر في هذا الأمر فإنني لا أراه ممتعًا. لقد ظنتُ أنهم... أنهم قد أحبونا هنا.

- إنهم كذلك... هذا مجرد شخص معتهو غير سوي.

- أظن ذلك. إنه عمل بغيض... يثير الاشمئزاز!

بعد أن خرجت إلى ضوء الشمس فكرت في كلامها فوجدتها مصيبة فيه تماماً: كان عملاً قنراً. لقد كره أحدهم مجيتنا إلى هنا...

كره أحدهم ما تتمتع به جوانا من جمال فتي ناضر صبغته المدنية...
أراد أحدهم الإيذاء. ربما كانت أفضل طريقة للتعامل مع هذا الأمر هي
الضحك منه، ولكنني شعرت في أعمافي بأنه لم يكن مضحكاً!

جاء الدكتور أوين غريفيث ذلك الصباح. كان من دأبه أن
يقوم بعمل كشف أسبوعي شامل عليّ، وقد أحسست أنني أحبيت
ذلك الطيب. كان أسمير ث الهيئة، ذا أسلوب غريب في الحركة،
وكان يداه ماهرتين ناعمتين. أما كلامه فكان متربداً متقطعاً خجلاً
بعض الشيء.

أبلغني أن صحتي تتقدم بشكل مشجع، ثم أضاف: يجب أن
تكون على ما يرام، أليس كذلك؟ هل أنا متوهם أم أنك حقاً معكر
المزاج هذا الصباح؟

- لقد وصلتني رسالة شديدة البداءة مغفلة من التوقيع مع قهوة
الصباح، وقد تركت شيئاً من المرارة في فمي.

ألقى حقيقته على الأرض، وانفعل وجهه الأسمير النحيل وهو
يقول: هل تريد القول إنك تلقيت أنت أيضاً واحدة منها؟

أثار ذلك اهتمامي فقلت: فقد انتشر الكثير منها إذن؟

- نعم، منذ بعض الوقت.

- فهمت... كان انطباعي أن كوننا غرباء هنا لا يلقي ترحيباً.

- كلا، ليس لهذا علاقة بالأمر. إنه مجرد...

سكت قليلاً ثم سأله: ماذا كانت تقول؟

ثم أحمر وجهه وقال بارتباك: ربما ما كان لي أن أسألك؟

- سأخبرك بكل سرور. كانت تقول إن الفتاة الرائعة التي أحضرتها معي ليست اختي... ولا تكاد تقرئني! وأنا أستخدم هنا كلاماً منقحاً مهذباً لم يرد في الرسالة.

احمر وجهه الأسمر غضباً وقال: تباً لهذا الأسلوب! أرجو أن لا تكون اختك قد تضايقـت؟

- إن جوانا تبدو رقيقة كالملائكة، ولكنها فتاة عصرية وصلبة إلى حد بعيد. وجدت الرسالة مسلية جداً، فهي لم تصادف مثل هذه الأمور في حياتها من قبل!

قال غريفيث بحماسة: وكنت آمل أن لا تصادفها.

قلت بصلابة: وعلى أية حال فإنني أرى أن هذه هي أفضل طريقة للتعامل مع الأمر... التعامل معه باعتباره أمراً سخيفاً تماماً.

- نعم. إنما...

- بالضبط. المشكلة تكمن في «إنما» هذه!

- المشكلة أن مثل هذه الأشياء ما أن تبدأ حتى تتطور.

- هذا ما أظنه.

- إنها حالة مرضية بالطبع.

أومأت موافقاً ثم سأله: أتوجد أية فكرة عَمِّن يقف خلف ذلك؟

- كلا، ليتني أعرف. إن جرثومة الرسائل المجهولة تنشأ عن أحد سببين. فهي قد تكون محددة.. موجهة لشخص معين أو مجموعة من الأشخاص، وهذا يعني أنها ذات دافع، ويشعر صاحبها بضيقية أو ظلم (أو هكذا يظن) ويختار طريقة سرية ماكراً لتنفيذها. وهي طريقة وضيعة مقرفة، ولكنها ليست -بالضرورة- ضرباً من الجنون، وفي هذه الحالة يسهل تتبع من كتبها... فتجده إما خادماً صُرف من العمل أو امرأة غيورة... وهكذا. ولكن إن كانت عامة وليس محددة فإنها تصبح أكثر خطورة. تُرسل الرسائل دون تمييز، وهي تؤدي هدفاً يتمثل في التنفيس عن إحباط كاتبها. وكما قلت: فإن ذلك مرض بلا ريب. ويزداد الجنون، وفي نهاية الأمر تتعقب الشخص الفاعل لتجد أنه -غالباً- شخص أبعد ما يكون عن الشكوك، ويتهيي الأمر. لقد انتشرت مثل هذه الظاهرة بشكل فظيع في الجانب الآخر من الإقليم العام الماضي... وظهر في النهاية أنها رئيسة قسم القبعات في مؤسسة كبيرة للملابسات. كانت امرأة هادئة ومهذبة... وكانت تعمل في المؤسسة منذ سنوات. وأنذكر شيئاً مشابهاً حدث أثناء عملي في الشمال، ولكن ظهر أن ذلك كان ناتجاً عن حقد شخصي بحت. ومع ذلك، فقد رأيت أموراً كهذه، وهي -بصراحة- عمل يخيفني !.

- هل تُرسل منذ زمن بعيد؟

- لا أظن ذلك. يصعب العجزم بالطبع، لأن من يتلقون هذه

الرسائل لا يخرجون للإعلان عنها، بل هم يلقون بها في النار.

سكت قليلاً ثم قال: لقد تلقيت أنا واحدة، وتلقى المحامي سيمنعنن واحدة، ومرتضان من مرضى المساكين أخبراني عنها.

- أهي كلها متشابهة؟

- نعم. إنه عزف واضح على موضوع الجنس... هذه خاصية مشتركة فيها.

ابتسم الطيب ثم أضاف: رسالة سيمنعنن اتهمته بعلاقات غير شرعية مع الموظفة التي تعمل عنده... أي الآنسة غينش المسكونة، التي تجاوزت سن الأربعين، وتلبس نظارة، ولها أسنان كأسنان الأرنب. وقد أخذ سيمنعنن الرسالة إلى الشرطة مباشرة. أما رسائلي فتهمني بمخالفة آداب المهنة مع مرضى من النساء... كلها رسائل سخيفة وصبيانية، لكنها رسائل حاقدة إلى حد مخيف.

تجهم وجهه وقال: ومع ذلك فأنا خائف؛ فهذه الأشياء قد تكون خطيرة.

- أظن ذلك.

- رغم أنه تصرف صبياني مناكف ويدني فإن إحدى هذه الرسائل ستصيب هدفها عاجلاً أم آجلاً. وعندها: الله -وحده- يعلم ماذا سيحدث! إنني خائف أيضاً من تأثيرها على العقول البطيئة الشكاكحة غير المتعلمة، فإذا ما رأى هؤلاء شيئاً مكتوباً فإنهم يعتقدون بصحته. قد تظهر جميع أنواع التعقيدات.

قلت متأملاً: لقد كانت رسالة تدل على الأمية، بل أظنها كُتبت
-بالفعل- على يد أمي.

قال أورين: "أحقاً؟"، ثم ذهب.

عندما فكرت لاحقاً في كلمته تلك وجدتها تثير القلق.

* * *

الفصل الثاني

لن أزعم أن وصول رسالتنا المُغفلة لم يترك أثراً سيناً علىي، فالواقع أنها فعلت، ولكن -في الوقت ذاته- سرعان ما غاب الموضوع عن ذهني، ذلك أنتي لم آخذ الرسالة -في ذلك الوقت- على محمل الجد. أذكر أنتي كنت أحدث نفسي وأقول إن هذه الأمور ربما تحدث كثيراً في القرى النائية. ربما كانت تقف خلف هذا الأمر امرأة هستيرية التزعة تميل إلى جعل نفسها موضوعاً مثيراً. وعلى أية حال فإن كانت الرسائل بمثل تلك الصبيانية والسفح كتلك التي تلقينها فإنها لا يمكن أن تؤذني كثيراً.

وقدت الحادثة التالية -إن صبح التعبير- بعد نحو أسبوع عندما أبلغتني بارتريدج وهي ترم شفتيها بأن بيتريس (الخادمة التي تأتي للمساعدة نهاراً) لن تأتي في ذلك اليوم.

قالت بارتريدج: لقد فهمت يا سيدي أن الفتاة متضايقة.

لم أكن متأكداً مما كانت بارتريدج تلمح إليه، ولكنني ظننت، مخطئاً، أن في الأمر آلاماً معوية كانت بارتريدج أكثر رقة وتهذيباً من

أن تشير إليها بشكل أكثر مباشرة. قلت لها إنني آسف لذلك، وأرجو أن تتحسن حالتها عما قريب.

قالت بارتريدج: إن الفتاة تتمتع بصحة ممتازة يا سيدى. إنها متضايقه في مشاعرها.

قلت بارتياپ: آه!

أكملت بارتريدج: بسبب رسالة تلقتها... وفهمت أن الرسالة تعرّض بها.

وقد جعلني وجه بارتريدج المكفهر، وما وضعته من تركيز على كلمة التعرض... جعلني ذلك كله أخشى أن يكون لذلك التعرض علاقة بي أنا. وحيث أتني لم أكن معنِّياً أبداً بتلك الفتاة ياتريس، إلى درجة تجعلني لا أميّزها إذا ما صادفتها في البلدة... فإنني أحسست بازعاج طبيعي مبرر. إذ أن رجلاً مريضاً مثلني يتهدى في مشيته على عكازين لا يمكن أن يقوم بدور المخادع لفتيات القرية. قلت غاضبًا: أي هراء هذا!

قالت بارتريدج: هذا بالضبط ما قلته لوالدة الفتاة يا سيدى. فقد قلت لها: "لم تحدث أبداً أشياء من هذا النوع في هذا البيت، ولن تحدث أبداً ما دمت مسؤولة هنا". كما قلت لها: "فيما يخص ياتريس، فإن الفتيات مختلفات هذه الأيام، وبالنسبة لما يدور في الأماكن الأخرى فلا أستطيع أن أقول شيئاً". ولكن الحقيقة يا سيدى إن صديق ياتريس الذي تخرج معه ويعمل في المُرأب قد تلقى

واحدة من هذه الرسائل البغيضة أيضاً، وهو لا يتصرف بعقلانية أبداً.

قلت غاضباً: لم أسمع في حياتي أسفخ من هذا الأمر أبداً!

- أرى يا سيدى أن من الأفضل أن تتخلص منها. رأى أنها ما كانت لتظهر كل هذا الضيق لو لم يوجد شيء لم تُرِد له أن يُكشف.
لا دخان بلا نار... هذا ما أقوله!

ولم أكن أعرف كم ستتعيني تلك العبارة المحددة.

* * *

كنت قد قررت في ذلك الصباح أن أمشي نزولاً إلى القرية من باب المغامرة (وكتنا أنا وجوانا نسميهما القرية رغم أننا كنا مخطئين من الناحية الفنية، وكان من شأن أهل لايمستوك أن يتزعجوا لو سمعونا نقول ذلك).

كانت الشمس مشرقة والهواء بارداً ومنعشَاً فيه حلاوة الربيع. ركبت عكاكي وانطلقت، رافضاً بقعة السماح لجوانا بمرافقتي، قائلاً: لا، لن آخذ معى ملاكاً يرعاني ويتمايل بجانبى ويسمعني كلمات التشجيع. تذكرى المثل القائل إن من يسافر وحيداً يسافر بشكل أسرع، وأنا لدى الكثير من الأعمال؛ سأذهب إلى غالبريث في مكتب غالبريث وسيمنغتون للمحاماة لأوقع على تحويل الأسهم، وسوف أذهب إلى الخباز وأشكوه من رغيف الزيسب، وسوف أعيد الكتاب الذي استعرناه. كما أن علي الذهاب إلى المصرف أيضاً. اتركيبي أذهب أيتها المرأة، فالصبح قصير جداً.

كان الترتيب يقضي بأن تمر بي جوانا وتأخذني في السيارة وتعيدهني عندما تحين ساعة الغداء. قالت: هذا سيعطيك مجالاً لقضاء النهار مع الجميع في لايمستوك.

- ليس عندي شك بأنني سأكون قد رأيت كل من يستحق الرؤية حتى ذلك الوقت؛ ذلك أن الصباح في الشارع العام للبلدة يكون ملتقى للمتسوقين حيث يتم تبادل الأخبار.

ومع ذلك لم أذهب إلى البلدة مشياً دون مرافق، فما أن سرت مسافة مترين حتى سمعت جرس دراجة هوائية ورائي، ثم صوت الكواكب، ثم صوت ميغان هنتر وقد كادت تقع عن دراجتها عند قدمي: قالت لاهثة وهي تنفس وتنهض الغبار عن ملابسها: مرحباً.

كنت أحب ميغان وأشعر دوماً بأسف غريب عليها. كانت ابنة زوجة سيمونتن المحامي، أي ابنة السيدة سيمونتن من زواجهما الأول. لم يكن أحد يتحدث كثيراً عن السيد (أو الكابتن) هنتر، وقد فهمتُ بأن الرأي السائد هو أن من الأفضل نسيانه؛ إذ يقال إنه كان يعامل السيدة سيمونتن معاملة سيئة جداً، وقد افترقا بالطلاق بعد سنة أو ستين من زواجهما تقريباً. كانت امرأة تمتلك أموالاً خاصة بها، وقد استقرت مع ابنتها الصغيرة في لايمستوك «لكي تنسى»، ثم تزوجت في النهاية الأعزب الوحيد المؤهل في القرية، ريتشارد سيمونتن. وقد نتج عن الزواج الجديد ولدان تعلق بهما أبواهما أياً ما تعلق، وأنصور أن ميغان كانت تشعر أحياناً بأنها الشخص المختلف في البيت. ومن المؤكد أنها لم تكن تشبه والدتها التي كانت امرأة

صغريرة الجسم شاحبة ذات نوع من الجمال الباهت، وكانت تتكلّم بصوت رفيع حزين عن مشكلات الخدم وعن صحتها.

أما ميغان فكانت فتاة طويلة القامة مهلهلة الشكل، ورغم أنها في العشرين من عمرها إلا أنها تبدو أشبه بتلميذة مدرسة في السادسة عشرة. كان شعرها بنياً غير مرتب، وعيتها عسليةتين خضراء، وكانت ذات وجه رفيع تبرز عظامه، وابتسامة جانبية جميلة إلى حدّ غير متوقع. وهي عادة ما ترتدي ملابس باهتة الألوان غير جذابة، وجوارب قطنية ناعمة تملؤها الثقوب. وقد رأيتها ذلك الصباح أشبه بالحصان منها بالإنسان، والحقيقة أنه كان ممكناً - بالقليل من التشذيب والعناء - أن تكون فرساً جميلاً.

تكلمت كعادتها باندفاع لاهث: كنت في المزرعة... مزرعة لاشر، لأرى إن كان عندهم بيض بط. إن لديهم الكثير من الخراف الصغيرة الجميلة! هل تحب الخراف؟ أنا أحب حتى رائحتها. حسناً، أنت ذاهب إلى البلدة مشياً؟رأيتكم تمشي وحيداً فأحببت أن أقف وأسير معك، إلا أن وقتي جاءت فجائية!

- لقد مزقتِ جواربك.

نظرت ميغان إلى ساقها اليمنى بشيءٍ من الحزن وقالت: نعم. ولكن كان بها ثقبان من قبل، ولذلك فلا يهم الأمر كثيراً.

- ألا تقومين بإصلاح جواربك أبداً يا ميغان؟

- إلى حدّ ما... عندما تكتشف والدتي أمري. ولكنها لا تلاحظ كثيراً ما أفعله؛ وهذا من حسن حظي نوعاً ما، أليس كذلك؟

- ييدو أنك لا تدركين أنك فتاة ناضجة.
- أتعني أنني يجب أن أكون مثل اختك... متأففة؟
- كرهت -إلى حد ما- وصف جوانا بهذا الوصف، ولكنني قلت:
إنها تبدو نظيفة ومرتبة تسر الناظر إليها.
- إنها جميلة جداً. ولكنها لا تشبهك أبداً، لماذا؟
- الإخوة والأخوات لا يتشابهون دائمًا.
- نعم، بالطبع. إنني لا أشبه برايان أو كولين كثيراً... كما أن برايان وكولين لا يشبه أحدهما الآخر.
- سكتت قليلاً ثم قالت: أليس هذا غريباً؟
- ما هو الغريب؟
- ردت ميغان باختصار: العائلات.
- قلت متأنلاً: أظن ذلك.
- تساءلت عما يدور في ذهنها بالضبط، ثم مشينا في صمت بعض الوقت إلى أن قالت ميغان بصوت فيه نبرة خجل: أنت طيار، أليس كذلك؟
- بلـ.
- وهل هذا هو السبب في إصابتك؟
- نعم، تحطمـت طائرـتي.

- لا أحد هنا يطير.

- لا، لا أظن ذلك. هل تحبين الطيران يا ميغان؟

بدت مدهوسة وقالت: أنا؟ يا إلهي! كلا... ربما أصابني ذلك بالدوار. إنني أصاب بالدوار حتى في القطار!

سكتت، ثم سألتني بتلك المباشرة التي لا يظهرها عادة سوى الطفل: هل ستتعافي تماماً وتعود للطيران من جديد أم أنك ستبقى عاجزاً إلى الأبد؟

- يقول طبيبي إنني سأكون على ما يرام.

- نعم، ولكن هل هو من النوع الذي يكذب؟

- لا أظن ذلك. بل إنني واثق من هذا في الواقع؛ فأنا أثق فيه.

- إذن لا بأس بهذا... ولكن كثيراً من الناس يكذبون.

قبلت هذه الحقيقة -التي لا يمكن إنكارها- بصمت.

قالت ميغان وكأنها تُصدر حكماً محاباً: يسعدني ذلك. كنت أخشى أن يكون السبب فيما يbedo عليك من مزاج سيء أنك ستكون مقعداً دوماً... ولكن إن كان ذلك مجرد طبع فالامر مختلف.

قلت ببرود: لست سيء المزاج.

- أنت إذن سريع الغضب.

- أنا أغضب لأنني أستعجل استرداد لياقتي من جديد.. وهذه الأمور لا يمكن استعجالها.

- فقيمـ - إذنـ - القلق والاحتجاج؟

بدأت بالضحك، ثم قلت: يا عزيزتي، ألا تستعجلين حدوث أية أمور؟

فكرت ميغان في السؤال ثم قالت: أبداً، ولماذا أستعجل؟ لا شيء يدعو للعجلة؛ فلا يحدث شيء أبداً.

لفت انتباهي شيء كثيف يائس في كلماتها فقلت بلفظ: ماذا تفعلين بنفسك هنا؟

رفعت كتفيها غير مبالية وقالت: وماذا لدى لأفعله؟

- أليس لديك أية هوايات؟ هل تمارسين ألعاباً معينة؟ هل لديك أصدقاء هنا؟

- أنا فاشلة في الألعاب، كما أنني لا أحبها كثيراً. أما الفتيات في هذه البلدة فقليلات، وأنا لا أحبهن، كما أنهن يرونهن فظيعة.

- هراء... لماذا يرونك كذلك؟

هزت ميغان رأسها، فسألتها: ألم تذهبـ إلى المدرسة؟

- بلـ، وعدـت منها قبل عامـ.

- هل أحـبـت المـدرـسـةـ؟

- لم تكن سينة... مع أنهم يعلمون المرء الأشياء بطريقة سخيفة جداً.

- ماذا تعني؟

- أعني ... مجرد نُفُض صغيرة من هنا وهناك. يجتزئون ويدللون من موضوع لآخر. كانت مدرسة رخيصة، كما أن المدرسين لم يكونوا جيدين؛ لم يكن بسعهم الإجابة عن الأسئلة بطريقة صحيحة.

- القليل جداً من المدرسين يستطيعون ذلك.

- ولماذا لا يستطيعون؟ هذا واجبهم.

وافقتها، فقالت: إنني غيبة بالطبع، والكثير من المواد تبدو لي تافهة. التاريخ على سبيل المثال... إنه يختلف باختلاف المراجع!

- هذا مكمن المتعة فيه.

- والقواعد، والإنشاء السخيف، وكل هذه الحماقات التي كتبها شيلي وهو يلغو بكل ذلك الكلام عن قبرة، وذلك الآخر وردد سورث الذي ذهب عقله على بعض أزهار النرجس السخيفه. وشكسبير ...

سألتها باهتمام: ما العيب في شكسبير؟

- إنه يعصر نفسه ليقول أموراً بأسلوب صعب بحيث لا تفهم ما يعنيه. ومع ذلك فإنه أحب بعض ما كتبه شكسبير.

- أنا واثق أن من شأنه أن يُسر لـو علم بذلك.

لم تشك ميغان بوجود أية سخرية في عبارتي، وقالت وقد أشرق وجهها: أحب على سبيل المثال شخصيتي جونيriel وريغان.

- لماذا هاتان بالذات؟

- آه، لا أعرف. إنهم مُقْنِعَتَان إلى حد ما. لماذا تظنهما كاتانا كذلك؟

- كذلك ماذا؟

- كما كانوا. أقصد أن شيئاً قد جعلهما هكذا دون شك.

وتعجبت لأول مرة. كنت قد تقبلت -دائماً- ابتي الملك لير الكبيرتين باعتبارهما امرأتين بغيضتين بلا تفكير، ولكن سؤال ميغان عن السبب أثار اهتمامي، فقلت لها: سأفكر في هذا الأمر.

- إنه لا يهم... كنت أتساءل فقط. على أية حال فإنه الأدب الإنكليزي فقط، أليس كذلك؟

- تماماً، تماماً. ألم تحتي أية مادة أخرى؟

- الرياضيات فقط.

قلت مدهوشًا: الرياضيات؟

أشرق وجه ميغان وقالت: لقد أحببت الرياضيات، ولكنها لم تُدرس بشكل جيد. كان بودي لو أتعلم الرياضيات بطريقة جيدة... إنها رائعة. على أية حال فإنني أعتقد بوجود شيء رائع في الأرقام، أليس كذلك؟

قلت صادقاً: لم أشعر بمثل هذا أبداً.

كنا ندخل الآن الشارع العام في البلدة. قالت ميغان بحدة: ها هي الآنسة غريفيث... امرأة بغية.

- ألا تحببها؟

- بل أنا أمقتها؛ فهي تلاحقني دائمًا كي أنضم إلى جماعتها من فتيات الكشافة الكريهات، وأنا أكره فتيات الكشافة. لماذا يلبس زيهن الخاص ويخرجن في مجموعات ويضعن الشارات من أجل شيء لم يتلمن عمله بطريقة صحيحة؟ أظنه أمراً تافهاً.

كنت أميل إجمالاً للاتفاق مع ميغان، ولكن الآنسة غريفيث نزلت علينا قبل أن أتمكن من التعبير عن موافقتي تلك.

كان لأخت الطبيب -وتدعى إيمي- من الثقة الوطيدة بنفسها ما لا يملكه شقيقها، وكانت وسامتها من النوع الرجولي الذي سفعته الشمس والأنواء، ولها صوت عميق محبب. صاحت بنا: مرحباً أنتما الاثنين. أليس هذا صباحاً رائعاً؟ أنت يا ميغان الإنسانة التي أردت رؤيتها؛ أريد مساعدتك في عَنْوَنة الرسائل إلى جمعية المحافظين.

تممت ميغان بعبارة مراوغة، ثم أسدلت دراجتها على حافة الطريق ودخلت «المخازن الدولية» بطريقة مقصودة.

قالت الآنسة غريفيث وهي تنظر إليها: طفلة غريبة... كومة عظام كسلة تقضي وقتها متسكعة هنا وهناك... لا بد أنها محتنة كبيرة للسيدة سيمونغتون المسكونة. أعرف أن والدتها حاولت أكثر من مرة

أن تحملها على تعلم مهنة ما... الطباعة بالاختزال أو الطبخ أو تربية الأرانب. إنها بحاجة لاهتمام في الحياة.

أحسستُ أن ذلك ربما كان صحيحاً، ولكنني شعرت بأنني - لو كنت مكان ميغان - لعارضت بقوة أي اقتراح للآنسة غريفيث لسبب بسيط هو أن شخصيتها العدوانية من شأنها أن تذيقني الأمرين.

أكملت الآنسة غريفيث: أنا لا أحب الكسل، وخاصة لدى الشباب. وميغان ليست بتلك الفتاة الجميلة أو الجذابة، بل إني لأظنهما معتوهة في بعض الأحيان... إنها خيبة أمل كبيرة لأمها. ثم خفضت صوتها قليلاً وقالت: كان أبوها بالتأكيد رجلاً سيء السلوك. أخشى أن ترث الفتاة صفاته، وهو أمر مؤلم لأمها. على أية حال... إن عمران الدنيا يتطلب وجود مختلف أصناف البشر، هذا ما أقوله.

أجبتها: وذلك من حسن الحظ.

ضحكـت إيمي غريفـيث بـمرح وـقالـت: نـعـمـ، ما كـنـا لـنـفـلـحـ لو خـلـقـنا جـمـيـعاـ من نـمـطـ وـاحـدـ. وـلـكـنـي لا أـحـبـ روـقـةـ أحـدـ لا يـأـخـذـ كلـ ما يـمـكـنـهـ من هـذـهـ الـحـيـاـةـ. أناـ شـخـصـياــ أـسـتـمـتـعـ بـحـيـاتـيـ، وـأـرـيدـ لـكـلـ اـمـرـئـ أـنـ يـسـتـمـتـعـ بـهـاـ أـيـضاــ. يـقـولـ لـيـ النـاسـ إـنـيـ أـشـعـرـ دـوـنـ شـكــ بـالـمـلـلـ الـقـاتـلـ مـنـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـرـيفـ طـيـلـةـ الـعـامـ، وـأـجـيـبـهـمـ بـأـنـ ذـلـكـ غـيـرـ صـحـيـحـ إـطـلاـقاـ، فـأـنـاـ مـشـغـلـةـ دـائـمـاـ، وـسـعـيـدـ دـائـمـاـ! هـنـاكـ دـائـمـاـ أـمـورـ تـجـريـ فـيـ الـرـيفـ. إـنـ وـقـتـيـ مـُسـتـنـفـذـ كـلـهـ، بـسـبـبـ الـكـشـافـةـ وـالـمعـهـدـ وـالـلـجـانـ الـمـتـعـدـدـ، نـاهـيـكـ عـنـ الـعـنـاـيـةـ بـأـخـيـ أـوـيـنـ.

في تلك اللحظة رأت الآنسة غريفـيث إـحدـىـ صـاحـبـاتـهاـ عـلـىـ

الجانب الآخر من الطريق فنادتها محبية ثم ذهبت إليها وتركته حرأ
لمتابعة طريقه إلى المصرف.

كنت أرى في الآنسة غريفيث شخصية ذات تأثير طاغ لا يترك
للمرء متنفساً، رغم أنني كنت معجبًا بنشاطها وحيويتها. وكان أمراً
جميلًا أن ترى عليها علامات الرضا المتبهج بحظها في الحياة،
ذلك الرضا الذي كانت تبديه دائمًا، على النقيض تماماً من تتممات
الشكوى الخافحة التي تطلقها كثير من النساء.

بعدما أنهيت عملي في المصرف بشكلٍ مُرضٍ ذهبت إلى
مكتب محامية غالبريث سيمونغتون. لا أعرف إن كان أحد من عائلة
غالبريث باقٍ على قيد الحياة أم لا؛ فأنا لم أر أحداً منهم أبداً.
أرشدوني إلى مكتب ريتشارد سيمونغتون الداخلي الذي كان فيه من
القِدم ما يوحي بمكتب محامية عريق، وقد حفل بالعديد من خزائن
الوثائق الكثيرة التي كُتبت على ملفاتها أسماء مثل الليدي هوب،
السير إيفارد كار، الراحل ولIAM هوريس... الخ، وكان ذلك كله
يعطي الجو المطلوب، المعبر عن عائلات الريف الإقطاعية وعن
مكتب محامية عريق مستقر.

وعندما تفحصت السيد سيمونغتون وهو منكب على الوثائق التي
 أحضرتها له أدركت أن السيدة سيمونغتون -إن كانت قد لاقت مصيبة
في زواجهما الأول- فإنها قد أحسنت الاختيار بالتأكيد في زواجهما
الثاني. كان ريتشارد سيمونغتون مثالاً لاحترام الرذين، من ذلك النوع
من الرجال الذين لا يسيرون لزوجاتهم لحظة واحدة من القلق. كان
ذا عنق طويل وحنجرة بارزة ووجه شاحب وأنف طويل رفيع. ما من

شك أنه كان زوجاً صالحًا وأباً جيداً، ولكنه لم يكن من يجعلون النبضات تتلاحق بجنون.

وسرعان ما بدأ السيد سيمعنون حديثه. كان يتكلم ببطء ووضوح مُظهراً الكثير من الفهم والدهاء. سوينا المسألة التي كانت أمامنا ونهضت للمغادرة وأنا أقول: لقد تمشيت عبر التلة مع ابنة زوجتك.

بدا السيد سيمعنون لأول وهلة وكأنه لا يعرف من هي ابنة زوجته، ثم ابتسم وقال: آه، نعم.. بالطبع، ميغان. لقد.. لقد عادت من مدرستها منذ فترة. إننا نفكر في البحث عن شيء تعمله... نعم، ت عمله. ولكنها ما تزال صغيرة جداً بالطبع. كما أنها متخلفة بالنسبة لعمرها، هكذا يقولون. نعم، هكذا أخبروني.

نهضت مغادراً، وفي المكتب الخارجي رأيت رجلاً طاعناً في السن يجلس على كرسي ويكتب ببطء وجهد، بالإضافة إلى ولد صغير مماثل الخدين، وامرأة في أواسط عمرها جعداء الشعر تلبس نظارة، وكانت تطبع على الآلة الكاتبة بسرعة. ولthen كانت هذه هي الآنسة غينش فإنتي أتفق مع أوين غريفيث بأن وجود غراميات بينها وبين رئيسها مسألة أبعد ما تكون عن الاحتمال.

ذهبت إلى الخباز وأدليت بانتقاداتي المتعلقة برغيف الزبيب. وقد تلقى الخباز انتقادي بما تقتضيه المناسبة من عبارات الاستهجان وعدم التصديق، ثم دفع إليّ برغيف زبيب جديد بدلأ منه «خرج لتوه من الفرن»... وقد أثبتت سخونة الرغيف اللاذعة على صدرني صحة كلامه.

خرجت من المخبز ونظرت إلى جانبي الطريق أملاً رؤية جوانا
قادمة بالسيارة؛ فقد أتعبني المشي كثيراً، وكان من المربك تماماً
المضي في المشي مع تدبر أمر العكازين ورغيف الزبيب... ولكن
لم يكن من أثر لجوانا بعد. وفجأة تسمرت عيناي دهشة؛ فقد أنت
تهادى على الرصيف باتجاهي فتاة كالملائكة. لا توجد - حقاً - كلمة
أخرى لوصفها: الملامح الكاملة، والشعر الذهبي المتموج، والجسم
الطويل المتناسق! وكانت تمشي الهويني كالملوك كأنها تسبح مقتربة
مني أكثر وأكثر. فتاة رائعة، متألقة، تأسر الألباب!

وفي غمرة انفعالي العارم كان لا بد لشيء ما أن يقع، وكان
رغيف الزبيب هو الذي وقع؛ فقد انزلق من قبضتي، وانحنىت لأأخذه
فوقعت عصاي التي طقطقت على الرصيف، وانزلقت أنا وكدت أقع
على الأرض. وكانت يد الفتاة القوية هي التي أمسكت بي وتبني،
وقد بدأت أتلعثم: ش... شكرأ لك كثيراً، إنني آس... آسف جداً.

أخذت رغيف الزبيب عن الأرض وأعطيته مع العكاز،
ثم ابسمت بلطف وقالت: لا شكر على واجب، على الرحب
والسعنة.

وتلاشى السحر تماماً أمام الصوت الفاتر الرسمي؛ فقد انقلبت
الصورة الساحرة إلى مجرد فتاة لطيفة مشوقة القوام، لا أكثر.

بدأت أفك في ما كان سيحدث لو أن الله قد منح هيلين طروادة
نفس تلك البرات الباردة. كم هو غريب أن تستطيع فتاة إثارة روحك
من الأعماق طالما هي صامتة، وأن يتلاشى كل ذلك السحر كأنه
لم يكن في اللحظة التي تتكلم بها. ومع ذلك فإني أعلم أن العكس

يحدث أيضاً؛ فقد رأيت امرأة قبيحة المنظر ما كان أحد لينظر إليها مرتين، ثم فتحت فمها تتحدث فإذا بها تتدفق حيوية وسحراً فجأة وكأن كليوباترا قد بعثت من جديد.

وصلت جوانا وأوقفت السيارة بجانبي عند الرصيف دون أن الحظ وصولها. سألتني إن كان في الأمر شيء، فقلت وأنا أتمالك نفسي: لا شيء، كنت أفكر بهيلين طروادة وغيرها.

- يا له من مكان غريب تفكير فيه بذلك! كنت تبدو غريباً جداً وأنت تقف هنا ممسكاً برغيف الزبيب فاغرراً فمك على اتساعه.

- لقد تعرضتُ لصدمة، فقد زُرعتُ لبرهة في طروادة ثم عدت ثانية. ثم قلت وأنا أشير إلى تلك الفتاة التي كانت تمضي مبتعدة: أتعرفين من تكون هذه؟

قالت جوانا وهي تنظر إلى الفتاة إنها مريعة أطفال سيمونغتن، ثم سألتني: أهذه هي التي أربكتك على هذا النحو؟ إنها جميلة لكنها فتاة سخيفة.

- أعرف. إنها مجرد فتاة لطيفة، وأنا الذي كنت أرى فيها أفروديت.

فتحت جوانا باب السيارة فدخلتها. قالت: أليس هذا غريباً؟ ترى بعض الناس في غاية الجمال، دون أن تكون لديهم أية جاذبية، وهذه الفتاة من هذا النوع. وهو ما يبدو أمراً مؤسفاً.

قلت: إن كانت مريعة أطفال فربما كان ذلك أفضل لها.

* * *

الفصل الثالث

ذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم لشرب الشاي عند السيد باي. كان السيد باي رجلاً صغير الجسم بدينًا يشبه النساء إلى حد كبير، مولعاً بكراسيه المنجدة وتماثيله الصغيرة ومجموعة تحفاته. وكان يعيش في البيت المسمى برايور لودج، وهو البيت الذي تقع في أراضيه أطلال دير الرهبان القديم.

كان برايور لودج بيته رائعاً جداً، ونتيجة لعناية السيد باي فقد كان في أفضل حالاته؛ فكل قطعة أثاث فيه ملمعة وم موضوعة في مكانها المناسب تماماً. وكانت الستائر والفرش فاخرة وجميلة الألوان ومن الحرير الثمين جداً.

لم يكذب البيت يكون مسكناً لرجل، وقد خطر لي بأن العيش فيه يشبه السكن في غرفة أثرية في أحد المتاحف. وكانت متعة السيد باي الرئيسية في هذه الحياة هيأخذ الناس في جولة حول بيته، وما كان ليفلت من شغفه هذا حتى أولئك الزوار الذين لا يأبهون أبداً لما حولهم من سكن أو بيئة، وحتى لو كنت من التقشف والزهد بحيث لا ترى للحياة من ضرورات إلا مذيعاً وحماماً وسريراً وجدراناً

تحيط بذلك كله، فإن السيد باي لم يكن ليأس من إرشادك إلى خيارات أفضل.

ارتعدت يداه الصغيرتان الممتلتتان وهو يصف لنا كنوزه، وارتفع صوته وهو يروي لنا الظروف المثيرة التي أحضر فيها سريره الإيطالي من فيرونا. ولما كنا أنا وجوانا - من الذين يحبون التحف والأثاث الأثري فقد تجاوينا معه.

- إنها في الحقيقة متعة... متعة كبيرة... أن ندخل مثل هذه الممتلكات الشمينة لمجتمعنا الصغير. إن أهالي البلدة الأعزاء هنا ذوقوا فلاحية رعوية... كي لا نصفهم بالأجلاف. إنهم لا يعرفون شيئاً... متخلفون، متخلفون جداً! وإذا رأيت - يا سيدتي - منازلهم من الداخل فستبكين إشفاقاً عليهم، أؤكد لك أن من شأن منازلهم أن تبكيك. وربما أبكتك بالفعل، أليس كذلك؟

ردت عليه جوانا بأن الأمور لم تصل بها إلى تلك الدرجة.

- لكنك تفهمين ما أعنيه؟ إنهم يخلطون الأشياء بشكل فظيع! لقد رأيت بأم عيني قطعة أثاث من طراز شيراتون... قطعة دقيقة كاملة الجمال، من تلك التي يتعقبها هواة التحف... وإلى جانبها طاولة عادية من الطراز الفيكتوري، أو ربما خزانة كتب دوارة من خشب البلوط المدخن... نعم، إلى هنا وصلت الأمور... خشب البلوط المدخن!

ارتعد للفكرة... ثم تتمت شاكياً: لماذا الناس عميان هكذا؟ إنك توافقيني... أنا متأكد أنك توافقيني على أن الجمال هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يحيا المرء من أجله.

قالت جوانا وقد وقعت تحت التأثير المغناطيسي لجديته: نعم،
نعم، هذا صحيح.

- إذن لماذا يحيط الناس أنفسهم بالقبح؟

قالت جوانا إن ذلك غريب جداً.

- غريب؟ إنه جريمة! هكذا أسميه... جريمة! وبالأعذار التي يقدمونها! يقولون إن الشيء الفلامي مريح، أو إنه غريب الشكل.
غريب الشكل! يا له من وصف بدائي.

ثم أكمل السيد باي: ذلك البيت الذي استأجرتماه، بيت الآنسة إميلي بارتن... إنه بيت ساحر، ولديها بعض القطع الجميلة، الجميلة للغاية، وبعضها من الدرجة الأولى. وهي صاحبة ذوق أيضاً... رغم أنني لست واثقاً تماماً الآن من ذلك كما كنت في الماضي. أتصور أحياناً بأن ذوقها لا يعدو أن يكون مجرد عواطف ساذجة. إنها تحب إبقاء الأشياء في مكانها، ولكن ليس بسبب دافع جيد.. ليس بسبب الانسجام الناتج عن ذلك؛ بل لأن أمها كانت تضعها هكذا.

ثم حول انتباهه نحوه وقد تغير صوته... تغير من صوت الفنان الغارق في فنه، إلى صوت ثرثار نقام بالفطرة.

- أنت لم تعرف العائلة إطلاقاً، أليس كذلك؟ آه... لم تعرفها،
نعم. استأجرتها من خلال وكلاء البيت. ولكن، أيها العزيزان، كان يجب أن تعرفا تلك العائلة! عندما جئت إلى هذه البلدة كانت الأم العجوز على قيد الحياة. كانت امرأة لا تُصدق... فظيعة تماماً! كانت وحشاً، وحشاً أكيداً. وحشاً من العهد الفيكتوري القديم تلتهم

صغارها، نعم، إلى هذا الحد وصلت غرابتها. كانت ذات جسم هائل، ولا ريب أنها كانت تزن أكثر من مئة وعشرين كيلوغراماً، وكانت بناتها الخمس يدرن حولها جميعاً. «البنات»!... هكذا كانت دائماً تسميهن. البنات! مع أن أكبرهن سناً كانت تتجاوز الستين من عمرها في ذلك الوقت. كانت تقول عنهن أحياناً: «هؤلاء البنات الغبيات». كُن كالإماء السوداوات يذهبن ويجهّن ويعملن ويحملن ويوافقنها الرأي. وعندما تحين الساعة العاشرة عليهن الذهاب إلى النوم، ولم تكن تسمع لهن بإشعال نار التدفئة في غرفة نومهن. أما بالنسبة لدعوة صديقاتهن إلى البيت فذلك ما لم يكن ممكناً أبداً! كانت تزدرى بهن بسبب عدم زواجهن، ومع ذلك كانت ترتب لهن حياتهن بشكل يصبح من المستحيل معه أن يتلقين بأحد. وأظن أن إميلي - أو ربما كانت الأخرى أغنى - قد أقامت علاقة عاطفية في وقت ما، ولكن والدتها أنهت تلك العلاقة!

قالت جوانا: تبدو قصتهن أشبه بالروايات.

- نعم يا عزيزتي، كانت فعلاً كذلك. ثم ماتت المرأة العجوز المخيفة، ولكن الوقت كان قد فات كثيراً وقتها، فقد واصلن حياتهن هناك ومضين في أحاديثهن الخافتة عما كانت أمهن المسكونة ستتمناه في كل شأن. بل إنهن شعن بأن وضع ورق جدران جديد في غرفتها سيكون انتهاكاً لقدسية ذكرها. ومع ذلك بقين يستمتعن في المجتمع الصغير هنا بطريقة هادئة، ولكن أيّاً منها لم تكن ذات قدرة على الاحتمال. ولذلك توفين واحدة بعد الأخرى... ماتت إيديث من الأنفلونزا، وميني أجرت عملية لم تُشفَّ منها، والمسكونة مابل أصبت بالسكتة، وكانت إميلي تقوم على رعايتها والسهير عليها

بكل تفانٍ. والحق أنَّ إميلي المسكينة لم تكن تفعل شيئاً خلال السنوات العشر الأخيرة سوى رعاية المريضات من أخواتها. إنها مخلوقة رائعة، أليس كذلك؟ أشبه بقطعة جميلة من الخزف الصيني الرقيق. من المحزن جداً أن ت تعرض لمتابع بمالية... ولكن جميع الاستثمارات قد انخفضت قيمتها في البلاد.

قالت جوانا: إننا نشعر بشيء من الحرج لوجودنا في بيتها.

- كلا، كلا يا عزيزتي... يجب أن لا تشعري بمثل ذلك. إن خادمتها فلورنس الطيبة مخلصة لها وقد أخبرتني بنفسها كم هي سعيدة بوجود مستأجرين لطفاء مثلكم.

وهنا انحنى السيد باي انحاء صغيرة وأضاف: أخبرتني بأن السيدة ترى نفسها محظوظة جداً.

قلت: البيت ذو جو مهدئ يوحى بالطمأنينة.

نظر السيد باي إلى نظرة سريعة وقال: حقاً؟ أشعر بهذا؟ هذا مثير للاهتمام. لقد كنت أتساءل... نعم، كنت أتساءل.

سألته جوانا: ماذا تعني يا سيد باي؟

بسط السيد باي يديه الممتلئتين وقال: لا شيء... لا شيء. إن المرء يتساءل، وهذا كل ما في الأمر. إنني أؤمن فعلاً بمسألة الجو العام. إنها أفكار الناس ومشاعرهم، يُسقطونها على الجدران والأثاث.

لم أتكلم لبعض الوقت. كنت أنظر حولي وأتساءل كيف

يمكتني وصف جو برايور لودج. بدا لي أن الشيء الغريب هو افتقار هذا البيت لأي جو خاص به! وكان ذلك أمراً ملFTA للنظر. فكرت في هذه النقطة طويلاً بحيث لم أسمع شيئاً من الحديث الذي كان دائراً بين جوانا ومضيفها، ومع ذلك فقد تبعت إلى نفسي عندما سمعت جوانا وهي تنطق بمقدمات الوداع، فخرجت من أحلامي وأدلت بدلوي من عبارات الوداع.

خرجنا إلى الصالة جميراً. وبينما نحن نتجه إلى الباب الأمامي جاءت رسالة من خلال فتحة الرسائل في الباب ووُقعت على السجادة.

تمتم السيد باي وهو يرفعها: بريد العصر... لا بد أن تأتينا ثانية لزيارتى، أليس كذلك؟ إنه لمن الممتع أن تلقى أنساناً ذوى عقول مفتوحة.. أقصد أنساناً يقدرون الفن. إن الأهالى الطيبين هنا متخلقون عن الآخرين بمقدار خمسين عاماً. يا لإنكلترا من بلد رائع! إن بها جيوياً، ولا يمستوك واحدة من هذه الجيوب. وهي مثيرة للاهتمام من وجهة نظر جامعي الآثار... أشعر دائماً أنتي وضعت نفسى مختاراً في عزلة تامة هنا. إنه المكان الهدئ المنعزل الذي لا يحدث فيه شيء أبداً.

بعد أن صافحنا للمرة الثانية ساعدنى في ركوب السيارة بعناية مبالغ بها، وتولت جوانا القيادة. حركت السيارة بحذر ل تستدير متباوزة منطقة عشبية منحدرة، فلما تم لها ذلك وأصبح الطريق منبسطاً أمامنا رفعت يدها لتودع مضيفنا الذي كان واقفاً عند عتبات البيت، وملأ أنا إلى الأمام لأفعل الشيء ذاته.

لكن تلویحاتنا الوداعية ذهبت دون أن يلتفت إليها. كان السيد باي قد فتح رسالته، وكان يقف محدقاً إلى الورقة المفتوحة في يده. لقد وصفته جوانا ذات مرة بأنه أشبه بطفل بريء سمين متورد الوجه. وكان ما يزال سميناً في هذه اللحظة، ولكنه لم يعد يبدو طفلاً متورد الوجه. كان وجهه محظىً بلون غامق وقد تلوّث قسماته من الغضب والمفاجأة.

وفي تلك اللحظة أدركت أني قد رأيت شيئاً مألوفاً في ظرف الرسالة، ولم أكن قد أدركت ذلك عندما نظرت إليها في حينه... كان ذلك في الواقع واحداً من تلك الأشياء التي يلحظها المرء لاشعورياً دون أن يعرف أنه قد لاحظها.

قالت جوانا: يا إلهي، ما الذي أصاب ذلك المسكين المدلل؟

قلت: أتصور أنها اليد الخفية مرة أخرى.

التفت إلى ذاهلة فانحرفت بنا السيارة. قلت: احذر يا بنت.

ركزت جوانا انتباها على الطريق مرة أخرى وقد عبس وجهها وقالت: أتعني أنها رسالة كانت تلقيتها؟

- هذا تخميني.

- ما هذا المكان؟ إنه يبدو -في الظاهر- أكثر مناطق الريف الإنكليزي هدوءاً وبراءة وأماناً...

قاطعتها: ولا يحدث فيه شيء أبداً، إذا ما استشهدنا بكلام السيد باي. لقد اختار وقتاً غير مناسب ليقول ذلك، فقد حدث شيء فعلاً!

- ولكن من يكتب هذه الأشياء يا جيري؟

رفعت كتفتي حيرة وقلت: وكيف لي أن أعرف يا عزيزتي؟ أحسبي أحد مجانين القرية أو معتوهيها.

- ولكن لماذا؟ يبدو عملاً أحمق.

- يجب أن تقرئي لفرويد ويونغ وأمثالهما حتى تعرفي... أو أسألي الدكتور أوين.

هزت جوانا رأسها وقالت: الدكتور أوين لا يحبني.

- ولكنه لم يكذب يراك.

- يبدو أنه رأى مني ما يكفي لجعله يعبر إلى الطرف الآخر من الشارع عندما رأني في الشارع العام للبلدة.

قلت متعاطفاً: إنه رد فعل غير طبيعي أبداً، وهو أمر لم تعتاديه.

كانت جوانا تعبس ثانية: حقيقة يا جيري، لماذا يكتب الناس رسائل مغفلة من التوقيع؟

- كما قلت، نتيجة مس من جنون. أظن أن هذا يشبع عند كاتبها حاجة مجهولة ملحة؛ فالمرء إذا أحس بالإحباط أو بازدراء

الآخرين له أو تجاهلهم إياه وكانت حياته رتيبة وفارغة فأظن أنه يحصل على إحساس بالقوة عندما يطعن في الظلم أناساً سعداء يستمتعون ب حياتهم.

ارتجلت جوانا وقالت: هذا ليس جميلاً.

- نعم، ليس جميلاً. أتصور أن كثيراً من الناس في هذه المناطق الريفية نتاج لزواج الأقارب، ولذلك ترين عدداً كبيراً من المعتوهين.

- أحسبه شخصاً غير مثقف أبداً، وعجزأ عن التعبير عن نفسه؛ فلو كان شخصاً متعلماً...

لم تكمل جوانا جملتها ولم أقل أنا شيئاً، فأنا لم أستطيع أبداً قبول الاعتقاد السهل القائل إن التعليم دواءً لجميع العلل.

وعندما كنا نسير في السيارة داخل البلدة قبل أن نصعد طريق التلة، نظرتُ بفضول إلى الأشخاص القليلين الذين كانوا يسرون في الشارع العام. أيمكن أن تكون واحدة من هؤلاء القرويات القويات تمشي وتتنقل وقد أخفت وراء مظهرها الهدائِ حملأ من الحقد والضغينة، وتخطط ربما لطرح المزيد من الأحقاد المدمرة؟

ولكني لم أكن -بعد- قد أخذت الأمر على محمل الجد.

* * *

بعد ذلك بيومين ذهبنا إلى تجمع للعب الورق في بيت

سيمنغتن. كان ذلك عصر يوم السبت، وكان من عادة عائلة سيمونغتن إقامة تجمعاتٍ كهذه أيام السبت لأن مكتبه كان يغلق في ذلك اليوم.

كانت توجد طاولتان، وكان اللاعبون هم سيمونغتن وزوجته وأنا وجوانا والأنسة غريفيث والسيد باي والأنسة بارتن وكولونيل يدعى أبلتون لم تلتقي به من قبل كان يعيش في قرية تدعى كومبيكر تبعد نحوً من سبعة أميال. كان نموذجاً مثالياً للولاء الأعمى للمؤسسات الحاكمة، في الستين من عمره تقريباً، وكان يحب لعب ما يسميه «باللعبة الجريئة»، وهي فرع من لعبة البريدج العادية، وقد اهتم بجوانا اهتماماً جعله لا يحول نظره عنها طيلة المساء.

وقد أجبرت على الاعتراف بأن أختي ربما كانت أكثر الفتيات اللاتي شوهدن في لايمستوك جاذبية منذ فترة طويلة.

عندما وصلنا كانت إيلسي هولاند، مربية الأطفال، تبحث عن فيشات اللعب في أدراج مكتب مزخرف، وقد تهادت في الغرفة وهي تحملها بنفس تلك الطريقة الملفقة للأطفال التي رأيتها فيها أول مرة، ولكن تعويذة سحرها لم تعد تعمل. لاحظت الآن بوضوح شديد أسنانها البيضاء الكبيرة جداً كشواهد القبور، والطريقة التي تظهر بها لثتها عندما تضحك. كانت -لسوء الحظ- مجرد فتاة ثرثارة أخرى!

- هذه هي الفيشات التي تريدينها يا سيدة سيمونغتن؟ كنت غبية جداً عندما لم أتذكر أين وضعناها آخر مرة... إنها غلطتي أنا. كنت أحملها في يدي ثم صاح برایان بأن قاطرته قد توقفت، فخرجت مسرعة، ويسرب العديد من الاهتمامات لا بد أنني وضعتها في مكان

ما دون انتباه. إنها ليست الفيشات المطلوبة فهي ذات حواف صفراء. هل أخبر أغنيس بأن تجهز الشاي الساعة الخامسة؟ سأخذ الأطفال إلى لونغ بارو حتى لا يقى هنا أي ضجيج.

فتاة لطيفة وذكية.رأيت جوانا تنظر إلي وهي تضحك. نظرت إليها بفتور... كانت جوانا تعرف دائمًا ما يجول بخاطري، تبأ لها!

جلسنا للعبة البريدج، وسرعان ما عرفت على نحو دقيق مهارة جميع من في لايستوك في لعب البريدج. كانت السيدة سيمونتن لاعبة بريدج ممتازة، وكانت مولعة باللعبة كثيراً، وهي -كغيرها من النساء الكثيرات اللاتي لا ثقافة رفيعة لديهن- ذات ذكاء فطري، فيما كان زوجها لاعباً جيداً ذا منطق سليم، مع ميل قليل إلى الحذر. أما السيد باي فقد كان أفضل ما يوصف به أنه لاعب ذكي. كانت عنده حاسة تمييز غير عادية للمزايدة التي تكون لأغراض نفسية في اللعبة. وبما أن التجمع كان على شرفنا أنا وجوانا، فقد لعبنا على طاولة السيدة سيمونتن والسيد باي. كانت مهمة سيمونتن هي تهدئة الأجواء إذا اشتد الخلاف بين اللاعبين واستخدام لباقته في مصالحة اللاعبين الآخرين على طاولته. وكما قلت كان الكولونيل أبلتون مغرماً بلعبته «الجريدة». وكانت الآنسة بارتن دون شك أسوأ لاعبة رأيتها ولكنها كانت تستمتع باللعبة كثيراً. كانت تعمل على اتباع الآخرين في اللعب ولكنها لم تكن تعرف قوة الأوراق التي بيدها، ولم تكن تعرف أسلوب تسجيل النقاط أبداً، وكانت تلقى -باستمرار- بالأوراق الخاطئة، ولم تكن قادرة على عد الأوراق الرابحة، وتensi كثيراً حقيقة هذه الأوراق. أما لعب إيمي غريفيث فيمكن تلخيصه بكلماتها هي: «أحب لعبة بريدج جيدة دون أي

صباح وضجيج... ولا أمارس أياً من تلك الطرق السخيفة في تمرير المعلومات للشريك، وما أقوله أعنيه. كما لا أحب تلك التحليلات بعد انقضاء اللعبة؛ فهي في نهاية الأمر مجرد لعبة!".

وهكذا نرى أن مهمة المضيف ليست سهلة كثيراً. ومع ذلك بدأ اللعب بانسجام تام مع نسيان الكولونيل أبلتون لدوره بين الفينة والأخرى وهو يحدق إلى جوانا. ثم وضع الشاي في غرفة الطعام على طاولة كبيرة.

وعندما أوشكنا على النهاية اندفع ولدان صغيران هائجان إلى الغرفة وقدما إلينا، وكانت السيدة سيمونتن تتسم متفاخرة وكذلك كان أبوهما. ثم -وفيما نحن نتأهب للانسحاب- حُجب الضوء عن الصحن أمامي فالثالث برأسه لأجد ميغان واقفة بالباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة. قالت أمها: آه، ها هي ميغان.

كان في صوتها أثر بسيط من الدهشة، وكأنها قد نسيت وجود ميغان. دخلت الفتاة وصافحتنا بطريقة خرقاء ودون أية لباقه نسوية.

قالت السيدة سيمونتن: أخشى أن أكون قد نسيت إحضار الشاي لك يا عزيزتي؛ فقد أخذت الآنسة هولاند والأولاد الشاي الخاص بهم معهم، ولم يعد هناك شاي خاص بالصغار اليوم. نسيت أنك لم تخرجي معهم.

أومأت ميغان برأسها وقالت: لا بأس... سأذهب إلى المطبخ.

خرجت من الغرفة متکاسلة. كانت ملابسها غير مرتبة كالعادة، وكان هناك ثقوب في كلا جوربيها عند الكعبين.

قالت السيدة سيمونغتن وهي تصحّك ضحكة اعتذارية: يا لمیغان المسكينة! إنها في تلك السن الحرجـة، سن المراهقة. إذ دائمـاً ما تكون الفتيات خـجلات مرتـبات عندما يترـكـنـ المدرـسة وقـبلـ أن ينـضـجـنـ نـضـوجـاً صـحـيـحاً.

رأـيـتـ جـوانـاـ وـهـيـ تـرـفـعـ رـأـسـهـاـ الأـشـقـرـ إـلـىـ الـوـرـاءـ بـإـشـارـةـ كـنـتـ أـعـرـفـ أـنـهـاـ هـجـومـيـةـ.ـ قـالـتـ:ـ ولـكـنـ مـيـغانـ فـيـ العـشـرـينـ مـنـ عـمـرـهـ،ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟

- آهـ،ـ بـلـىـ،ـ بـلـىـ.ـ إـنـهـاـ فـيـ العـشـرـينـ،ـ وـلـكـنـهـاـ أـصـغـرـ كـثـيرـاـ مـنـ عـمـرـهـاـ الـحـقـيقـيـ،ـ فـهـيـ مـاـ تـرـازـ طـفـلـةـ.ـ أـظـنـ أـنـ مـنـ الـجـمـيلـ جـداـ أـنـ لـاـ تـكـبـرـ فـتـيـاتـ بـسـرـعـةـ؟

ضـحـكـتـ مـرـةـ أـخـرـىـ وـقـالـتـ:ـ أـحـسـبـ أـنـ جـمـيعـ الـأـمـهـاتـ يـرـدـنـ بـقـاءـ أـطـفـالـهـنـ فـيـ سـنـ الرـضـاعـةـ.

قالـتـ جـوانـاـ:ـ لـاـ أـرـىـ سـيـباـ لـذـلـكـ؛ـ إـذـ سـيـكـونـ مـحـرـجاـ بـعـضـ الشـيـءـ أـنـ يـكـوـنـ لـلـمـرـءـ طـفـلـ بـقـيـ عمرـهـ سـتـ سـنـوـاتـ مـنـ النـاحـيـةـ الـعـقـلـيـةـ بـيـنـمـاـ يـنـمـوـ جـسـدـهـ وـيـكـبـرـ.

- آهـ،ـ يـجـبـ أـنـ لـاـ تـفـهـمـيـ الـأـمـرـ حـرـفـياـ يـاـ آنـسـةـ بـيـرـتـنـ.

ظـهـرـ لـيـ فـيـ تـلـكـ الـلـحـظـةـ أـنـيـ لـاـ أـحـبـ السـيـدـةـ سـيـمـونـغـتـنـ كـثـيرـاـ.ـ أـحـسـتـ أـنـ ذـلـكـ الـجـمـالـ الشـاحـبـ الـمـتـلـاشـيـ الـلـامـبـالـيـ يـخـفيـ وـرـاءـهـ

طبيعة أنانية جشعة. قالت لترى دلائل كراهيتها لها قليلاً: مسكنة ميغان... إنها طفلة صعبة بعض الشيء. كنت أبحث لها عن شيء تعمله... أظن أن المرأة يمكن أن تتعلم أشياء بالمراسلة، كالتصميم وتفصيل الملابس... أو ربما حاولت تعلم الطباعة والاختزال.

كان الوسيض الأحمر باقياً في عين جوانا. قالت بعد أن جلسنا حول طاولة البريدج مرة أخرى: أظن أنها بلغت سنَّة تؤهلها للمشاركة في النشاطات الاجتماعية. لا تفكرين بإقامة حفلة على شرفها بهذه المناسبة؟

بدت السيدة سيمونغتون متفاجئة مسرورة وقالت: حفلة؟ آه، إننا لا نفعل أشياء كهذه هنا.

- فهمت... لا تقيمون إلا مباريات تنس وأشياء كهذه.

- لم يلعب أحد في ملعب التنس هنا منذ سنوات، فلا ريتشارد ولا أنا نلعب. أظن أنه عندما يكبر أولادي مستقبلاً... آه، ستجد ميغان الكثير مما يمكن أن تفعله. إنها سعيدة تماماً بالتسكع في المنطقة. هل وزعت الورق؟

عندما كنا عائدين بالسيارة إلى البيت قالت جوانا وهي تضغط على دواسة البنزين بقوة مما ضاعف سرعة السيارة: إنني أشعر بالأسف الشديد على تلك الفتاة.

- ميغان؟

- نعم، فأمها لا تحبها.

- آه، لا تبالغ يا جوانا... الأمر ليس بهذا السوء.

- بل هو كذلك. كثيرون من الأمهات لا يحبون أطفالهن، ويخيل لي أن وجود مبغض في البيت مسألة فظيعة مريرة بسبب طبيعتها المُحرجة. إنها تُربك النمط السائد... نمط عائلة سيمتنعن. العائلة من دونها وحدة متکاملة... وهو من أشد المشاعر بؤساً بالنسبة لأية مخلوقة حساسة... وهي حساسة بالفعل.

- نعم، أظنها حساسة.

صمت لبعض الوقت. وفجأة ضحكت جوانا ضحكة مناكفة وقالت: ولكن حظك سيء بالنسبة لمريبة الأطفال.

قلت بإباء: لا أعرف ماذا تعنين.

- هراء. كان الحنق الذكور يبدو على وجهك كلما نظرت إليها. إنني متفقة معك... حرام أن يضيع جمالها بهذا الشكل!

- لا أعرف عم تتحدثين.

- لكني مع ذلك مسرورة. إنها أول إشارة على استعادة الحياة من جديد. كنت قلقة عليك في المصححة؛ فأنت لم تكن تنظر إلى الممرضة الجميلة جداً التي كانت تقوم على رعايتك، رغم أنها كانت فتاة جذابة تماماً.

- إنني أجده حديثك سوقياً تماماً يا جوانا!

أكملت شقيقتي حديثها دون أدنى التفات لملحوظاتي: ولذلك

ارتاحت كثيرةً عندما رأيت أنك ما تزال تنجدب إلى فتاة جميلة. إنها جميلة المظاهر، ومن الغريب أن لا تكون لديها جاذبية أبداً. هذا غريب يا جيري! ما هو ذلك الشيء الذي تملكه بعض النساء ولا تملكه غيرهن؟ ما الذي يوجد عند امرأة معينة حتى إذا ما قالت عباره عاديه مثل: «الجو لطيف» رأيت الرجال يهرعون إليها للحديث معها حول الطقس؟ هكذا الخلق أحياناً. ترى واحدة لها جسم ووجه أفروديت، ولكنها باردة ليس فيها أية جاذبية، وترى الجاذبية والسحر يذهبان أحياناً إلى وجه ليس فيه من الحسن الكثير. وعندما يُجذن كل النساء الآخريات ويقلن: لا نعرف ما الذي يراه الرجال فيها... إنها غير جميلة على الإطلاق!

- هل انتهيت تماماً يا جوانا؟

- أنت توافقني الرأي، أليس كذلك؟

ابتسمتْ وقلتْ: أعترف بشيء من خيبة الأمل.

- ولا أرى هنا واحدة غيرها لك... سوف تضطر للجوء إلى إيمي غريفيث!

- لا سمع الله.

- يبدو أنها تستمتع ب حياتها تماماً. إنها حيوية ودودة قوية إلى حد يكاد يُعرف، أليس كذلك؟ لن أشعر بأي دهشة لو علمتُ أنها تأخذ حماماً بارداً كل صباح.

سألتها: وماذا ستفعلين أنت بنفسك؟

قالت جوانا بأسلوب غير مقنع: لن أستطيع أن أنسى بول!

- لن أنساه أنا بأسرع مما تنسينه أنت... سوف تقولين بعد عشرة أيام: بول؟ من بول هذا؟ لم أعرف شخصاً يدعى بول أبداً.

- أنت تحسبيني متقلبة جداً.

- يسعدني كثيراً أن تكوني كذلك عندما يتعلق الأمر بأشخاص مثل بول.

- إنك لم تحبه أبداً... ولكنه كان فعلاً عقريأً بعض الشيء.

- ربما، مع أنني أشك في ذلك. وعلى كل حال، فمن كل ما سمعته، يُقال إن العباقة أناس ينبغي أن يكرههم المرء كراهية عميقه. يبقى أن أقول إنك لن تجدي أي عقري هنا.

فكرة جوانا بعض الوقت ورأسها يميل إلى أحد الجانبين، ثم قالت بأسى: نعم، هذا ما أخشاه.

- على أية حال، فإن أوين غريفيث هو الرجل الأعزب الوحيد في القرية الذي يمكن أن تفكري به، باستثناء الكولونيل أبلتون العجوز الذي كان ينظر إليك كالكلب العجاف طيلة المساء.

ضحكـت جوانـا وـقالـت: كان يـديـم النـظرـ، أـلـيـس كـذـلـكـ؟ كانـ ذلكـ مـحرـجاـ تـاماـ.

- لا تـتظـاهـري بـذـلـكـ؛ فـأـنـتـ لـا تـحـرجـينـ أـبـداـ.

مضت جوانا بالسيارة عبر البوابة بصمت. ثم قالت: قد يكون في فكرتك تلك بعض الصحة.

- أية فكرة؟

- لا أفهم سبباً يجعل أي رجل يقطع الشارع عمدًا كي يتجمبني. هذا تصرف وقع بعيداً عن أي اعتبار آخر.

- فهمت... ستتجدين صيد الرجل بدم بارد.

- لا أحب أن يتجمبني أحد.

خرجت من السيارة ببطء وحدر ووازن عكازى، ثم قدمت لشقيقتي نصيحة: دعيني أخبرك بهذا يا فتاتي... ليس أوين غريفيث واحداً من أصحابك الفنانين المتحبسين الخانعين، وما لم تحذرني فسوف تثيرين عشاً للزنابير قرب أذنيك. يمكن لذلك الرجل أن يكون خطراً.

سألت جوانا وفي صوتها كلّ أثر للاستماع بهذا الاحتمال:
آه، أتعتقد ذلك؟

قلت ياصرار: اتركي الرجل المسكين وحده.

- كيف يجرؤ على قطع الشارع وهو يرانى قادمة؟

- أنتنّ -معشر النساء- متشابهات؛ إنكן تضررين على وتر واحد. ستتجدين أخته إيمى تلاحقك إن لم أكن مخطئاً.

- إنها -أصلاً- تكرهنى.

تكلمت بشيء من التأمل، ولكن بقناعة تامة. قلت جازماً: لقد
جئنا إلى هذا المكان للهدوء والراحة، وأعتزم الحصول عليهما.

لكن الهدوء والراحة كانا آخر ما قُدِرَ لنا أن نحصل عليه!

* * *

الفصل الرابع

بعد أسبوع واحد -فيما أذكر- أبلغتني بارترidding بأن السيدة بيكر تود التحدث معي لبعض الوقت.

لم يُفْنِ لي اسم السيدة بيكر أي شيء على الإطلاق، ولذلك قلت متحيرًا: من هي السيدة بيكر؟ ألا يمكنها رؤية الآنسة جوانا؟

ولكن بدا أنني أنا الشخص الذي كانت ترغب الحديث معه، كما تبين أن السيدة بيكر هي والدة الفتاة بياتريس. وكنت قد نسيت بياتريس، وأآخر عهد لي بها قبل أسبوعين، فلم أحظ غيابها إلا حين انتهت لامرأة في وسط العمر لحق الشيب ببعض خصلات شعرها وهي تجثو على ركبتيها تمسح أرضية الحمام والدرج والممرات، وأظنتي عرفت وقتها أنها خادمتنا الجديدة التي تعمل في النهار. وفيما عدا ذلك كان أمر بياتريس قد تلاشى تماماً من ذهني.

لم أستطع التهرب من رؤية والدة بياتريس، خاصة وقد عرفت أن جوانا كانت خارج البيت، ولكن يجب أن أعترف بأنني كنت عصبي المزاج قليلاً من هذه المقابلة. كنت أرجو مخلصاً أن لا تفهمي بالعبث بعواطف بياتريس، ولعنت -في سري- تلك الأعمال الخبيثة

لُكتاب الرسائل المجهولة، في نفس الوقت الذي طلبت فيه من بارترidding إحضار والدة بياتريس لرؤيتها.

كانت السيدة بيكر امرأة ضخمة، عريضة المنكبين، مسفوقة الوجه، سريعة في كلامها. وقد شعرت بالارتياح عندما لم الحظ أياً من علامات الغضب أو الاتهام عليها.

قالت وقد بدأت حديثها فوراً بعدما أغلقت بارترidding الباب وراءها: أرجو يا سيدي أن تعذرني إذ سمحت لنفسي أن آتي بهذه الطريقة لرؤيتك، ولكنني رأيت أنك ربما تكون الشخص المناسب الذي ينبغي أن آتي إليه، وأناكون شاكرة لك لو رأيت طريقة لإرشادي لما ينبغي علي عمله في مثل هذه الظروف، لأنني أرى أن من الواجب عمل شيء. إنني لم أكن أبداً من النوع الذي يصبر وينام على القذى، فأنا لا أرىفائدة في التواح، بل المطلوب هو «النهوض والمبادرة لل فعل» كما سمعت في إحدى الخطب.

شعرت ببعض العيرة وكأنني أضعت شيئاً أساسياً في الحديث، ولذلك قلت: بالتأكيد. ألا... ألا تجلسين يا سيدة بيكر؟ أناكون مسؤولاً بالتأكيد إن استطعت... مساعدتك بأية طريقة ممكنة.

سكت على أمل أن تتحدث، فجلست على حافة الكرسي وقالت: أشكرك يا سيدي، هذا جميل منك... وأنا مسرورة لأنني جئت إليك. وقد قلت لبياتريس وهي تبكي وتنتحب في سريرها إن السيد بيرتن سيعرف ما ينبغي فعله وهو القادم من لندن. ويجب أن نعمل شيئاً، فهو لاء الشباب متهررون سريعاً الغضب لا يستمعون إلى لغة العقل ولا إلى كلمة واحدة مما تقوله الفتاة، وعلى أية حال

فقد قلت لبياتريس أني لو كنت مكانها لرددت له الصاع صاعين،
إذ ماذا عن تلك الفتاة الموجودة في الطاحونة هناك؟

أحسست بالحيرة أكثر فأكثر، وقلت: إني آسف، فأنا لا أفهمك
 تماماً. ما الذي حدث؟

- إنها الرسائل يا سيدتي. رسائل شريرة... وبذيئة جداً أيضاً،
تستخدم كلمات أسوأ من أي شيء قرأته في حياتي.

تغاضيتك عن تلك الجملة الاعتراضية المثيرة وقلت يائساً: هل
تلقت ابنته مزيداً من الرسائل؟

- ليس هي يا سيدتي. لقد تلقت رسالة واحدة فقط، وهي التي
جعلتها ترك العمل عندكم.

بدأت القول: "لم يكن هناك على الإطلاق أي سبب..."، ولكن
السيدة بيكر قاطعتني بقوة: لا حاجة لأن تخبرني يا سيدتي أن ما ورد
في الرسالة كان محض افتراء شرير. تكفيني شهادة الآنسة بارترidding
بهذا الشأن... وقد كان من شأنني أن أعرف ذلك بنفسي أصلاً؛ فأنت
لست من ذلك النوع من الرجال، هذا ما أعرفه جيداً، كما أنك
مُقعد. كانت افتراءات كاذبة، ولكن مع ذلك فقد قلت لبياتريس إن
من الأفضل لها أن ترك العمل لأنك تعرف الإشاعات يا سيدتي،
فالناس يقولون: «لا دخان بلا نار». كما أن الفتاة شعرت بالخجل
مما كان مكتوباً في الرسالة، ولذلك قلت لبياتريس عندما قالت إنها
لن تأتي إلى هنا ثانية: «عين الصواب». رغم أنها شعرنا بالأسف على
ما سببه ذلك من إرباك جعلكم...

سحبت السيدة بيكر نفسها عميقاً وقد عجزت عن إكمال هذه الجملة، ثم أكملت: و كنت أرجو أن يضع ذلك حدأً للإشاعات المغرضة. ولكن جورج، الذي يعمل في المرأب والذي تخرج بيتريس معه، تلقى واحدة من هذه الرسائل. وهي تتقول أشياء قبيحة عن ابنتنا بيتريس، وكيف أنها على علاقة مع توم ابن فريد ليديتر... وأؤكد لك يا سيدى أن تصرف الفتاة لم يخرج عن دائرة التهذيب أبداً.

أخذ رأسى الآن يدور مع ظهور التعقيد الجديد لتوم ليديتر هذا، فقلت: دعني أفهم الأمر بشكل صحيح، فقد تلقى صديق بيتريس رسالة مُغفلة التوقيع تهمها بعلاقة مع شاب آخر، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدى. ولم تكن الرسالة محشمة؛ فقد استخدمت كلمات بذئبة مما جعل جورج يستشيط غضباً كالجنون، وجاء ليخبر بيتريس بأنه لن يتحمل هذا العمل منها وأنه لن يسمع لها بأن تخرج مع رجال غيره من وراء ظهره... وقد أخبرته بأن ذلك كذب كله، فقال لها: «لا دخان بلا نار»، وخرج من البيت كالمسعور، وظهر الحزن على بيتريس المسكينة. ثم قلت لها إنني سألبس قبعتي وأتى إليك مباشرة يا سيدى.

سكتت السيدة بيكر ونظرت إلى متوقعة مني الرد كالكلب يتظاهر جائزة بعد أداء حركة ذكية. سألتها: ولكن لماذا جئت إلى بالتحديد؟

- لقد فهمت يا سيدى أنك تلقيت واحدة من هذه الرسائل

الشريرة، وقد فكرت أنك تعرف -وأنت القادم من لندن- ما الذي ينبغي عمله حال هذا الأمر.

- لو كنت مكانك لذهبت إلى الشرطة؛ إذ يجب وضع حدًّا مثل هذا الأمر.

بدت السيدة بيكر مصدومة تماماً وقالت: آه، كلا يا سيدتي، لا يمكنني الذهاب إلى الشرطة.

- ولم لا؟

- لم يسبق لي التورط مع الشرطة أبداً يا سيدتي... ولم يتورط أحدٌ منا مع الشرطة أبداً.

- صحيح، ولكن الشرطة هم وحدهم الذين يمكنهم التعامل مع مثل هذا الأمر، فهذا عملهم.

- أذهب إلى بيرت راندل؟

كنت أعرف أن بيرت راندل هو الشرطي. قلت: لا بد أن هناك رقيباً أو مفتشاً في مركز الشرطة.

- أنا أذهب إلى مركز الشرطة؟

كانت نبرة التأنيب والدهشة ظاهرة في صوت السيدة بيكر، وبدأت أشعر بالضيق فقلت: هذا كل ما يمكنني تقديمها من نصيحة.

سكتت السيدة بيكر وبدا واضحاً أنها لم تكن مقتنعة. قالت

بحزن وجدية: يجب وقف هذه الرسائل يا سيدى، يجب وقفها فعلاً.
سيحدث منها أذى عاجلاً أم آجلاً؟

- يبدو لي أن الأذى قد وقع بالفعل.

- لقد قصدت العنف يا سيدى. هؤلاء الشباب الصغار ينفعلون
بعنف... وكذلك الكبار.

- وهل تصل كثير من هذه الرسائل إلى الناس؟

أومأت السيدة بيكر برأسها: الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم
يا سيدى. السيد بيدل وزوجته في فندق بلو بور كانا سعيدين دائمًا...
ووالآن جعلته هذه الرسائل يفكرون بأشياء... أشياء غير صحيحة.

ملت إلى الأمام وقلت: سيدة بيكر، هل لديك أية فكرة، أية
فكرة مهما كانت، عنمن يكتب هذه الرسائل المقيمة؟

ولشدة دهشتى أومأت برأسها بالإيجاب وقالت: لدينا فكرة
معينة عن ذلك يا سيدى. نعم، لدينا جمیعاً فكرة واضحة عن
ذلك.

- من هو؟

خُيل إلي أنها قد تردد في ذكر اسم معين، ولكنها ردت على
الفور: إنها السيدة كليت... هذا ما نعتقد جمیعاً يا سيدى. إنها السيدة
كليت بالتأكيد.

لقد سمعت كثيراً من الأسماء هذا الصباح مما جعلني شديد
الحيرة. سألتها: من هي السيدة كليت؟

واكتشفت أن السيدة كليت هي زوجة بستانى كهل وكانت تعيش في بيت على الطريق المؤدى إلى الطاحونة. ثم تلقيت أجوبة غير مرضية عن أسئلتي الأخرى، عندما سألت السيدة بيكر عن السبب الذي يدعو السيدة كليت لكتابة هذه الرسائل قالت بغموض إن «من شأن هذا أن ينسجم مع شخصيتها».

وفي نهاية الأمر تركتها تذهب، مكرراً مرة أخرى نصيحتي لها بأن تذهب إلى الشرطة، وهي نصيحة عرفت أن السيدة بيكر لن تأخذ بها. وقد تركتني وأناأشعر بأنني قد خيّبت أملها.

قلبت تفكيري فيما قالته لي. ورغم غموض ما ساقته من دليل، إلا أنني قررت أن الأمر قد يكون صحيحاً إن كان جميع أهل القرية يرون أن السيدة كليت هي المتهمة. قررت الذهاب واستشارة غريفيث بخصوص الأمر كله. إذ أن من شأنه - كما يفترض - أن يعرف السيدة كليت هذه، وإذا رأى أن من الصواب الذهاب إلى الشرطة فيمكن أن أعمد أنا أو هو إلى الإيحاء للشرطة بأنها هي التي تقف وراء هذا العمل المزعج.

وقت ساعة وصولي في تلك اللحظة التي تصورت أن غريفيث سيكون قد أنهى فيها عمله في عيادته، وعندما غادر العيادة آخر مريض دخلت إليه. قال: مرحباً، هذا أنت يا بيرتن؟

شرحـت له باختصار حديثي مع السيدة بيـكر وأخبرـته بالاتهـام القائل إن السيدة كلـيت هي المسـؤولة، ولخيـة أـملي فقد هـز غـريفـيث رأسـه بالـنفي وـقال: ليس الأـمر بهذه البـساطـة.

- ألا تظن أن السيدة كليت هذه هي التي تقف وراء هذا الأمر؟

- ربما، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الاحتمال فيما أظن.

- إذن لماذا يظنون جميعاً بأنها هي؟

ابتسم وقال: آه، أنت لا تعرف.. السيدة كليت هي الساحرة المحلية هنا.

صحت: يا إلهي!

- نعم، يبدو الأمر غريباً هذه الأيام، ومع ذلك فهذا هو الوضع. إن شعوراً يبقى في أذهان الناس بأنه من غير الحكمة تحدي بعض الناس أو العائلات أو الإساءة إليهم. والسيدة كليت قد تحدّرت من عائلة من «النساء الحكيمات»، وأحسب أنها قد بذلت جهداً كبيراً لتطوير هذه الخرافات وتشجيع هذا الاعتقاد. إنها امرأة غريبة الأطوار تتمتع بروح نكتة مريحة لاذعة، وقد كان من السهل كثيراً عليها -إذا ما جرح طفل أصبعه أو وقع وقعة عنيفة أو أصيب بالتكلف- أن تومئ برأسها وتقول: «نعم، لقد سرق تفاحتني الأسبوع الماضي»، أو «شد قطتي من ذيلها». وسرعان ما تأخذ النساء أطفالهن بعيداً، وتحضر أخرىاً العسل أو الكعك للسيدة كليت حتى يتجمّن شرها وحتى لا «تدعوا عليهم». إنه اعتقاد خرافي سخيف، ولكنه يحدث... ولذلك فمن الطبيعي أن يعتقدن الآن أنها تقف وراء هذا الأمر.

- ولكن هل هي فعلًا وراءه؟

- آه، كلا. ليست من هذا النوع... ليس الأمر بهذه البساطة.

نظرت إليه نظرة فضولية وقلت: هل لديك أية فكرة معينة؟

هز رأسه بالتفي، ولكن عينيه كانتا شاردتين وهو يقول: لا
لا أعرف شيئاً. ولكني غير مرتاح لهذا الأمر... سيتتج عن ذلك
أذى.

* * *

عندما عدت إلى البيت وجدت ميغان جالسة على الدرج
المؤدي إلى الشرفة وقد أستندت ذقنها على ركبتيها. حيتني بطريقتها
التي تفتقر للحفاوة وقالت: مرحباً. هل تظن أن بإمكانني القدوم
لتناول الغداء؟

قلت: بالتأكيد.

صاحت ميغان وهي تنطلق لإخبار بارترidding بوجود ثلاثة
أشخاص على الغداء: إن كان الطعام شرائح لحم أو شيئاً عسيراً
كهذا، أو كان الطعام لا يكفي فأخبرني.

يعخيل إلي أن بارترidding قد استطاعت -دون أن تنبس بكلمة
واحدة- أن تُظهر استخفافها بميغان حين أخبرتها بالأمر. وحين عدت
إلى الشرفة سألتني ميغان بلهفة: هل الأمر على ما يرام؟

- نعم، تفضلني بالجلوس.

قدمت الكرسي لميغان فقالت: هذا لطف منك.

- ألن تجلسني؟

- لا أظن ذلك، ولكن جميل منك أن تدعوني... تماماً كما لو كنتُ شخصاً حقيقياً.

قلت ضاحكاً: ألسْتِ شخصاً حقيقياً؟

هزت ميغان رأسها بالنفي، ثم مدت لي ساقها الطويلة المغبرة وقالت مفتخرة بهدف تغيير الموضوع: لقد رتقت جواربي.

لست خيراً في رتق الجوارب، ولكن ظهر لي أن الخيوط الصوفية المتعاكسة دون إتقان لم تكن تدل على نجاح أكيد.

قالت ميغان: ولكن حاله هكذا مزعج أكثر من وجود الثقوب.

وافقتها قائلاً: يبدو وكأن ذلك ممكناً.

- هل ترتق أختك بشكل جيد؟

حاولت أن أتذكر إن كنت قد لاحظت أيّاً من إنجازات جوانا في هذا المجال، ولكنني اضطررت أخيراً للاعتراف قائلاً: لا أعرف.

- ماذا تفعل عندما تجد ثقباً في جوربها؟

قلت بتردد: أظن أنها ترميه وتشتري زوجاً آخر.

- هذا عين العقل، ولكنني لا أستطيع فعل ذلك. إنني أتلقي راتباً الآن.. أربعين جنيهاً في السنة. لا يمكنك شراء الكثير بهذا المبلغ.

وافقتها على ذلك، فقالت بأسى: لو كنت أليس جوارب سوداء

لأمكن أن أضع حبراً على ساقي مكان الثقوب... هذا ما كنت أفعله دائمًا في المدرسة. كانت الآنسة باتويوري هي المعلمة التي تشرف على تعليمنا رتق الثياب، ولكنها كانت أكثر عمي من الخفاش. كان ذلك الموضوع مفيداً جداً لنا.

- لا بد أنه كان كذلك.

ثم ساد الصمت بيننا وأنا أدخلن غليوني... وكان صمتاً أنيساً، وفجأة قطعت ميغان الصمت قائلة بعنف: أظنك تراني فظيعة كما يفعل الجميع؟

جفلت إلى حدٍ جعل غليوني يسقط من فمي. كان غليوناً جميلاً الألوان مصنوعاً من مادة الميرشوم التي تشبه الزجاج، وقد انكسر. قلت لميغان غاضباً: انظري إلى ما فعلتِ.

وكطفل يصعب التنبؤ بردود أفعاله، لم تترعرع؛ بل ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: أنت -فعلاً- تعجبني.

كانت ملاحظة دافئة جداً. إنها الملاحظة التي يُخْتَل للمرء أن كلبه يمكن أن يقولها لو أمكنه الكلام... وبدا لي أن ميغان ذات مزاج يشبه أمزجة الكلاب بدلاً من أن يشبه أمزجة البشر! سألتها وأنا أجمع بحذر شظايا غليوني المكسور: ما الذي قلته قبل هذه المأساة؟

- قلت إنني أظنك تراني بغية.

قالت تلك الجملة، ولكنها لم تقلها بنفس النبرة التي قالتها بها من قبل على الإطلاق.

- ولماذا أراك كذلك؟

قالت ميغان بتوجههم: لأنني كذلك.

قلت محتداً: لا تكوني غبية.

هزت ميغان رأسها قائلة: هذه هي النقطة تماماً... فأنا لست غبية فعلاً، ولكن الناس يظلوني كذلك. إنهم لا يعرفون أنني -في داخلي- أعرف حقيقتهم، وأنني أكرههم طيلة الوقت.

- تكرهينهم؟

- نعم.

حدّقت إليّ بعينين كثبيتين غير طفوليتيين لم تطروا. كانت نظرة طويلة حزينة، ثم قالت: لو كنتَ مثلّي لكرهت الناس... إن كانوا لا يريدونك.

- ألا تعتقدين أنك سوداوية النظر؟

- بلى. هذا ما يقوله لك الناس دائمًا عندما تقول الحقيقة... وهي حقيقة. إذ أن أحداً لا يريدني، وأنا أعرف السبب تماماً. أمي لا تحبني البتة. أحسب أنني أذكّرها بوالدي الذي كان يقسّو عليها وكان مرعياً جداً حسبيما كنت أسمع. ولكن الأمهات لا يمكنهن التصرّح بأنهن لا يردن أولادهن، ولا يستطيعن طرد هم من البيت أو أكلهم! القلط تأكل ما لا تحبه من أولادها الصغار، وأحسب أن تلك طريقة عقلانية جداً... فلا حاجة لتبييد العواطف وإثارة المشكلات! أما الأمهات من البشر فهنّ مضطّرات للمحافظة على

أطفالهن والاعتناء بهم. لم يكن الأمر على هذه الدرجة من السوء عندما كان بالإمكان إرسالي بعيداً إلى المدرسة... ولكن ما ترغب به أمي حقاً هو أن تكون بمفردها مع زوجها والولدين.

قلت ببطء: ما زلت أرى أنك سوداوية النظرة يا ميغان، ولكن -على فرض صحة بعض ما تقولينه- فلماذا لا تتركين هذه العائلة وتعيشين حياة مستقلة؟

ابتسمت لي ابتسامة غير طفولية وقالت: تقصد أن أجد عملاً، وأكسب رزقي؟

- نعم.

- بماذا أعمل؟

- يمكن أن تتدربى على عمل معين. طباعة واحتزال... مسک الدفاتر.

- لا أعتقد أن باستطاعتي ذلك. إنني غبية في عمل الأشياء، وفوق ذلك...

- ماذ؟

كانت قد أشاحت بوجهها بعيداً ولكنها أعادته الآن ببطء وقد غدا قرمزاً وذرفت من عينيها الدموع، ثم تكلمت بصوت مفعم بنبرات الطفولة: لماذا أرحل؟ أو يحملونني على الرحيل؟ إنهم لا يريدونني، لكنني سأبقى. سأبقى وأجعل الجميع نادمين... سأجعلهم يأسفون جميعاً. خنازير كريهة! إنني أكره الجميع هنا في

لامستوك. إنهم جمِيعاً يروني غبية وقبيحة. سأريهم... سأريهم...
سأ...

كان غضباً طفولياً مثيراً للشفقة إلى حد غريب. وسمعت وقع
أقدام على الحصى عند زاوية البيت، فقلت بقصوة: انهضي، ادخلني
البيت من خلال غرفة الاستقبال. أصعدني إلى الطابق الأول حيث
الحمام في نهاية الممر، واغسلني وجهك بسرعة.

قفزت واقفة بطريقة خرقاء ودخلت من الباب الزجاجي لغرفة
الاستقبال فيما جاءت جوانا من وراء زاوية البيت قائلة: آه، إنتي أشعر
بالحرارة. أتعلم يا جيري، كان علينا إحضار كلب معنا؟

- هذا ما أراه أيضاً. على فكرة، ستتناول ميغان الغداء معنا.

- أحلاً؟ جيد.

- أتعينها؟

- أحسب أنها من أولئك الأطفال الذين تستبدلهم الجنيات.
أنت تعرف تلك الخرافات التي تقول إن الجنيات كن يضعن طفلاً على
عتبة الباب ويأخذن الطفل الحقيقي بعيداً. من المثير جداً الالتقاء
بطفل مُستبدل. أوف... يجب أن أصعد وأغسل.

- لا تستطعين ذلك الآن، فميغان تغسل.

- آه، هل خاضت في الوحل مرة أخرى؟

أخرجت جوانا المرأة ونظرت إلى وجهها بجدية لفترة طويلة
وقالت: لا أحب أحمر الشفاه هذا.

خرجت ميغان من الباب الزجاجي هادئة ونظيفة نوعاً ما، ولم تُظهر أي أثر للعاصفة التي سبقت ذلك بقليل. نظرت إلى جوانا بارتياخ، قالت جوانا وهي ما تزال مشغولة بالنظر إلى وجهها: مرحباً، إنني مسرورة لمجيك للغداء. يا إلهي، توجد حبة نمش على أنفي. لا بد أن أفعل شيئاً؛ فالنمش خطير جداً، وهو صفة اسكتلندية.

جاءت بارترينج وقالت ببرود إن الغداء جاهز، فنهضت جوانا قائلة: هيا، إنني أتصور جوعاً.

أدخلت ذراعها تحت ذراع ميغان ودخلتا البيت معاً.

* * *

الفصل الخامس

أرى أن في قصتي نقصاً واحداً، فحتى الآن لم أذكر السيدة كالثروب أو زوجها الكاهن كاليب كالثروب.

كان الكاهن وزوجته شخصيتين متميزتين. كان كاليب كالثروب نفسه بعيداً عن الحياة اليومية أكثر من أي شخص التقى به؛ حيث استغرقه العيش بين كتبه منقباً في التاريخ القديم حتى صار على دراية واسعة في هذا الموضوع. أما زوجته فكانت موجودة دائماً في كل مكان، وربما كنت قد تعمدت تأجيل ذكرها لأنني كنت منذ البداية خائفاً منها قليلاً. كانت امرأة ذات شخصية متميزة ومعرفة واسعة. لم تكن إطلاقاً من النوع التقليدي لزوجات الكهان... ولكنني أسأل نفسي وأنا أسجل ذلك: ما أدراني أنا بزوجات الكهنة؟ فزوجة الكاهن الوحيدة التي أذكرها جيداً كانت امرأة هادئة ليس لها ما يميزها، مخلصة لزوج قوي ضخم ذي أسلوب ساحر في موعظه. لم تكن تشارك في الأحاديث العامة إلا نادراً بحيث يحار المرء في كيفية المضي في حديث معها. وفيما عدا ذلك كنت أعتمد على الصورة التي كانت القصص ترسمها لزوجات الكهنة، وهي صورة هزلية

لنساء يحشرن أنوفهن في كل مكان ويتفوهن بالتفاهات. وربما لا يكون في الدنيا وجود لمثل هذا النمط.

لم تحشر السيدة كالثروب أنفها في أي مكان أبداً، ومع ذلك كانت لها قوة غامضة غريبة في معرفة الأمور، وسرعان ما اكتشفت أن جميع أهل القرية تقريباً يخشونها. لم تكن تقدم أية نصيحة ولا تتدخل في شيء أبداً، ومع ذلك كانت تمثل -لأي ضمير خائف- صورة القاضي الحازم والسيف المسلّط.

لم أر امرأة أكثر منها لامبالاة بالعالم المادي حولها. كانت في الأيام الحارة تتمشى في القرية وهي تلبس تنورة من الصوف الخشن، وفي وقت المطر أو حتى الجليد كنت أراها تمشي في طرقات القرية شاردة الذهن وهي تلبس فستاناناً من القطن أو القماش العادي. كانت ذات وجه طويل رفيع يوحى بكرم المحتد، وفي كلامها إخلاص وصدق رهيب.

أوقفتني في الشارع العام بعد يوم من تناول ميغان الغداء معنا. وقد تملكتني إحساسني المعتاد بالدهشة؛ لأن سيرها كان أشبه بالهرولة منه بالمشي، وكانت عيناهما مركزيتين دائماً على الأفق البعيد مما يجعل المرء يشعر بأن هدفها الحقيقي يقع على بعد ميل ونصف تقريباً. قالت: آه، سيد بيرتن!

قالتها بشيء من نشوة النصر كمن حلّ لغزاً محيراً.

اعترفت لها بأنني السيد بيرتن فتوقفت عن تركيز نظرها على

الأفق البعيد وبدت كأنها تحاول تركيز نظرها علي بدلاً منه. قالت:
ما الذي كنت أريد رؤيتك من أجله؟

لم يكن بوسعي مساعدتها في هذا الأمر. وقفت عابسة ومحيرة
كثيراً، ثم قالت: كان شيئاً بغيضاً.

قلت وقد جفلت: إنني آسف لهذا.

صاحت: آه، تذكري؟ الرسائل مجهولة المصدر! ما هذه
القصة التي أحضرتها معك عن الرسائل المُغفلة من التوقيع؟

- أنا لم أحضرها معي، فقد كانت موجودة هنا من قبل؟

قالت بنبرة اتهام: ومع ذلك لم يتلق أحد أية رسالة منها إلى
أن جئت إلى هنا.

- لكنهم تلقوا رسائل منها يا سيدة كالثروب. كانت المشكلة
قد بدأت من قبل.

- يا إلهي، لا أحب هذا.

وقفت تنظر بعينين شاردتين ثم قالت: لا أستطيع تمالك
الإحساس بأن هذا كله غير طبيعي. نحن لسنا على هذه الشاكلة هنا.
يوجد -بالطبع- حسد ومكر ومناكفة وغير ذلك من الخطايا الصغيرة
هذه... ولكنني ما كنت أظن أن أحداً يمكن أن يفعل هذا... كلا، لم
أحسب ذلك حقاً. وهو أمر يحزنني، فأنا يجب أن أعرف.

عادت عيناها الدقيقتان من الأفق البعيد والتقت بعيني. كانتا

عينين قلقتين وكان حيرة الأطفال الصادقة بادية فيهما. قلت لها:
وكيف لك أن تعرفي؟

- أنا أعرف في العادة، لقد أحسست دائمًا أن هذه هي وظيفتي.
أن كالت يعطي مواعظ جيدة ويشرح المبادئ، وهذا هو واجب
الكافن. ولكن إذا ما سمحت للكافن بالزواج فأظن أن من واجب
زوجته معرفة ما يشعر به الناس أو يفكرون فيه، حتى لو لم تكن
 تستطيع عمل شيء بشأن مشاعرهم وأفكارهم تلك. وليس لدي أية
 ذكرة عن صاحب ذلك العقل الذي ...

سكتت، ثم أضافت وهي شاردة الذهن: إنها رسائل سخيفة.

- هل... هل تلقيت أيًّا منها؟

شعرت ببعض الحباء وأنا أسألها هذا السؤال، ولكن السيدة
 كالثروب ردت بطريقة طبيعية تماماً وقد اتسعت عيناها قليلاً: آه،
 نعم، اثنتين... لا بل ثلاثة، وقد نسيت ما قيل فيها بالضبط. أظنها
 ذكرت شيئاً سخيفاً جداً عن كالم والمدرسة. سخيفة تماماً، لأن
 كالم ليس من هذا النوع من الرجال بأي حال.

- تماماً، تماماً.

- إنه غارق بين كتبه مستغرق في أبحاثه بحيث ينسى كل شيء
 حوله.

لم أشعر بأنني مؤهل للإجابة على هذا النقد، وعلى أية حال
 فقد واصلت السيدة كالثروب كلامها وهي تقفز من الحديث عن

زوجها إلى الرسائل مرة أخرى بطريقة محيرة: توجد أشياء كثيرة جداً يمكن أن تقولها الرسائل ولكنها لا تقولها... هذا هو الغريب في الأمر.

قلت بمرارة: لا أكاد أرى أن الرسائل قد قصرت في مسألة الحشمة والتحفظ.

- ولكنها لا توحى بمعرفة أي شيء. لا شيء من الأمور الحقيقة.

- ماذا تقصدين؟

نظرت إلي بعينيها الدقيقتين الغامضتين وقالت: يوجد بالطبع الكثير من الفحش والعلاقات المحرمة هنا... ومن الأشياء الأخرى. أسرار مخزية كثيرة. لماذا لا يستخدمها الكاتب؟ سكتت ثم سالت فجأة: ماذا كان يقول في رسالتك؟

- كان يقول إن أخي ليست أخي فعلاً.

- وهل هي أختك؟

سألت السيدة كالثروب هذا السؤال باهتمامٍ ودِي لا حرج فيه.

- جوانا شقيقتي بالتأكيد.

أومأت برأسها وقالت: هذا يوضح لك ما أعنيه. وأظن أن أموراً أخرى...

نظرت إلى متاملة بعينيها الصافيتين اللامباليتين. وفجأة أدركت سبب خوف أهالي لايمستوك من السيدة كالثروب؛ ففي حياة كل امرئ فضول مستترة يأمل أصحابها أن لا تُعرف أبداً. وقد أحسست أن السيدة كالثروب كانت تعرفها.

ولأول مرة شعرت بالبهجة إذ سمعت صوت إيمي غريفيث المرح يصبح بقوه: مرحباً يا مود. أنا سعيدة لأنني وجدتك؛ أريد أن أقترح عليك تغيير موعد المزاد. صباح الخير يا سيد بيرتن... يجب أن أدخل إلى البقال وأترك عنده طلبي، ثم سأأتي إلى المعهد مباشرة إن كان هذا يناسبك؟

قالت السيدة كالثروب: نعم، نعم. هذا جيد.

دخلت إيمي غريفيث إلى المحل المسمى «المخازن الدولية». وقالت السيدة كالثروب: مسكينة！

كنت متحيراً، إذ هل يعقل أن ترثي لحال إيمي؟ ولكنها أكملت حديثها: أتعلم يا سيد بيرتن؟ إنني خائفة بعض الشيء...

- من مسألة الرسائل هذه؟

- نعم، إنها تعني... لا بد أنها تعني...

سكتت وهي مستغرقة في التفكير وقد ضاقت عيناها، ثم قالت ببطء كمن يحل لغزاً: إنها كراهية عميا... نعم، كراهية عميا. ولكن حتى الرجل الأعمى قد يطعن أناساً حتى قلوبهم بمحض المصادفة... فما الذي سيحدث عندها يا سيد بيرتن؟

وقد قُدِّرَ لنا أن نعرف ذلك قبل أن يمر علينا اليوم.

* * *

كانت بارترidding هي التي أبلغتنا بخبر المأساة. وبارتريديج امرأة تتلذذ بالفواجع، وكنَّ ترى أنفها يرتجف نشوةً عندما تزيد إبلاغنا بأي خبر سيء. جاءت إلى غرفة جوانا وأنفها يعمل بكامل طاقته، وعيناها تلمعان، وقد انخفض فمها ليعطي انطباعاً مبالغًا به من التجهem. قالت وهي تفتح مغاليق النافذة: يوجد خبر رهيب لهذا الصباح يا آنسة.

كانت جوانا -بعاداتها اللندنية- تحتاج لبعض الوقت حتى تنتبه تماماً في الصباح، ولذلك اكتفت بالقول: "آه!"، ثم تقلبت على فراشها دون اهتمام حقيقي. وضعت بارترidding شاي الصباح إلى جانبها وقالت مرة أخرى: خبر رهيب يبعث على الصدمة... لم أكدر أصدقه عندما سمعته!

سألت جوانا وهي تجاهد للاستيقاظ: ما هو الرهيب؟

قالت بارترidding: "السيدة سيمونغتون المسكينة!". وسكتت على نحو درامي ثم عادت لتقول: ماتت!

- ماتت؟!

انتصبت جواناجالسة على سريرها وقد استيقظت الآن تماماً.

- نعم يا آنسة، عصر الأمس. والأسوأ من هذا أنها اتحررت.

- آه، أحقاً يا بارترidding؟

صُدمت جوانا بالفعل... فالسيدة سيمونغتن لم تكن -بشكل ما- ممن يمكن للمرء أن يربط بينهم وبين هذه المأساة.

- نعم يا آنسة، إنها الحقيقة. لقد قتلت نفسها عمداً. وهذا لا يعني أنها لم تدفع لذلك، المسكينة.

- تُدفع؟

لمحت جوانا ومضة للحقيقة، وقالت: لا تقولي...؟

كانت عيناهما تنظران إلى بارترidding نظرات تسؤال. أوّمأت بارترidding برأسها وقالت: هذا صحيح يا آنسة؛ بسبب واحدة من تلك الرسائل القدرة!

- ماذا قالت الرسالة؟

ولكن هذا -مع شديد أسف بارترidding- مالم تنفع في معرفته. قالت جوانا: إنها أعمال وحشية، ولكنني لا أرى سبيلاً يجعلها تدفع المرء للانتحار.

استنشقت بارترidding ثم قالت بكثير من المعنى: ما لم تكن رسائل صحيحة يا آنسة.

- آه.

شربت جوانا الشاي بعد مغادرة بارترidding للغرفة ثم ألقت رداء على كتفيها وجاءت إلى لتخبرني بالخبر. فكرت فيما قاله أوين

غريفيث: "عاجلاً أم آجلاً ستنطلق رصاصة في الظلام لتصيب مقتلاً"، وقد أصابت مقتلاً لدى السيدة سيمونغتون. لقد كان لها سرها، وهي التي تبدو أبعد النساء عن ذلك... وفكرت بأنها - رغم كل ذكائها - لم تكن تمتلك قوة التحمل؛ كانت من النوع الشاحب الضعيف المتشبث الذي ينهار بسهولة.

. وذكرتني جوانا وسألتني عما أفكرا فيه. كررت على مسامعها ما قاله أوين لي، فقالت بحده: من شأنه طبعاً أن يعرف كل شيء عن هذا الأمر، فهو يرى أنه يعرف كل شيء.

- إنه ذكي.

- بل هو مغرور، مغرور إلى حدّ بغية!

ثم قالت بعد وقت قصير: حادث فظيع بالنسبة للزوج... وللفتاة أيضاً. كيف ستشعر ميغان إزاء هذا الأمر برأيك؟

لم تكن لدي أية فكرة عن ذلك، وهو ما قلته لها. كان غريباً أن لا يستطيع المرء معرفة ما يمكن أن تفكّر به ميغان أو تشعر به. أومأت جوانا برأسها وقالت: نعم، ليس بوسع المرء أبداً أن يعرف شيئاً من مشاعر طفلة مُستبدلة.

ثم قالت بعد سكتوت قصير: هل ترى... أترغب بأن... لا أدرى إن كانت الفتاة ترغب بالمجيء للبقاء عندنا يوماً أو يومين؟ إنها صدمة قوية لفتاة بهذا السن.

وافقتها وقلت: يمكننا الذهاب واقتراح هذا عليها.

- لا بأس على الصبيان، فعندهما تلك المربية. ولكنني أظنها من النوع الذي قد يدفع فتاة مثل ميغان إلى الجنون.

رأيت أن ذلك ممكّن جداً. كنت أستطيع تصور الآنسة هولاند وهي تتفوّه بعبارات تافهة واحدة تلو الأخرى وتقترح عليها عدداً لا يحصى من فناجين الشاي. فتاة لطيفة ولكنني لم أر فيها مربية تستطيع التعامل مع فتاة حتساً.

كنت قد فكرت في إبعاد ميغان عن بيتها، وقد سرت جداً لأن جوانا فكرت في هذا الأمر تلقائياً دون حث مني. ذهبتنا إلى بيت سيمونغتون بعد الإفطار. كنا مرتبيكين قليلاً كلانا؛ إذ ربما بدا وصولنا مجرد فضول لكل ما هو كارثي. ولحسن الحظ التقينا بأوين غريفيث وهو خارج لتوه من البوابة. كان يبدو قلقاً مهموم الفكر، ولكنه حياني بعض الحرارة قائلًا: مرحباً يا بيرتن، تسّرّني روينتك. إن ما خشيتُ وقوعه عاجلاً أم آجلاً قد وقع فعلًا. قضية مؤسفة جداً!

قالت جوانا بصوت كانت تذخره لعنة لنا صماء: صباح الخير يا دكتور غريفيث.

فوجئ غريفيث وأحمر وجهه وقال: آه، آه، صباح الخير آنسة بيرتن.

قالت جوانا: حسيتُك لم ترني.

ازداد أحمرار وجه أوين غريفيث وأخذ الحياة منه كل مأخذ وقال: أنا... أنا آسف. كنت مشغول البال... ولم...

أكملت جوانا دون رحمة: رغم أني بنفس حجمي، لم
أتغير.

قلت لها بعبارة جانبية لاذعة: ولكنك بحجم صورة نصفية.

ثم أكملت: لقد تساءلنا أنا وأختي يا غريفيث، إن كان من المستحسن أن تأتي الفتاة لتقييم معنا يوماً أو يومين؟ ما رأيك؟ لا أحب التدخل... ولكن الأمر سيكون صعباً على الفتاة المسكينة دون شك. ماذا سيكون رأي السيد سيمونغتون في هذا الأمر برأيك؟

قلب غريفيث الفكرة في رأسه بعض الوقت ثم قال أخيراً: أظنها ستكون فكرة ممتازة. إنها فتاة عصبية غريبة الأطوار، ومن الأحسن لها أن تبتعد عن البيت. الآنسة هولاند ممتازة... إنها فتاة عاقلة جداً، ولكن لديها ما يكفيها من العمل مع الولدين ومع سيمونغتون نفسه. إنه منهار تماماً... صعقه المصاب.

قلت بتردد: أكان الأمر... انتحراراً؟

أوما غريفيث برأسه: نعم. ما من إمكانية لكونه حادثاً. كتبْتُ ملاحظة على ورقة صغيرة تقول فيها: «لا يمكنني المضي». لا بد أن الرسالة قد وصلت في بريد عصر أمس. كان المغلف على الأرض بجانب كرسيها، وكانت الرسالة نفسها قد كُوِرت وألقيت قرب الموقد.

- ماذا كانت...

سكتُ وقد أربكتني جرأتي، فقلت: أرجو المغذرة.

ابتسم غريفيث ابتسامة حزن سريعة وقال: لا تخرج من السؤال؛ إذ لا بد أن تقرأ تلك الرسالة في التحقيق. هذا ما لا مفر منه، وهو أمر يدعو لمزيد من الأسى. كانت رسالة من نفس ذلك الطراز... كُتبت بنفس الأسلوب الشيرير. ولكن الاتهام المحدد هو أن الولد الثاني، كولين، لم يكن ابن سيمونتن.

صحت غير مصدق: أتظن ذلك صحيحاً؟

رفع غريفيث كتفيه حيرة. وقال: ليس لدى من الوسائل ما يمكنني من تكوين حكم. لم آتِ إلى هنا إلا منذ خمس سنوات، وحسبما رأيت دوماً فإن سيمونتن وزوجته كانوا زوجين هادئين سعيدين متحابين ويحبان أطفالهما. صحيح أن الولد لا يشبه والديه بشكل محدد... فشعره أحمر فاتح، من ضمن أمور أخرى... ولكن الطفل كثيراً ما يعود لحمل أوصاف جده أو جدته.

- ربما كان عدم التشابه هذا هو الذي تسبب في ذلك الاتهام تحديداً؛ إنه اتهام شنيع أطلق جزاً دون أي مبرر.

- محتمل جداً؛ إذ لم يكن ذلك القلم المسموم ينطلق من أية معرفة دقيقة باستثناء الحقد المنفلت والضغينة.

قالت جوانا: ولكنه صادف أن أصحاب مقتلاً، وإنما كانت ستقتل نفسها، أليس كذلك؟

قال غريفيث مرتباً: لست متأكداً تماماً. كانت السيدة معطلة منذ بعض الوقت، وكانت مصابة بعصاب وهستيريا كنت أعالجها منهمما. أظن من الممكن أن تكون الصدمة - عند تلقيها مثل هذه الرسالة

التي صيغت بتلك العبارات - قد أدت إلى حالة من الذعر والاكتئاب اليائس مما جعلها تفك في الانتحار. ربما قلقت إلى حد شعرت معه أن زوجها قد لا يصدقها إذا أنكرت القصة، وربما أثر عليها الشعور بالخزي العام والاشمئزاز بقعة أدت إلى زعزعة قدرتها على الحكم على الأشياء لفترة مؤقتة.

قالت جوانا: انتحار في حالة عقلية مضطربة.

- بالضبط. أظن أنني سأكون معدوراً تماماً في عرض وجهة النظر هذه أثناء التحقيق.

قالت جوانا: فهمت.

كان في صوتها شيء جعل أوين يقول بصوت غاضب: سأكون معدوراً تماماً. ثم أضاف: ألا توافقين على ذلك يا آنسة بيرتن؟

- آه، بلـ، أوقفك. لو كنت مكانك لفعلت نفس الأمر.

نظر أوين إليها نظرة ارتياـب، ثم ذهب بيـطء في الشارع، ودخلنا إلى البيت. كان الباب الأمامي مفتوحاً ويدا الدخول أسهل من دق الجرس، خصوصاً عندما سمعنا صوت إلسي هولاند بالداخل. كانت تتحدث إلى السيد سيمونـتن الذي ألقى بجسمه متـهلاً على كرسي وهو يـدوـذاهلاً تماماً: كلا، يجب أن تأكل شيئاً يا سيد سـيمونـتن. أنت لم تتناول إفطارك، أو ما أسمـيه الإفطار الصحيح، ولم تأكل شيئاً الليلة الماضـية، وإن الصـدمة وغيرها ستـجعلك تـمرض أنت الآخر، وأنت تحتاج كل قوتك. وقد قال الطـيب ذلك قبل أن يـغادر.

قال سيمونغتن بصوت لا حياة فيه: هذا من لطفك يا آنسة هولاند، ولكن...

قالت إلسي هولاند: فنجان من الشاي الساخن الجيد. ثم دفعت له بالشاي أمامه.

أنا، شخصياً، كنت سأعطي هذا المسكين كأساً من الليمون لينعشه قليلاً، فقد بدا أنه بحاجة إليه. ومع ذلك قبل الشاي وقال وهو يرفع بصره إلى إلسي هولاند: لا أستطيع التعبير عن شكري لكل ما فعلته وتفعلينه يا آنسة هولاند؛ لقد كنت رائعة تماماً.

احمر وجه الفتاة وبدت مسروقة وقالت: جميل منك أن تقول هذا يا سيد سيمونغتن. يجب أن تركني أفعل كل ما أستطيعه لمساعدتك. لا تقلق على الطفلين... سأتولاهما برعايتي، وقد هدأتُ الخدم، وإذا كان هناك شيء يمكنني فعله، كتابة رسائل أو مكالمات هاتفية، فلا تتردد بطلب ذلك مني.

قال سيمونغتن ثانية: هذا من لطفك الشديد.

عندما التفتت إلسي هولاند رأتنا وجاءت إلى الصالة مسرعة قائلة بهمس خافت: أليس الأمر مرعباً؟

أيت وأنا أنظر إليها أنها فتاة لطيفة حقاً. لطيفة، وقديرة وعملية في أوقات الطوارئ. كانت عيناهما الزرقاء الرائعتان بمحمرتين قليلاً، مما يظهر أنها كانت من الرقة بحيث ذرفت الدموع على موت سيدتها.

قالت جوانا: أيمكننا الحديث معك دقيقة؟ لا نريد إزعاج السيد سيمونتن.

أومنات إلسي هولاند برأسها مستوًعاً وتقدمتنا إلى غرفة الطعام في الجانب الآخر من الصالة. قالت: كان وقع الأمر كبيراً عليه... يا لها من صدمة! من كان يظن أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث؟ لكنني أدرک الآن بالطبع أنها كانت غريبة الأطوار منذ زمن؛ كانت عصبية المزاج كثيراً وكثيرة البكاء. كنت أظن ذلك بسبب صحتها، رغم أن الدكتور غريفيث كان يقول دائماً إن صحتها جيدة. ولكنها كانت نزقة وسريعة الاهتياج وأحياناً لم تعرف كيف تعاملها.

قالت جوانا: إنّ ما جئنا لأجله حقيقة هو معرفة ما إذا كان
ياستطاعتنا أخذ ميغان عندنا بضعة أيام... هذا إن رغبت هي بالأمر.

بدت إلسي هولاند مدحشة بعض الشيء، ثم قالت بارتياخ:
ميغان؟ لا أعرف. أقصد أنه لطف كبير منكما، ولكنها فتاة غريبة
الأطوار. لا أحد يعلم ما الذي ستقوله أو تشعر به بخصوص
الأشياء.

قالت جوانا بشيء من الغموض: رأينا أن ذلك ربما يساعد.

- آه، من هذه الناحية فهو يساعد فعلاً. أقصد أتنى يجب أن أرعى الولدين (وهما الآن مع الطاهية) والسيد سيمغتن المسكين.. فهو يحتاج حقاً إلى العناية كالآخرين، وعندكِ الكثير مما ينبغي القيام به والإشراف عليه، وأنا لا أملك -فعلاً- وقتاً كافياً لرعايته ميغان. أظنها في غرفة الأطفال القديمة في الطابق العلوي. يبدو أنها تريد الابتعاد عن الجميع. لا أعرف إن كانت... .

نظرت جوانا إلى نظرة خفيفة. فهُرعت خارج الغرفة وصعدت الدرج وفتحت باب غرفة الأطفال ودخلت. كانت غرفة الأطفال القديمة في أعلى البيت، وكانت الغرفة الواقعة تحتها تشرف على الحديقة من الخلف ولم تكن الستائر فيها مسدلة، أما في هذه الغرفة التي تواجه الطريق فكانت الستائر مسدلة.

رأيت ميغان من خلال ضوء خافت. كانت جائمة على أريكة عند الحاطن البعيد وتراءت لي على الفور صورة حيوان خائف، مختبئ. بدت كمن شلّه الخوف. قلت: "ميغان"، وتقدمت نحوها متبنياً -دونوعي- نبرة من يريد طمأنة حيوان خائف. وأنا مدھوش حقاً لأنني لم أمد يدي بجزرة أو قطعة من السكر، فقد كان هذا ما شعرت به.

نظرت إلي، ولكنها لم تتحرك ولم تتغير ملامح وجهها. قلت مرة أخرى: ميغان، لقد جئت وجوانا لطلب منك القدوم لتقييمي معنا بعض الوقت إن شئت.

جاء صوتها من خلال الضوء الخافت عميقاً كأنما هو آتٍ من أخدود: أقيم معكما؟ في بيتكما؟

- نعم.

- أتعني أنك ستأخذني بعيداً عن هذا المكان؟

- نعم يا عزيزتي.

فجأة بدأ جسدها كله يرتجف، وكان ذلك مخيناً ومؤثراً.

قالت: آه، أرجوك أن تأخذني بعيداً! أرجوك... إن البقاء هنا والشعور بكل هذا الشر أمر فظيع.

تقدمتُ منها فتشبّثت يدَاهَا بأكمام معطفِي وقالت: أنا جبانة جداً... لم أكن أعرف أنني جبانة هكذا.

- لا يأس عليك؛ هذه الأمور ترهق الأعصاب. هيا.

- هل يمكننا الذهاب فوراً؟ دون انتظار دقيقة واحدة؟

- أظن أن عليك أن تجمعي بعض حاجياتك.

- أية حاجيات؟ لماذا؟

- يا عزيزتي، يمكننا أن نوفر لك سريراً وحماماماً وغير ذلك، ولكنني لا أستطيع إعاراتك فرشاة أسنانى.

ضحكـت ضـحـكة ضـعـيفـة باـهـة وـقـالـت: فـهـمـتـ أـظـنـ أـنـيـ
غـيـرـيـ الـيـوـمـ... سـأـذـبـ وأـحـزـمـ بـعـضـ الـأـشـيـاءـ. أـلـنـ تـذـهـبـ؟ هـلـ
سـتـتـظـرـنـيـ؟

سأنتظرك -

- أشكرك... أشكرك كثيراً. آسفه لأنني بمثيل هذا الغباء، ولكن فقدان الأم أمر فظيع.

- أعرف.

ربّت على ظهرها بحثان فنظرت إلى نظرة امتنان وذهب إلى

غرفة نومها، فيما نزلت أنا إلى الطابق السفلي. قلت: وجدت ميغان، وهي قادمة.

ثم أسرعت خارجة من الغرفة، فقالت جوانا: إنها الملك
الحارس تماماً!

قلت: لقد قلتِ هذا بشيءٍ من اللؤم. إنها فتاةٌ لطيفةٌ وكريمةٌ،
وواضح أنها قدِيرةٌ جداً.

- جداً، وهي تعرف ذلك.

- هذا ليس من طبعك يا جوانا.

- لا أتحمل رؤية من يزهو بنفسه؛ فهذا يشيرأسوأ غرائزى !
كيف وجدت ميغان؟

- كانت جاثمة في غرفة معتمة أشبه بغزال مُصاب.

- مسكينة. أكانت راغبة تماماً في المجيء؟

لقد قفزت من الفرحة.

سمعنا صوت أقدام في الصالة دلت على نزول ميغان حاملة

حقيقتها. خرجمتُ وأخذتها منها، وقالت جوانا بـالحادي عشر: هيا بسرعة، ألا يكفي أنني رفضت مرتين حتى الآن شرب كوب حار رائع من الشاي؟

خرجنا إلى السيارة فدخلتها ميغان وتابعتها، وانطلقت بنا جوانا. وصلنا إلى ليتل فيرز ودخلنا غرفة الاستقبال. ألقت ميغان نفسها على كرسي وانفجرت في البكاء. بكى بكاء الأطفال المريض... وكان بكاؤها أقرب إلى الصراخ. تركت الغرفة بحثاً عن علاج، فيما وقفت جوانا وهي تشعر بالعجز كما أظن.

وسرعان ما سمعت ميغان وهي تقول بصوت خنقته العبرات: أنا آسفة لفعل هذا؛ يبدو كتصرف الحمقى.

قالت جوانا بـلطف: إطلاقاً. خذني منديلاً آخر.

وأحسب أنها قدمت لها ما يصلح حالها قبل أن آتيها بكأس من عصير الليمون قبلته مني بامتنان. ثم حولت انتباها إلى جوانا وقالت: أنا آسفة حقاً لهذا الإزعاج الذي سببته لك في الصباح بهذه الطريقة. لا أعرف لماذا... يبدو تصرفًا سخيفاً مع سعادتي الكبيرة بـوجودي هنا.

قالت جوانا: لا بأس، نحن سعيدان جداً بـوجودك معنا.

- لا يمكن ذلك... هذا لطف منكم، لكنني ممتنة لكم.

- أرجو أن لا تشكرينا؛ فهذا سيشعرني بالحرج. كنت أقول الحقيقة عندما أكدت أننا سعيدان بـوجودك معنا؛ لقد استهلكنا أنا وجيري كل الحديث بما عدنا نستطيع التفكير بأشياء أخرى نقولها.

قلت: ولكن سيمكتنا الآن التحدث سوية في مختلف الموضوعات الشيقة... عن جونيriel وريغان وغير ذلك من الأمور.

أشرق وجه ميغان وقالت: كنت أفكـر بهذا، وأظن أنـي أعرف الإجابة: والدهما العجوز الفظيع كان يلـع دائمـاً على سماع مثل هذا التملـق والتذللـ. عندما تُضطـر دومـاً لأنـ تقولـ: "شكراً" وـ"هـذا لـطفـ منـكـ" وغيرـ ذلكـ منـ كلمـاتـ التـملـقـ والمـدـيـعـ فإنـ هـذا يـخـلـفـ فيـ داخلـكـ بـثـرةـ غـضـبـ وـشـذـوذـ، وـسـوـفـ تـشـتـاقـ لأنـ تكونـ إـنـسـانـاـ قـاسـياـ منـ بـابـ التـغـيـرـ... وـعـنـدـمـاـ تـاتـحـ لـكـ الفـرـصـةـ، فـربـماـ وـجـدـتـ أنـ الفـكـرةـ قدـ دـخـلـتـ رـأسـكـ، فـتـذـهـبـ بـعـيـداـ فيـ ردـودـ أـفـعـالـكـ. لـقـدـ كانـ العـجـوزـ لـيرـ فـظـيعـاـ جـداـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ أـقـصـدـ أـنـهـ كـانـ يـسـتـحـقـ فـعـلاـ التـوـبـيـخـ الـذـيـ سـمـعـهـ مـنـ اـبـتـهـ كـوـرـدـيـلـيـاـ.

قلـتـ: أـظـنـ أـنـاـ سـنـخـوـضـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ الـمـشـوـقـةـ عـنـ شـكـسـبـيرـ.

قالـتـ جـوانـاـ: أـرـىـ أـنـكـماـ سـتـكـشـفـانـ عـنـ ثـقـافـةـ رـفـيـعـةـ وـاسـعـةـ. أـمـاـ أـنـاـ فـأـخـشـىـ القـولـ بـأـنـيـ أـجـدـ كـتـابـاتـ شـكـسـبـيرـ دـائـمـاـ كـثـيـةـ مـمـلـةـ.

قلـتـ وـأـنـاـ أـلـفـتـ إـلـىـ مـيـغانـ: كـيـفـ تـشـعـرـينـ الـآنـ؟

- عـلـىـ مـاـ يـرـامـ، أـشـكـرـكـ.

أـخـذـتـ جـوانـاـ مـيـغانـ إـلـىـ الدـورـ الـعـلـوـيـ لـتـفـرـيـغـ حـقـيـقـيـتهاـ. وـدـخـلـتـ بـارـتـريـدـجـ وـهـيـ تـبـدوـ مـتـجـهـةـ فـقـالـتـ إـنـهـاـ عـمـلـتـ كـأـسـيـنـ مـنـ الـكـاـسـتـرـ للـغـدـاءـ، فـمـاـذـاـ تـصـنـعـ حـيـالـ هـذـاـ الـأـمـرـ؟

* * *

الفصل السادس

جرى التحقيق بعد ذلك بثلاثة أيام، وقد تم بصورة لاتقة قدر الإمكان. ولكن الحضور كانوا بأعداد كبيرة، وكما علقت جوانا: كانت قلنسوارات النساء حول وجوههن تتحرك صعوداً ونزولاً لكثرة أحاديثهن.

تم تحديد وقت وفاة السيدة سيمينغتن فيما بين الساعة الثالثة والرابعة. كانت وحدها في البيت، وكان زوجها في مكتبه، فيما غابت الخادمات في عطلتهن الأسبوعية، وكانت إلسي هولاند والولدان في الخارج يتمشون، أما ميغان فكانت قد خرجت في جولة على الدراجة.

لا بد أن الرسالة قد جاءت في بريد العصر. ولا بد أن السيدة سيمينغتن قد أخذتها من الصندوق، وقرأتها... ثم ذهبت - وهي في حالة من الاهتمام والغضب - إلى سقينة الأواني وأحضرت بعضًا من السيانيد (الموجود هناك للقضاء على أعشاش الزناير) فحلّته في الماء وشربته بعدما كتبت كلماتها المنفعلة الأخيرة تلك: «لا يمكتني الاستمرار...».

وقدم أوبن غريفيث شهادته الطيبة وشدد على رأيه الذي أوضحه لنا عن الحالة العصبية عند السيدة سيمونتن وضعف قدرتها على الاحتمال. كان قاضي التحقيق لطيفاً وحكيناً، وقد دان بمرارة أولئك الذين يكتبون هذه الأشياء الحقيرة؛ الرسائل المُعْفلة، وقال إن كاتب تلك الرسالة الشريرة والكافحة - كائناً من كان - مسؤولاً أخلاقياً عن جريمة القتل، وأعرب عن أمله في أن يتمكن الشرطة قريباً من اكتشاف الفاعل لاتخاذ إجراء ضده رجالاً كان أم امرأة، لأن تصرفها جباناً حاقداً كهذا يستحق أقصى عقوبة يفرضها القانون.

وببناء على أقواله تلك، توصل المحلفون إلى الحكم العثماني:
التحار في لحظة جنون مؤقت.

وقد بذل القاضي كل ما في وسعه... وكذلك أوبن غريفيث، ولكنني بعد ذلك - عندما اختلطت بجموع نسوة القرية المحتشدة المتلهفة - سمعت نفس الهمسات البغيضة التي بدأت أعرفها جيداً مثل: "لا دخان بلا نار، هذارأيي!" أو "لا بد من وجود شيء في الأمر، وإنما كانت لتفعل ذلك أبداً...".

وفي تلك اللحظة كرهت لايمستوك، وكرهت حدودها الضيقة ونساءها الهمسات الثرثارات.

* * *

يصعب تذكر الأشياء حسب ترتيبها الزمني الدقيق. كان المعلم المهم التالي - بالطبع - هو زيارة المفتش ناش، ولكن أظن أننا تلقينا قبل هذه الزيارة زيات أخرى من أشخاص عديدين من البلدة،

وكانت كل زيارة من تلك الزيارات مثيرة للاهتمام بطريقتها الخاصة
بـالـقـائـها بعض الضـوء على الشـخـصـيـاتـ المعـنـيةـ.

جاءت إيمى غريفيث في صباح اليوم الذي تلا التحقيق. كانت
تبـدوـ كـعـادـتهاـ مـلـيـةـ بـالـحـيـوـيـةـ وـالـشـنـاطـ وـالـحـمـاسـ وـنـجـحـتـ -ـ كـعـادـتهاـ
أـيـضاـ فيـ إـزـعـاجـيـ عـلـىـ الـفـورـ تـقـرـيـباـ.ـ كـانـتـ جـوـانـاـ وـمـيـغـانـ خـارـجـ الـبـيـتـ
وـلـذـلـكـ قـمـتـ بـالـواـجـبـ.

قالـتـ الـأـنـسـةـ إـيمـىـ غـرـيفـيـثـ:ـ صـبـاحـ الـخـيـرـ...ـ سـمـعـتـ أـنـكـماـ
تـسـتـضـيـفـانـ مـيـغـانـ هـتـرـ عـنـدـكـماـ هـنـاـ؟ـ

-ـ نـعـمـ.

-ـ هـذـهـ طـيـةـ مـنـكـماـ؛ـ لـاـ بـدـ أـنـ فـيـ ذـلـكـ إـزـعـاجـاـ لـكـماـ.ـ جـئـتـ
لـأـقـولـ إـنـ بـوـسـعـهـاـ أـنـ تـأـتـيـ إـلـيـنـاـ إـنـ شـاءـتـ.ـ أـظـنـ أـنـ باـسـطـاعـتـيـ إـيـجادـ
وـسـائـلـ لـجـعـلـهـاـ مـفـيـدـةـ فـيـ الـبـيـتـ.

نـظـرـتـ إـلـيـ إـيمـىـ غـرـيفـيـثـ نـظـرـةـ اـسـتـيـاءـ شـدـيدـ وـقـلـتـ:ـ هـذـاـ لـطـفـ
مـنـكـ،ـ لـكـنـنـاـ نـوـدـ بـقـاءـهـاـ مـعـنـاـ؛ـ إـنـهـاـ سـعـيـدـةـ تـمـامـاـ بـالـتـسـكـعـ هـنـاـ.

-ـ أـظـنـ هـذـاـ.ـ هـذـهـ الـطـفـلـةـ تـحـبـ التـسـكـعـ كـثـيرـاـ،ـ وـلـعـلـهـاـ لـاـ تـمـلـكـ
أـنـ تـكـوـنـ غـيـرـ ذـلـكـ؛ـ فـهـيـ عـمـلـيـاـ بـنـصـفـ عـقـلـ.

-ـ أـظـنـ أـنـهـاـ فـتـاةـ ذـكـيـةـ.

نـظـرـتـ إـيمـىـ غـرـيفـيـثـ إـلـيـ نـظـرـةـ قـاسـيـةـ وـقـالـتـ:ـ هـذـهـ هـيـ أـوـلـ مـرـةـ
أـسـمـعـ فـيـهـاـ شـخـصـاـ يـقـولـ هـذـاـ عـنـهـاـ...ـ حـتـىـ إـنـكـ عـنـدـمـاـ تـتـحـدـثـ إـلـيـهـاـ
فـإـنـهـاـ تـنـظـرـ إـلـيـكـ وـكـأنـهـاـ لـاـ تـفـهـمـ مـاـ تـقـولـهـ!

- ربما لا تكون مهتمة بالموضوع فقط.

- إن كانت كذلك فهي وقحة جداً.

- ربما، ولكنها ليست بنصف عقل.

قالت بحدة: إنه الشroud والغفلة في أحسن الأحوال. ما تحتاجه ميغان هو عمل دؤوب جيد؛ شيء يجعلها تهتم بالحياة. أنت لا تتصور الاختلاف الذي يحدثه ذلك في حياة الفتاة. أنا أعرف الكثير عن الفتيات، وسيدهشك الاختلاف الذي يحدث عند الفتيات حتى من الانخراط في سلك الكشافة. إن ميغان أصبحت أكبر بكثير من أن تقضي وقتها في التسкуع والبطالة.

- كان من الصعب عليها حتى الآن عمل شيء آخر؛ فقد بدا دوماً أن السيدة سيمنعن ترى فيها فتاة في الثانية عشرة من عمرها.

زفرت الآنسة غريفيث بازدراء وقالت: أعرف، ولم أكن أطيق صبراً على موقفها ذاك. المسكينة ميتة الآن بالطبع، ولذلك لا أريد قول المزيد، ولكنها كانت مثلاً نموذجياً للمرأة غير الذكية التي لا تشغله إلا هموم المنزل: لعب البريدج والقيل والقال وأطفالها... وحتى في مسألة الطفلين كانت لديها الآنسة هولاند تقوم بالعناية بهما. أنا لم أكن من المعجبات أبداً بالسيدة سيمنعن، رغم أنني لم أشك في الحقيقة أبداً.

قلت بحدة: الحقيقة؟

احمرّ وجه الآنسة غريفيث وقالت: لقد أسفت كثيراً على السيد

سيمغتن بسبب نشر كل تلك الأمور في التحقيق. كان ذلك أمراً شديداً للحرج بالنسبة له.

- ولكن لا بد أنك سمعته وهو يؤكّد عدم وجود كلمة صحيحة واحدة في تلك الرسالة... وأنه متاكد تماماً من هذا؟

- طبعاً قال ذلك، وهو موقف صحيح تماماً. لا بد أن يقف الرجل مدافعاً عن زوجته، ومن شأن دُك أن يفعل ذلك.

سكتت قليلاً ثم أوضحت: لقد عرفت دُك سيمغتن منذ وقت طويل.

فوجئت قليلاً وقلت: حقاً؟ لقد فهمت من أخيك أنه اشتري عيادته هنا منذ بضع سنوات فقط.

- نعم، ولكن دُك سيمغتن كان يأتي قبل ذلك ويقيم في منطقتنا في الشمال. لقد عرفته منذ سنوات.

إن النساء يقفن إلى نتائج لا يقفز إليها الرجال، ومع ذلك فإن نبرة إيمي غريفيث التي أصبحت ناعمة فجأة جعلت أفكاراً عديدة تراودني. نظرت إلى إيمي بفضول، فيما واصلت هي حديثها بذلك الصوت الناعم: أعرف دُك جيداً... إنه رجل ذو كبراء، ومتحفظ جداً، ولكنه من النوع الذي يمكن أن يكون غيوراً جداً.

قلت متأنياً: هذا يوضح سبب خوف السيدة سيمغتن من عرض الرسالة عليه أو إخباره عنها. كانت تخشى -نتيجة غيرته- أن لا يصدق إنكارها.

نظرت الآنسة غريفيث إلى بغضب وازدراء وقالت: يا إلهي، هل تظن أن من شأن امرأة أن تذهب وتبتلع كمية من سيانيد البوتاسيوم بسبب اتهام غير صحيح؟

- يبدو أن قاضي التحقيق رأى ذلك ممكناً، وأخوك أيضاً...

قاطعني إيمي: الرجال كلهم سواء؛ كلهم يريدون المحافظة على الآداب العامة. ولكنك لن تراني أنا أصدق هذا الهراء. إذا تلقت امرأة بريئة رسالة مجهولة قذرة فإنها تصاحك وتلقى بها بعيداً. أنا هكذا...

سكتت فجأة ثم أكملت: كنتُ سأفعل.

لكتني تنبهت لسكتتها القصير هذا. كدت أكون واثقاً أن ما أرادت قوله هو: "أنا هكذا فعلت". قررت نقل الحرب إلى ساحة الخصم فقلت بمرح: فهمت، إذن فقد استلمت واحدة من تلك الرسائل أيضاً؟

كانت إيمي غريفيث من النوع الذي يحتقر الكذب. سكتت بعض الوقت وأحرم وجهها ثم قالت: حسناً، نعم. لكنني لم أتركها تقلقني!

سألتها متعاطفًا إذ كنا في البلاية سواء: هل كانت بذلة؟

- بالطبع، هذه الأشياء دائماً بذلة. إنها هذيان شخص مع فهو. قرأت بعض كلمات منها وفهمت ما هي وألقيتها مباشرة في سلة المهملات.

- ألم تفكري في أخذها إلى الشرطة؟

- لم أفكر بذلك وقتها؛ فقد شعرت -كما يقول المثل- بأن الكلام كلما قلّ كان إصلاحه أسرع.

أحسست بداعف في داخلي يدفعني لأقول: "لا دخان بلا نار!"، ولكنني ضبطت نفسي. وحتى أتجنب هذا الإغراء انتقلت إلى موضوع ميغان. قلت: هل لديك أي علم بوضع ميغان المالي؟ ليس هذا فضولاً تافهاً من ناحيتي، ولكنني كنت أسأله إن كان من الضروري لها أن تعمل.

- لا أظنه ضرورياً بالمعنى المحدد. لقد تركت لها جدتها لأبيها دخلاً صغيراً كما أظن، وعلى أية حال سيبقى ذلك سيمتنعن مؤمناً لها السكن والمصروف حتى لو لم تترك لها أمها أي شيء. كلام، ولكن المسألة مسألة مبدأ.

- أي مبدأ؟

- العمل يا سيد بيرتن... لا شيء مثل العمل. إن الكسل هو الخطيئة التي لا تغفر.

- لقد طرد السير إدوارد غري -الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية- من جامعة أكسفورد بسبب كسله الذي لا سبيل لإصلاحه. وسمعت أن دوق ويلنگتون كان غبياً ومهملاً لواجباته الدراسية. ثم ألم يخطر ببالك -يا آنسة غريفيث- أنك ربما لم تكوني قادرة على استقلال قطار سريع إلى لندن لو أن جورجي ستيفنسن كان قد خرج في نشاط شبابي بدل أن يتسع سينماً في مطبخ والدته حتى استرعت

انتباهـ الكسول الطريقة الغريبة التي يعلو ويهبط فيها غطاء الإبريق
على النار، فكان ذلك بداية ابتكار القطار؟

اكتفت إيمي بأن زفت بتأفف، فيما قلت وأنا أحمس
لموضوعي: إن لدى نظرية تقول إننا ندين بمعظم اختراعاتنا العظيمة
ومعظم الإنجازات العبرية إلى الكسل... الإجباري منه والطوعي.
إن العقل البشري يفضل أن يتغذى على أفكار الآخرين، ولكنه عندما
يُحرم من هذا الغذاء فإنه سيبدأ كارهاً في التفكير لذاته... وتذكرني إن
مثل هذا التفكير هو تفكير إبداعي وقد يؤدي إلى نتائج قيمة.

ثم أكملت قبل أن تزفر إيمي من جديد: وفوق ذلك فهناك
الجانب الفني.

نهضت وأخذت من مكتبي صورة كانت تلazمني دائماً لمنظر
صيني مفضل عندي. كانت تمثل رجلاً عجوزاً يجلس تحت شجرة
ويسلي نفسه بتلك اللعبة القديمة التي يشبك الأطفال فيها خيوطاً بين
أصابعهم حتى يؤلفوا منها شكلاً هندسياً. أحضرت الصورة وقلتُ
لها: كانت في المعرض الصيني، وقد سحرتني. اسمحي لي أن أريك
إياها. إنها تُدعى «رجل عجوز يستمتع بمتعة الكسل».

لم تتأثر إيمي غريفيث لصورتي الجميلة، وقالت: حسناً، إننا
نعرف جميعاً كيف هي طبيعة الصينيين!

سألتها: ألا تعجبك؟

- بصرامة، أنا لست مهتمة كثيراً بالفن. إن موقفك يا سيد

بيرتن هو موقف تقليدي لمعظم الرجال؛ فأنت تكره فكرة عمل النساء... ومنافستهن.

فوجئت بكلامها، فقد أصبحت في موقف معاد للحركة النسائية. وسرعان ما غضبت إيمي وقالت وقد احمرت وجنتها: أنت تستغرب سعي المرأة وراء مهنة لها. والدai -أيضاً- كانا يستغريان ذلك. كنت شديدة الحرص على دراسة الطب، ولكنهما لم يوافقا على دفع رسوم الدراسة، ومع ذلك دفعاهما لأخي أوين عن طيب خاطر. ربما كان من شأنني أن أصبح طبيبة أفضل منه!

- أنا آسف لذلك. ربما كان وقوعه صعباً عليك، فإذا أراد المرء فعل شيء...

أكملت حديثها بسرعة: لقد تغلبت على ذلك الآن. لدى الكثير من قوة الإرادة؛ حياتي مشغولة ونشطة. إنني واحدة من أسعد الناس في لايمستوك. لدى الكثير من الأعمال أقوم بها، لكنني أحارب ذلك التمييز الرجعي السخيف الذي يقول إن مكان المرأة في بيتها دائمًا.

- أنا آسف إن كنت قد أغضبتك، فذلك لم يكن ما قصدته حقاً، ولكنني لا أستطيع تصور ميغان في دور امرأة يشكل البيت محور حياتها.

- نعم، إنها طفلة مسكونة. أخشى أنها لن تصلح في أي مجال.

كانت إيمي قد هدأت وعادت تتحدث بأسلوبها الطبيعي: أبوها كما تعلم...

ثم سكتت، فقلت بفظاظة: كلا، إنني لا أعلم. الجميع يقولون «أبوها»، ثم يخضون أصواتهم. ماذا كان يفعل الرجل؟ أما زال على قيد الحياة؟

- لا أعرف حقاً. كما أنتي -شخصياً- أجهل الكثير من شؤون أيها، ولكنه كان رجلاً سيئاً بالتأكيد. أظنه من أصحاب السجون، كما أن في عائلته عرق شذوذ قوياً. هذا ما لا يجعلني أُفاجأ إذا ما كانت ميغان «ناقصة» قليلاً.

- بل هي في كامل قواها العقلية، وكما قلت من قبل فإنني اعتبرها فتاة ذكية. أختي تراها كذلك أيضاً؛ إن جوانا تحبها كثيراً.

قالت: أخشى أن أختك تجد المكان هنا مملاً جداً دون شك.

وعندما قالت عبارتها تلك أدركت شيئاً آخر، فقد كانت إيمى غريفيث تكره أختي. كان ذلك واضحاً في نبرات صوتها الهدئة والتقلدية. قالت: لقد تعجبنا جميعاً من قدرتكم على تحمل العزلة في مكان ناء كهذا.

كان ذلك سؤالاً وقد أجبت عنه: إنها أوامر الطبيب. كان علي أن أذهب إلى مكان هادئ جداً لا يحدث فيه شيء. سكت ثم أضفت: وهو ما لا يصح تماماً على لا يمستوك الآن.

- صحيح، صحيح.

بدت قلقة، ثم نهضت لكي تذهب قائلة: يجب وضع حد لكل

هذه الوحشية! لا يمكننا السماح باستمرار هذا الحال.

- ألا يفعل الشرطة شيئاً؟

- لست أدرى، لكنني أظن أن علينا معالجة الأمر بأنفسنا.

- نحن لا نملك الوسائل التي يملكونها.

قالت: "هراء! ربما كنا أكثر منهم إدراكاً وذكاء! إن كل ما نحتاجه هو شيء من التصميم". ثم ودعتنى بسرعة وذهبت.

عندما عادت جوانا وميغان من رحلتهما أریت ميغان صورتي الصينية. أشرق وجهها وقالت: إنها رائعة، أليس كذلك؟

- هذا في الواقع هو رأيي.

كان جبينها يتتجعد بالطريقة التي كنت أعرفها جيداً عنها. قالت: ولكن من شأن ذلك أن يكون صعباً، أليس كذلك؟

- أن يكون المرء كسولاً؟

- لا، ليس أن يكون كسولاً... ولكن أن يستمتع بالكسيل؛ إذ عليك أن تكون كبيراً في السن كثيراً...

سكتت فقلت لها: وهو بالفعل رجل عجوز.

- لا أقصد أنه كبير بهذا المعنى. لا أقصد السن، أقصد أن يكون كبيراً في... في...

- تقصدين أن على المرء أن يرقى إلى درجة عالية من التحضر حتى يبدو له الأمر على هذا النحو... أي أنها نقطة دقة لا يفهمها

إلا عقل متطور معقد؟ أظن أنني سأكمل تعليمك يا ميغان بأن أقرأ
عليك مئة قصيدة شعرية مترجمة عن اللغة الصينية.

* * *

قابلت سيمونغتون في البلدة في نفس ذلك اليوم وسألته: هل في
الأمر شيء لو أن ميغان بقيت عندنا قليلاً؟ إنها تؤنس جوانا... فهي
تشعر بالوحشة أحياناً لعدم وجود أي من صديقاتها.

- آه... ميغان؟ آه، نعم، كرم كبير منك.

شعرتُ عندها بكراهية لسيمنغتون لم أستطع التخلص منها تماماً
بعد ذلك؛ فمن الواضح أنه قد نسي كل شيء عن ميغان. ما كنت
لأهلهم لو أنه كره الفتاة كرهاً إيجابياً إذا صح التعبير... فقد يغار الرجل
أحياناً من ابن الزوج الأول... ولكنه لم يكن يكرهها، بل إنه لا يكاد
يشعر بوجودها. كان شعوره نحوها أشبه بشعور رجل لا يهتم كثيراً
بالكلاب وصادف أن في بيته كلباً. فإنك في هذه الحالة لا تلاحظ
وجود الكلب إلا عندما ترتطم به فتشتمه، وأنت تربت عليه بشكل
عارض عندما يتمسح بك. لقد أزعجتني كثيراً عدم مبالغة سيمونغتون
المطلقة بابنة زوجته.

قلت له: ما الذي تخطط لعمله بشأنها؟

بدا وكأنه قد جفل لسؤالي وقال: بشأن ميغان؟ ستوافق حالي
في البيت. أقصد أنه بيتها طبعاً.

كانت جدتي التي كنت أحبها كثيراً تغني أغاني قديمة على

قيثارتها. وأذكر إن إحدى تلك الأغاني كانت تنتهي هكذا:

أنا لست هنا يا فتاتي الغالية
ليس عندي بيت أو مكان،
ولم يعد لي مأوى لا في البحر ولا على الشاطئ
سوى في قلبك.
ذهبت إلى البيت وأنا أدندن بهذه الأغنية.

* * *

جاءت إميلي بارتن بعد تناولنا الشاي مباشرة. أرادت الحديث بشأن الحديقة، فخرجننا وتحديثنا نحوً من نصف ساعة، ثم درنا وعدنا إلى البيت. وعندها خفضت صوتها وهمسـت: أرجو أن لا تكون تلك الطفلة... قد تضايقـت كثيراً من كل هذا الأمر الرهيب؟

- تقصدـين وفـاة أمـها؟

- عـنـيت ذـلـك طـبعـاً. ولـكـن ما قـصـدـته حـقـيقـة هو... بـشـاعـة الـاتهـام الذي يقف خـلف ذـلـك.

شعرت بالفضول وأردت معرفـة رد فعل الآنسـة بـارتـن فـقلـت:
ما رـأـيك بـذـلـك الـاتهـام، أـكـان صـحـيـحاً؟

- آـه، كـلا، كـلا بالـتأـكـيد؟ إـنـي وـاثـقة أـنـ السـيـدة سـيـمـنـغـتن لم يـسـقـ لها... إـنـه لم يـكـن... أحـمـر وجهـ إـيمـيلي بـارتـن وـارـتـبـكت، ثـمـ أـكـملـتـ قـائـلةـ: أـقـصـدـ أـنـه غـيرـ صـحـيـحـ عـلـىـ الإـطـلاقـ... رـغـمـ أـنـه قدـ يـكونـ بـالـطـبعـ حـكـمـاً تمـ إـطـلاقـهـ.

قلت وأنا أحدق إليها: حكمًا؟

اشتدَّ احمرار وجهها وقالت: لا أملك إلا أنأشعر بأن كلِّ هذه الرسائل الفظيعة وكل هذا الحزن والألم الذي سببته، إنما أرسل لغرض معين.

قلت متوجهماً: لقد أُرسل لغرض بالتأكد.

- كلا، كلا، لقد أساءَ فهمي يا سيد بيرتن. لا أتحدث عن ذلك الإنسان الضال الذي كتبها... فلا بد أنه شخص منبوذ تماماً. أقصد أن العناية الإلهية هي التي سمحت بذلك؛ حتى توقظنا وتبهنا إلى عيوبنا!

- كلا، لا يظلم الله الناس بغير ذنب يرتكبونها؛ فإن لم نكن كما تقول تلك الرسائل فلا بد أن الذي كتبها إنسان شاذ.

- ما لا أستطيع فهمه هو لماذا يريد أي امرئ فعل مثل هذا الشيء؟

رفعت كتفي حيرة وقلت: عقلية مريضة.

- يبدو أمراً محزناً جداً.

- لا يبدو لي محزناً، بل يبدو أمراً يستحق اللعنة. ولست بآسف على استخدام هذه الكلمة، فهذا ما أعنيه تماماً.

كانت الحمرة قد اختفت عن وجنتي الأنفة بارتن، وأصبحتا شاحبتين تماماً: ولكن لماذا يا سيد بيرتن، لماذا؟ أية متعة يمكن للمرء أن يحصل عليها من هذا الأمر؟

- هذا ما لا نستطيع فهمه - لا أنت ولا أنا - والحمد لله.

خفضت إميلي بارتن صوتها وقالت: يقولون إنها السيدة كليت... ولكن لا يمكنني تصديق ذلك.

هززت رأسي، فواصلت حديثها باهتماج: لم يحدث مثل هذا شيء من قبل أبداً... لا أذكر حدوث أمر كهذا، كانت بلدة صغيرة سعيدة. لماذا كانت أمي العزيزة ستقول؟ لا بد أن نحمد الله إذ وفر عليها رؤية هذا الأمر.

وفكرت بأن السيدة بارتن العجوز -من كل ما سمعته عنها- كانت امرأة قوية لا يمكن لشيء أن يؤثر عليها، ولعلها كانت مستسماً بها الحدث المثير.

أكملت إميلي حديثها: إنه أمر يحزنني كثيراً.

- ألم... ألم تلتقي شيئاً منها؟

احمر وجهها كثيراً وقالت: آه، أبداً، سيكون ذلك فظيعاً!

أسرعت بالاعتذار لها، ولكنها ذهبت وهي تبدو متزعجة بعض الشيء. دخلت البيت لأجد جوانا تقف قرب النار في غرفة الاستقبال وكانت قد أشعلتها لتوها إذ كان المساء بارداً، وكانت تمسك بيدها رسالة مفتوحة.

عندما دخلت التفت إلي بسرعة وقالت: جري! وجدت هذه في صندوق الرسائل... وضعت في الصندوق باليدي. إنها تبدأ بالقول: «أيتها الموسم المتبرجة...»

- ماذا تقول غير ذلك؟

قالت وقد كسرت تكشيرة عريضة: نفس القذارات القديمة.
ثم ألقتها في النار.

ولكني قفزت بحركة سريعة آلمت ظهري فسجّبُتها قبل أن
تشتعل فيها النار وقلت: لا ترميها؛ قد تحتاج إليها.

- تحتاج إليها؟

- لأجل الشرطة.

* * *

جاء المفتش ناش لرؤيتي في صباح اليوم التالي، ومنذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها أحبابه كثيراً. كان كأفضل ما يكون عليه مفتش شرطة محلي؛ طويل القامة عسكري السمت، ذا عينين هادئتين متأملتين، وأسلوب صريح متواضع.

قال: صباح الخير يا سيد بيرتن، أظن أنك تستطيع تخمين سبب مجبيّي لرؤيتك.

- نعم، أظن ذلك. بخصوص تلك الرسالة.

أو ما برأسه موافقاً وقال: فهمت أنك تلقيت واحدة منها.

- نعم، بعد وصولنا إلى هنا مباشرة.

- ماذا قالت بالضبط؟

فكرت دقيقة، ثم كررت كلمات الرسالة بأكبر قدر ممكن من الدقة. أصغى مدير المباحث دون أدنى حركة من وجهه، ودون أن ييدي أي نوع من الانفعال. وعندما انتهيت قال: فهمت. هل احتفظت بتلك الرسالة يا سيد بيرتن؟

- أنا آسف. لم أحافظ بها؛ فقد ظنتها حدثاً منفرداً لمناكفتنا كقادمين جدد إلى المنطقة.

أو ما مدير المباحث برأسه متفهمأ ثم قال باقتضاب: هذا مؤسف.

- ومع ذلك فقد تلقت أختي واحدة بالأمس، وقد منعتها في الوقت المناسب من إحرارها.

- أشكرك يا سيد بيرتن، هذا عمل حكيم منك.

ذهبت إلى مكتبي وفتحت قفل الدرج الذي وضعت فيه الرسالة، فقد رأيت من غير المناسب أن تراها بارتريدج. أعطيت الرسالة لنash، فقرأها متمعناً، ثم رفع بصره وسألني: أكان الرسالة الأولى تشبه هذه من حيث المظاهر؟

- أظن ذلك... حسبما ذكر.

- نفس الاختلاف بين المغلف ونص الرسالة؟

- نعم. كان المغلف مكتوباً على الآلة الطابعة، أما الرسالة فكانت من كلمات قُضّت ولُصقت على الورقة.

أو ما ناش برأسه ووضعها في جيده، ثم قال: ترى، هل يمكنك

أن تأتي إلى مركز الشرطة معي يا سيد بيرتن؟ بإمكاننا أن نباحث في الأمر هناك وسوف يوفر علينا هذا وقتاً كبيراً بالإضافة إلى تجنب تداخل العمل.

- بالتأكيد. أتريدني أن أذهب الآن؟

- إن لم يكن عندك مانع.

كانت سيارة الشرطة تنتظر عند الباب، فانطلقت بها إلى المركز. قلت: هل تعتقد أن باستطاعتكم التوصل إلى حقيقة هذه المسألة؟

أوّلًا ناش برأسه وائقاً وقال: آه، نعم، سوف نصل إلى الحقيقة بالتأكيد. إنها مسألة وقت وروتين. مثل هذه القضايا تأخذ وقتاً، ولكنها مضمونة الحل. إنها مسألة تضيق للاحتمالات وصولاً إلى الفاعل.

- عن طريق استثناء أسماء معينة؟

- نعم. بالإضافة إلى الإجراءات الروتينية الأخرى.

- أعني مراقبة صناديق البريد، وتفحص آلات الطباعة وال بصمات وغير هذه الأمور؟

ابتسم وقال: كما تقول.

في مركز الشرطة وجدت سيمونتن وغريفيث قد سبقاني إلى هناك، وقدمانى لرجل طويل ذي فك طويل بارز يلبس الملابس المدنية ويدعى المفتش غريفز.

أوضح المفتش ناش قائلاً: لقد جاء المفتش غريفز من لندن
لمساعدتنا، فهو خبير في قضايا الرسائل المجهولة.

ابتسم المفتش غريفز ابتسامة حزينة. وفكرت في نفسي بأن
حياة تُقضى في ملاحقة كاتبي الرسائل المجهولة لا بد أن تكون
حياة كثيبة إلى أبعد الحدود، ومع ذلك أظهر المفتش غريفز نوعاً
من الحماسة الكثيبة. قال بصوت عميق حزين ككلب الصيد المحبط:
هذه القضايا متشابهة كلها. سوف تُدهش للتشابه في كلمات الرسائل
والأشياء التي تقولها.

قال ناش: حدثت عندنا قضية منها قبل سنتين فقط، وقد
ساعدنا المفتش غريفز فيها.

رأيت أن بعض تلك الرسائل كانت منشورة على الطاولة أمام
غريفز، ومن الواضح أنه كان يتفحصها. قال ناش: تكمن الصعوبة في
الحصول على الرسائل؛ فالناس إما أن يحرقوها أو أنهم لا يعترفون
أصلاً بأنهم استلموها. أغبياء، ويختلفون من التورط مع الشرطة...
الناس هنا مختلفون.

قال غريفز: ومع ذلك لدينا عدد لا بأس به هنا ويمكننا العمل
به.

أخرج ناش الرسالة التي أعطيتها له من جيده وألقاها أمام غريفز
الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم وضعها مع الرسائل الأخرى قائلاً
باستحسان: جميل جداً... حقاً هذا جميل جداً.

ما كنت أنا لأصف الرسالة تلك بهذه الطريقة، ولكني أحسب

أن للخبراء وجهات نظرهم الخاصة، وقد أسعدني أن يستمتع أحد بهذا الكم من الرسائل القادحة البذيئة الفاحشة.

قال المفتش غريفز: أعتقد أن لدينا ما يكفي لتبادر به عملنا، وسوف أطلب منكم أيها السادة أن تحضروا لنا أية رسائل تحصلون عليها على الفور. وأيضاً إذا سمعتم عن شخص آخر تلقى واحدة منها... وأن تبذل أنت أيها الطبيب -على وجه الخصوص- بين مرضاك جهداً لإقناعهم بالمجيء برسائلهم إلى هنا.

ثم قال وهو يفرز الرسائل المكونة أمامه: لدى واحدة وجّهت إلى السيد سيمونغتون استلمها قبل نحو شهرين، وواحدة إلى الدكتور غريفيث، وواحدة إلى الآنسة غينش، وواحدة مكتوبة إلى السيدة مذج زوجة الجزار، وواحدة لجينيفر كلارك الساقية في مطعم ثري كراونز، والرسالة التي تلقتها السيدة سيمونغتون، وهذه الرسالة الآن إلى الآنسة بيرتن... آه، نعم، وواحدة أخذناها من مدير البنك.

قلت: إنها مجموعة تمثل كل الشرائح تماماً.

- ولها كلها مثيل في القضايا الأخرى! هذه الرسالة هنا لا تختلف بشيء عن تلك التي كتبتها بائعة القبعات تلك. وهذه الأخرى صورة طبق الأصل عن حملة رسائل محمومة شهدناها في نورثامبرلاند، وكانت كاتبها طالبة مدرسة في ذلك الوقت. ولعلني أقول أيها السادة إنني أود رؤية شيء جديد أحياناً، بدلاً من هذه الأساليب المكرورة نفسها.

تمتّت قائلًا: لا جديد تحت الشمس.

- هذا صحيح... لو كنت في مهنتنا لعلمت ذلك جيداً.

تنهد ناش وقال: نعم، هذا صحيح.

ثم تساءل سيمونغتون: هل توصلتم إلى رأي محدد بخصوص هوية الكاتب؟

تنحنح غريفز وألقى محاضرة صغيرة: توجد بين كل هذه الرسائل عوامل مشتركة معينة، وسوف أعدّها عليكم أيها السادة لعلها توحّي لكم بشيء: إن نص الرسائل مؤلف من كلمات مركبة من حروف منفصلة تم قصّها من كتاب مطبوع، وهو كتاب قديم أظنه طُبع في نحو العام ١٨٣٠. ومن الواضح أن الكاتب قد فعل ذلك لتجنب خطر التعرّف عليه من خلال خط اليد، وهو أمر في غاية السهولة كما يعرف معظم الناس في أيامنا هذه؛ فمحاولات تغيير الخط لا تصمد أمام اختبارات الخبراء. لا توجد على الرسائل أو المغلفات بصمات أصابع لشخص محدد، وهذا يعني أن الرسائل قد مرت على أيدي موظفي البريد وأيدي من أرسلت إليهم، كما أن هناك بصمات أخرى، ولكن لا توجد بصمات تشتّرط فيها جميع الرسائل، مما يظهر أن الشخص الذي كتب الرسائل كان حريصاً على ارتداء القفازات. وقد طبعت العناوين على المغلفات الخارجية بواسطة آلة كاتبة بالية تماماً من نوع «وندسور ٧» يخرج فيها حرف الألف والباء عن الخط المستقيم. ومعظم هذه الرسائل أرسلت من مكتب بريد البلدة أو أنها كانت توضع في صندوق البريد المترولي باليد، ولذلك فمن الواضح أنها من أصل محلّي. وقد كتبها امرأة،

ويرأي أنها امرأة في وسط العمر أو أكبر قليلاً من ذلك، وربما لم تكن متزوجة، رغم أن هذا ليس أكيداً.

ران علينا صمت مطبق بعض الوقت ثم قلت: إن الآلة الكاتبة هي أسهل السبيل لدريك، أليس كذلك؟ يجب أن لا يكون كشفها صعباً في بلدة صغيرة كهذه.

هز غريفز رأسه بحزن وقال: أنت مخطئ في هذا يا سيدى.

قال المفتش ناش: من السهل جداً -سوء الحظ- الوصول إلى الآلة؛ فهي آلة قديمة من مكتب السيد سيمونتن أهدتها لجمعية المرأة، ويمكتني القول إن بإمكان أي امرأة أن يصل إليها هناك، فما أكثر السيدات اللاتي يذهبن إلى الجمعية في هذه البلدة!

- لا يمكنك الجزم بشيء محدد من الـ... من اللمسة الفنية كما تسمونها؟

أومأ غريفز برأسه ثانية وقال: بلى؛ يمكن عمل هذا... ولكن هذه المغلفات طُبعت كلها بواسطة شخص يستخدم أصباغاً واحدة.

- إذن فهو شخص غير معتمد على استخدام الآلة الكاتبة؟

- لا، ما كنت لأقول ذلك. بل لنقل إنه شخص يتقن الطباعة ولكنه لا يريدنا أن نعرف هذه الحقيقة.

قلت بيطء: أياً كان كاتب هذه الرسائل فهو ماكر جداً.

قال غريفز: إنها ماكرة فعلاً يا سيد بيرتن، ماكرة فعلاً... تستخدم كل الحيل الواردة في هذا المجال.

قلت: ما كنت لأظن أن من شأن واحدة من هؤلاء النساء الفلاحات هنا أن تملك هذا الذكاء.

سعل غريفز وقال: أخشى أنني لم أوضح قصدي كما يجب؛ فهذه الرسائل كتبتها امرأة مثقفة.

- ماذا؟ أكتبها «ليدي»؟

خرجت الكلمة من فمي رغمًا عنِي. لم أكن قد استخدمت الكلمة «ليدي» منذ سنوات لكنها صدرت الآن بصورة آلية، وقد عاد صداتها من أيام طويلة مضت تذكرت فيها صوت جدتي الضعيف وهو يقول لي: «إنها بالطبع ليست ليدي يا عزيزي».

فهم ناش ما قصدته على الفور؛ فكلمة «ليدي» ما تزال تعني له شيئاً، ولذلك قال: ليس ضرورياً أن تحمل لقب ليدي، لكنها بالتأكيد ليست امرأة قروية. إنهن أميّات هنا في الغالب ولا يُعرفن التهجئة، ولا يستطيعن -قطعاً- التعبير عن أنفسهن بطلاقه.

كنت صامتاً لأنني صُدمت؛ فالمجتمع هنا كان صغيراً جداً، وكنّت قد تصورت في اللاوعي أن كاتبة الرسائل امرأة مثل السيدة كليت، امرأة مناكفة ماكيرة بنصف عقل.

عبر سيمونغن عن أفكارِي، إذ قال بحدة: وهذا يحصر الأمر بين ست نساء وأثنتي عشرة في القرية كلها!

قال ناش: هذا صحيح.

صاح سيمونغن: لا أستطيع تصديق هذا. ثم قال باذلاً بعض

المجهود وهو ينتظر أمامه مباشرة وكأنه أحسن أن مجرد صوت كلماته كان مُحرجاً: لقد سمعتم ما قلته في التحقيق، ولشن ظنتم أن تلك الشهادة كانت بداعي الرغبة في حماية سمعة زوجتي فإني أود أن أكرر الآن بأنني مقتنع تماماً بأن موضوع الرسالة التي تلقتها زوجتي كان ملفقاً تماماً. إنني أعرف أنه ملفق. كانت زوجتي امرأة حساسة جداً... يمكنكم وصفها بالمبالغة بالخشمة في بعض الجوانب، وكان من شأن مثل هذه الرسالة أن تشكل صدمة كبيرة لها، بالإضافة إلى أنها كانت معتلة الصحة.

كانت استجابة غريفز فورية: هذا هو المرجح يا سيدي... ليس في أيٍ من هذه الرسائل ما يدل على معرفة وثيقة. إنها مجرد اتهامات عمياء، ولا توجد أية محاولة للابتزاز، كما لا يظهر فيها أي تعصب ديني كالذي نشهده أحياناً. إن موضوع الرسائل ينحصر في الجنس والحقد! وسوف يعطينا هذا مؤشراً جيداً باتجاه كاتبها.

نهض سيمونغتن، ورغم ما كان يتصف به الرجل من برود فقد كانت شفتاه ترتجفان. قال: أرجو أن تتمكنوا قريباً من اكتشاف الشيطانة التي كتبت ذلك. لقد قتلت زوجتي كما لو أنها غرست سكيناً في جسدها. لا أدرى ما هو شعورها الآن؟

ثم خرج تاركاً ذلك السؤال دون إجابة.

سألت: ما هو شعورها يا غريفيث؟

بدالي أن الإجابة عن هذا السؤال كانت ضمن دائرة اختصاصه. قال: الله أعلم... ربما كانت نادمة، ولكنها قد تكون أيضاً مستمتعة

بقوتها، وربما كانت وفاة السيدة سيمونفتن قد أشبعـت هوسها.

قلت وأنا أرتعـد: أرجو أن لا تكون كذلك، وإنـا فـإنـا سـ.....

ترددت، فأكمل ناش الجملة عـني: ستـحاول ثـانية؟ سيـكون هـذا
يا سـيد بـيرـتن أـفضل شـيء يـمـكـن أـن يـحـدـث بـالـنـسـبـة لـنـا؛ إـذ لـا تـسـلـمـ
الـجـرـة فيـ كـلـ مـرـةـ.

صـحتـ: ستـكون مـجـنـونـة لـو أـنـهـا واـصـلـت عـمـلـهـا هـذـاـ.

قال غـريفـزـ: سـوـفـ تـواـصـلـ؛ فـهـمـ يـوـاصـلـونـ دـائـمـاـ. إـنـهـا رـذـيـلةـ
لـا يـسـطـيعـونـ تـرـكـهـاـ.

هزـزـتـ رـأـسيـ وـأـنـا أـرـتعـدـ. سـأـلـهـمـ إـنـ كـانـوا بـحـاجـةـ إـلـيـ، فـقـدـ
أـرـدـتـ الـخـرـوجـ إـلـىـ الـهـوـاءـ الطـلـقـ؛ إـذـ بـداـ الـجـوـ مـلـبـداـ بـغـيـومـ الشـرـ.

قال نـاشـ: لـيـسـ مـنـ شـيءـ آـخـرـ يـاـ سـيدـ بـيرـتنـ. كـنـ حـذـراـ فـقـطـ
وـاعـمـ كـلـ مـاـ يـمـكـنـكـ مـنـ دـعـاـيـةـ... أـيـ اـنـصـحـ الـجـمـيـعـ بـأنـ يـلـغـوـنـاـ عـنـ
أـيـةـ رـسـالـةـ يـتـلـقـونـهـاـ.

أـمـأـتـ بـرـأـسيـ وـقـلتـ: أـعـتـقـدـ أـنـ كـلـ مـنـ فـيـ الـقـرـيـةـ قـدـ اـسـتـلـمـ
الـآنـ وـاحـدـةـ مـنـ هـذـهـ الرـسـالـةـ الـقـدـرـةـ.

قال غـريفـزـ وـقـدـ أـمـالـ رـأـسـهـ الـحـزـينـ جـانـبـاـ: تـرىـ، أـلاـ تـعـرـفـ
بـالـتـحـدـيـدـ شـخـصـاـ لـمـ يـتـلـقـ رـسـالـةـ مـنـ هـذـهـ؟

- يـاـ لـهـ مـنـ سـؤـالـ غـرـيبـ! لـاـ يـعـقـلـ أـنـ يـفـضـيـ لـيـ السـكـانـ بـشـكـلـ
عـامـ بـأـسـرـارـهـمـ.

- كلا، كلا يا سيد بيرتن، لم أقصد هذا. لقد تساءلت فقط إن كنت تعرف - تحديداً - أي شخص أنت واثق تماماً أنه لم يتلق رسالة مجهولة.

ترددت وقلت: أنا في الحقيقة أعرف بمعنى ما. ثم كررت حديثي مع إميلي بارتن وما قالته لي.

تلقي غريفز المعلومة بوجه خالٍ من أي تعبير، وقال: حسناً، قد يكون هذا مفيداً. سأسجله.

خرجت مع أوين غريفيث وكانت شمس العصر ساطعة، وفور أن أصبحنا في الشارع قلت بصوت مرتفع: أهذا مكان يأتي إليه الرجل ليستلقي تحت شمسه ويعالج جروحه؟ إنه مليء بالسم القاتل رغم أنه يبدو هادئاً ويرينا كجنة عدن. ثم سالت: قل لي يا غريفيث، هل يعرف الشرطة شيئاً؟ هل لديهم أية فكرة؟

- لا أعرف. إن للشرطة أسلوبها فنياً رائعاً، إنهم - من حيث الظاهر - صريحون جداً، ومع ذلك لا تفهم منهم شيئاً.

- نعم، ناش رجل لطيف.

- وهو رجل كفء أيضاً.

قلت بشيء من الاتهام: إن كان في القرية شخص معتوه فأنت من يجب أن تعرفه.

هز غريفيث رأسه. بدا محبطاً، ولكنه بدا أكثر من ذلك... بدا قلقاً. وتساءلت إن كان لديه شك ما.

كنا نسير في الشارع العام. وقفت عند باب وكلاه البيت الذي نسكنه وقلت: أظن موعد دفع القسط الثاني من الأجرة قد حان، وهو يُدفع مقدماً. إبني أفكرا في دفع القسط والرحيل -أنا وجوانا- مباشرة، وهكذا سأخسر بقية الأجرة.

قال أوين: لا ترحل.

- ولم لا؟

لم يجبني. ولكنه قال ببطء وبعد وقت قصير: أحسبك على صواب في النهاية؛ إن لايمستوك ليست مكاناً صحيحاً في الوقت الحالي. وربما... ربما آذتك أو... أو آذت أختك.

- لا شيء يؤذني جوانا؛ فهي صلبة. أنا الضعيف... إن الأمر يصيّبني بالقرف إلى حد ما.

- إنه يصيّبني أنا بالقرف.

فتحت باب وكلاه البيت وقلت: ولكنني لن أرحل. الفضول البدائي أقوى من الجبن؛ أريد أن أعرف الحل.

ثم دخلت فنهضت امرأة كانت تطبع وجاءت نحوه. كان شعرها مجعداً، وقد ابتسمت ابتسامة متكلفة، ولكني وجدتها أكثر ذكاء من تلك الفتاة ذات النظارة التي كانت تشرف سابقاً على المكتب الخارجي.

بعد دقيقة أو اثنتين طاف بذهني خاطر مألف ب شأن هذه المرأة؛ فقد كانت الآنسة غينش الموظفة التي كانت تعمل سابقاً عند السيد

سيمغتن. علقت على هذه الحقيقة قائلًا: كنت تعملين في مكتب محاماة السيد سيمغتن، أليس كذلك؟

- بلى، بلى. لكنني رأيت أن من الأفضل لي المغادرة. هذه وظيفة جيدة رغم أن راتبها ليس جيداً كثيراً. ولكن ثمة أشياء أكثر قيمة من المال، ألا تعتقد ذلك؟

- دون شك.

همست الآنسة غينش قائلة: تلك الرسائل الفظيعة. تلقيت واحدة منها تتحدث عنى وعن السيد سيمغتن. آه، كانت رهيبة، وتحتوي على كلمات فظيعة جداً! وأنا أعرف واجبي ولذلك أخذتها إلى الشرطة، رغم أن ذلك لم يكن أمراً ساراً بالنسبة لي، أليس كذلك؟

- بلى، بلى. ليس أمراً ساراً أبداً.

- لقد شكروني وقالوا إنني فعلت الصواب، ولكنني قلت لنفسي بعد ذلك: إذا كان الناس يتحدثون بهذا الأمر (وال واضح أنهم كانوا يتحدثون دون شك، وإنما من أين حصل كاتب الرسائل على فكرته تلك؟) فعلي أن أجنب حتى مظاهر الشبهة، رغم عدم وجود أي خطأ في العلاقة بيني وبين السيد سيمغتن.

أحسست بشيء من الحرج وقلت: طبعاً، طبعاً لا يوجد خطأ.

- لكن الناس يفكرون بطريقة سيئة ولهم -للأسف- عقول شريرة!

ورغم أنني حاولت حرجاً تجنب النظر إليها إلا أن عيني قابلتا عينيها واكتشفت اكتشافاً غير ساراً أبداً؛ كانت الآنسة غينيش مستمتعة تماماً بالموضوع! وكان قد سبق لي اليوم أن التقيت بشخص كانت ردود أفعاله إزاء الرسائل المُغفلة من التوقيع تتسم بالاهتمام المستمتع، ذلك هو المفتش غريفز. ولكن حماسة المفتش غريفز كانت حماسة مهنية، أما استمتاع الآنسة غينيش فقد وجدها موحياً ومقرفاً.

وخطرت بذهني المدهوش فكرة سريعة: هل كتبت الآنسة غينيش هذه الرسائل بنفسها؟

* * *

الفصل السابع

حين عدت إلى البيت وجدت السيدة كالثروب جالسة تتحدث مع جوانا، وقد بدت لي شاحبة ومريرة. قالت: كان هذا صدمة عنيفة لي يا سيد بيرتن. مسكينة، مسكينة.

قلت: نعم، من الفظيع التفكير بشخص دفع إلى الانتحار.

- آه، هل تقصد السيدة سيمونغتون؟

- ألم تكوني تقصدينها؟

هزت السيدة كالثروب رأسها بالفهي وقالت: إن المرء يأسف عليها بالطبع، ولكن ذلك كان سيحدث على أية حال، أليس كذلك؟

قالت جوانا ببرود: حقاً؟

التفتت السيدة كالثروب إليها: آه، أظن ذلك يا عزيزتي. إن كنت ترين في الانتحار طريقة للهروب من المتابعب فإن نوعية هذه المتابعب لا تهم كثيراً، فقد كان من شأنها أن تفعل نفس الشيء عندما تحل بها أية صدمة بغية يتوجب عليها مواجهتها. المهم في الأمر

كله هو أنها من هذا النوع من النساء. مع أن المرأة ما كان ليخمن ذلك فيها؛ لقد بدت لي دوماً امرأة أناقية غبية بعض الشيء، مع تمسك قوي بالحياة. ما كان المرأة ليخمن أنها من النوع الذي يشله الذعر والخوف... ولكنني بدأت أدرك قلة معرفتي بالناس.

- ما زلتأشعر بالفضول لمعرفة من كنت تعنين بقولك
«مسكينة».

نظرت إليّ وقالت: المرأة التي كتبت الرسائل بالطبع.

قلت بجفاء: لا أظنني أشعر بأي تعاطف معها.

مالت السيدة كالثروب إلى الأمام، ووضعت يدها على ركبتي وقالت: ولكن ألا تدرك... أليس بوسعك الشعور؟ استخدم خيالك... فكر في مدى التعasse واليأس المطبق اللذين يدفعان شخصاً للجلوس وكتابة هذه الأشياء. كيف يعاني مثل هذا الشخص من الوحدة والقطيعة التامة مع عالم البشر... يكون السم قد بلغ أعمق أعمقه، ولم يجد ذلك السم مخرجاً إلّا بهذه الطريقة! لذلك أشعر بشيء من تأنيب الذات. لقد عانى أحد أهالي هذه البلدة من بؤس شديد ولم أعرف عن ذلك شيئاً... كان يجب أن أعرف. لا يمكن للمرء أن يتدخل بإجراءات عملية... أنا لا أفعل هذا أبداً، ولكن ذلك البؤس الداخلي الأسود أشبه بذراع التهبيت وتورمت حتى غدت سوداء متتفحة، ولو استطاع المرء إجراء فتحة فيها لكان ممكناً أن يخرج السم دون أذى. نعم، إنها مسكينة، مسكينة.

ثم نهضت لكي تذهب. ولم أشعر بأنني أتفق معها بالرأي؛

فلم أكن لأحس بأي تعاطف كان مع كاتبة هذه الرسائل المجهولة، ولكنني سألتها بفضول: هل لديك أية فكرة يا سيدة كالثروب عن هوية تلك المرأة؟

الفتت إلي بعينيها الصغيرتين المحائرتين وقالت: أستطيع أن أخمن. ولكن قد أكون مخطئة، أليس كذلك؟ ثم خرجت مسرعة من الباب قبل أن تطلّ منه ثانية لتسأل: قل لي يا سيد بيرتن، لماذا لم تتزوج؟

لو كان السائل أحداً غير السيدة كالثروب لكان سؤاله وفاحه، أما في حالتها فإن المرء يشعر أن هذه الفكرة قد خطرت لها فجأة وأرادت فعلًا أن تعرف.

قلت وأنا أستجمع شتات نفسي: لنقل إنني لم ألتقي بالمرأة المناسبة؟

- يمكننا قول ذلك، ولكنه لن يكون ردًا جيداً، لأن كثيراً من الرجال تزوجوا نساء غير مناسبات.

ثم غادرت هذه المرة بالفعل، فقالت جوانا: أظن حقاً أنها مجنونة، ولكنني أحبها. أهل القرية هنا يخافونها.

- وكذلك أنا، قليلاً.

- ألانك لا تعرف ما هو تصرفها القادر؟

- نعم، كما أأن في تخميناتها ذكاءً لا مبالياً.

قالت جوانا: أتظن حقاً أن من كتب تلك الرسائل بائس جداً؟

- لا أعرف ما الذي تفكّر فيه أو تشعر به تلك اليد الأثمة، كما أني لا أهتم لذلك. إن ضحاياها هم الذين آسف عليهم.

يبدو لي غريباً الآن أننا - في تأمّلاتنا للعقلية التي تقف خلف ذلك القلم المسموم - أغفلنا أكثر التفسيرات وضوحاً. فقد صورها غريفيث على أنها ربما كانت مبتهجة جذلّى بما تفعله، أمّا أنا فقد تصورتها امرأة يمزقها الندم وقد هالها ما جنته يداها، في حين رأت فيها السيدة كالثروب امرأة تعاني. ومع ذلك فتعن لم تفكّر في ردّ الفعل الواضح والحتمي... أو ربما لم تفكّر أنا فيه. وردّ الفعل ذاك هو الخوف؛ لأن الرسائل انتقلت - مع وفاة السيدة سيمونغتن - لتدخل ضمن تصنيف جديد. لا أدرى كيف كان الوضع القانوني، وأظن أن سيمونغتن يعرف ذلك، ولكن من الواضح أنّ وقوع وفاة نتيجة لهذا الفعل قد جعل موقف كاتب الرسائل أكثر خطورة من قبل؛ فلم يعد ممكناً تمرير هذه الرسائل على أنها مجرد مزاح إذا ما اكتُشفت هوية الفاعل. وقد نشط الشرطة، وتم استدعاء خبير من شرطة سكوتلانديارد؛ وبهذا أصبح من الحيوي الآن للكاتب المجهول أن يبقى مجهولاً.

وإذا ما سلّمنا أن الخوف هو ردّ الفعل الأساسي، فإن ذلك يستبع أموراً أخرى. وقد كنت غافلاً تماماً عن تلك الاحتمالات أيضاً، رغم أنها كان يجب أن تكون واضحة.

* * *

نزلنا - أنا وجوانا - لتناول الإفطار صباح اليوم التالي في ساعة متأخرة؛ أعني وفق عادات قرية لا يمستوك، فقد كانت الساعة التاسعة والنصف، وهي ساعة كانت جوانا فيها - وهي في لندن - توشك أن تفتح عينيها، وربما كانت عيناي أنا أيضاً ما تزالان فيها مغمضتين. ومع ذلك عندما سألتنا بارتريدج: "أتريدان الإفطار الساعة الثامنة والنصف، أم الساعة التاسعة؟" لم تكن لدى أيٌّ منا الجرأة لاقتراح موعد متأخر أكثر من ذلك.

وقد أزعجتني رؤية إيمى غريفيث تقف على عتبة الباب تتحدث مع ميغان. وعندما رأينا أطلقت العنان للسانها بحيويتها المعتادة: مرحباً أيها الكسالى ! إنني مستيقظة منذ ساعات.

كان ذلك بالطبع هو شأنها الخاص. لا شك أن على الطبيب أن يتناول إفطاره مبكراً، وعلى أخته - إذا ما أرادت القيام بواجبها - أن تصب له الشاي أو القهوة. ولكن هذا لا يبرر لها أن تأتي وتتدخل في نوم جiran أكثر ميلاً للنوم، فالنinth والتاسعة والنصف ليست موعداً لزيارات الصباح.

انسلت ميغان إلى داخل البيت ثم إلى غرفة الطعام لتعود إلى إفطارها الذي أحسب أن إيمى قد قطعته عليها. قالت إيمى غريفيث: لقد قلت إنني لن أدخل.

قالتـها رغم أنـي لا أعرف لماذا يُعـد إـجبارـ أـهلـ الـبيـتـ علىـ المـجيـءـ للـتحـدـثـ عندـ عـتبـةـ الـبابـ مـسـأـلـةـ الـطـفـ وأـقـلـ كـلـفـةـ مـنـ الـحـدـيـثـ دـاـخـلـ الـبـيـتـ. ثـمـ أـضـافـتـ: أـرـدـتـ فـقـطـ سـؤـالـ الـآـسـةـ بـيرـتـنـ إنـ كانـ لـدـيـكـمـ أـيـةـ خـضـارـ فـائـضـةـ عـنـ الـحـاجـةـ لـنـصـعـهـاـ فـيـ الـكـشـكـ

التابع للصلب الأحمر على الشارع العام ونبيعها للأغراض الخيرية.
إن كان عندكم فسوف أطلب من أوين أن يمر لأنخذ الخضار معه
في السيارة.

قلت: أنت تمارسين أنشطتك في وقت مبكر جداً.

- لا يفوز بالأمور إلا المبكرون. الفرصة أفضل للعثور على
الناس في هذا الوقت من الصباح... سأذهب الآن إلى منزل السيد
باي، ثم على الذهاب إلى بريتن عصراً من أجل الكشافة.

قلت: إن حيويتك تُشعرني بمدى تعبي.

وفي تلك اللحظة رن جرس الهاتف، فعدت إلى الصالة للرد
عليه تاركاً جوانا تتمم بارتياح عن الفاصلوليا الفرنسية وغير ذلك من
الخضار، كاشفة عن جهلها في هذا الموضوع.

قلت بعد أن رفعت سماعة الهاتف: نعم.

سمعت على الطرف الآخر صوتاً لاهثاً مرتبكاً، ثم قال صوت
أنثوي مرتباً: آه!

كررت القول على سبيل التشجيع: نعم؟

قال الصوت ذو الخنة مرة أخرى: "آه!"، ثم سأل: هل هذا...
أقصد... لهذا منزل ليتل فيرز؟

- نعم، لهذا ليتل فيرز.

- آه!

بدا واضحاً أن هذه «الآه» كانت لازمة البدء في كل جملة. سأله الصوت بحذر: أيمكنني التحدث مع الآنسة بارترidding؟

- بالتأكيد. أقول لها من؟

- آه، أخبرها أنتي أغليس... أغليس وُدل.

- أغليس وُدل؟

- تماماً.

وضعت السماuga مقاوماً إغراءً يدفعني لأن أسألهـا: "ماذا يقربك بطوط؟"، وناديت باتجاه الطابق العلوي حيث كنت أسمع صوت بارترidding وهي تؤدي عملها: بارترidding... بارترidding.

ظهرت بارترidding عند أعلى الدرج حاملة ممسحة طويلة بيدها وخلف سلوكها المؤدب دائمـاً نظرةً كأنها تقول: "ما الأمر هذه المرة؟"، ولكنها قالت: نعم يا سيدي؟

- أغليس وُدل تريدك على الهاتف.

- ماذا يا سيدي؟

رفعت صوتي قائلاً: أغليس وُدل.

- أغليس وُدل... ماذا عساها تريد الآن؟

ألقت بارترidding بمساحتها وقد تغيرت ساحتها كثيرـاً، وأسرعت تنزل الدرج بكثير من الانفعال، أما أنا فعدت إلى غرفة الطعام دون تعطـل حيث كانت ميغان تأكل اللحم بهمـ. وخلافاً لإيمـي غريفـيث

لم تكن ميغان تُبدي وجهاً صبوحاً متفاولاً، والحقيقة أنها ردت على تحية الصباح بفظاظة وأكملت أكلها بصمت.

فتحت صحيفة الصباح وبعد دقائق دخلت جوانا وهي تبدو مرهقة وقالت: ووه! إنني متعبة جداً، وأظنني كشفت عن جهلي الكامل بالخضار ومواعيد زراعتها. ألا توجد فاصلية في هذا الوقت من العام؟

قالت ميغان: الفاصلية في شهر آب.

ردت جوانا مدافعة: إننا نحصل عليها في لندن في أي وقت.

قلت: تلك فاصلية معلبة يا مغفلتي الجميلة، وتكون مبردة ومخزنة على السفن وتأتي من الأطراف البعيدة للدنيا.

قالت جوانا: مثل العاج والقردة والطواويس؟

- بالضبط.

قالت جوانا متأملة: أحب أن يكون لدى طاووس.

قالت ميغان: أما أنا فأفضل اقتناء قرد خاص لتربيته.

قالت جوانا وهي تقشر برتقالة وتأمل: ترى كيف يكون شعوري لو كنت إيمي غريفيث، بكل تلك القوة والحيوية والتمتع بالحياة. أظنها تشعر قط بالتعب أو الحزن أو الاكتئاب؟

قلت لها إنني متأكد تماماً من أن إيمي غريفيث لم تكتب أبداً، ثم تبعت ميغان إلى الشرفة خارج الغرفة. وحين وقفت هناك

أملاً غليوني سمعت بارترidding وهي تدخل غرفة الطعام من الصالة وسمعتها وهي تقول متوجهة: هل يمكنني الحديث معك لحظة يا سيدتي؟

وفكرت في نفسي قائلاً: يا إلهي، أرجو أن لا تكون بارترidding بقصد إشعارنا بتركها العمل، لأن إميلي بارثون ستزعج متأثراً إذا حدث ذلك.

أكملت بارترidding: أريد الاعتذار يا سيدتي لأن واحدة اتصلت بي هاتفياً. ما كان ينبغي ل الفتاة التي خبرتني أن تفعل ذلك؟ فأنا لم أعتد أبداً استخدام الهاتف أو السماح لأصدقائي بياز عاج ساكني البيت به، وإنني آسفة فعلاً لحدوث ذلك، ولاضطرار سيدتي للرد على الهاتف وغير ذلك.

قالت جوانا مهدئة: لا بأس بذلك يا بارترidding، لم لا يستخدم أصدقاءك الهاتف إن كانوا يريدون الحديث معك؟

كان بوسعي أنأشعر - رغم أنني لا أرى الحدث - بأن وجه بارترidding غداً أكثر صرامة من قبل وهي تجيب ببرود: إن هذا الأمر لم يحدث معي في هذا البيت أبداً. ما كانت الآنسة إميلي لتسمح بذلك أبداً، وكما قلت فإني آسفة لحدوث ذلك. لكن أغنيس وُدل (وهي الفتاة التي خبرتني) كانت متزعجة، وهي صغيرة أيضاً، ولا تعرف ما هي الأصول في بيوت المحترمين.

فكرت في نفسي فرحاً: هذه واحدة عليك يا جوانا.

أكملت بارترidding: إن أغنيس هذه التي خبرتني كانت تعمل

معي هنا تحت إمرتي. وكانت يومها في السادسة عشرة من عمرها، وقد جاءت من ملجاً الأيتام مباشرة. ولم يكن لها منزل أو أم أو أي أقارب لتقديم النصيحة لها، ولذلك فقد اعتادت أن تأتيني، حيث أقدم لها النصيحة.

قالت جوانا: "نعم؟"، ثم انتظرت. وبذا واضحًا أن القادم من الكلام أكثر مما مضى منه.

- ولذلك فإنني أتجرأ يا سيدتي وأطلب منك السماح لأغنيس بالمجيء إلى هنا لشرب الشاي معي مساء هذا اليوم في المطبخ؛ إنه يوم عطلتها ولديها شيء تريد استشارتي بشأنه. ما كنت لأفكر في مثل هذا الطلب في الحالات المعتادة.

قالت جوانا متحيرة: ولماذا لا يأتي أحد لشرب الشاي معك؟

انتصبت بارتريدج في وقوتها عند هذا السؤال - وهو ما قالت جوانا فيما بعد - وبدت مرعوبة وهي ترد: لم يكن هذا من عادة هذا البيت أبداً. لم تكن السيدة بارتن العجوز تسمح للزوار أبداً بدخول المطبخ، إلا إذا كان ذلك في يوم عطلتنا، حيث كانت تسمح لنا باستقبال الصديقات بدلاً من الخروج. ولكن فيما عدا ذلك وفي الأيام العادية لم تكن تسمح، وقد استمرت الآنسة إميلي على نفس النهج القديم.

إن جوانا لطيفة جداً مع الخدم، وكان معظمهم يحبها، ولكنها لم تستطع استمالة بارتريدج أبداً. قلت لها عندما خرجمت بارتريدج وانضمت جوانا إلى على الشرفة: لا فائدة من ذلك يا عزيزتي؛ إن

تعاطفك وتساهمك ليسا موضع تقدير. يجب اتباع العادات القديمة المتغطرسة مع بارترidding والإبقاء على طريقة تسيير الأمور كما ينبغي في بيوت الناس المحترمين.

قالت جوانا: لم أسمع عن مثل هذا الاستبداد في عدم السماح لهم برؤية أصدقائهم. إنني أفهم كل شيء يا جيري، ولكن لا يمكن أن يجحوا معاملتهم كما يُعامل العبيد السود.

- واضح أنهم يحبون ذلك. على الأقل أمثال بارترidding في هذا العالم.

- لا أستطيع تصور سبب عدم حبها لي. معظم الناس يحبونني.

- ربما كرهتك لأنك لست ربة بيت قديرة. أنت لم تمرري أصبعك أبداً على أحد الرفوف لتفحصي إن كان عليه غبار أم لا. إنك لا تنظررين إلى ما تحت السجاد، ولا تسألين ما الذي حدث لبقايا كعكة الشوكولاتة، كما أنك لا تطلبين أبداً فطائر الخبز الشهية.

تأففت جوانا ثم أكملت بحزن: إنني فاشلة في كل شيء هذا اليوم. ازدرتني أبيمي لجهلي في مملكة الخضار، ووبيختني بارترidding لأنني إنسانة. سأخرج الآن إلى الحديقة لأكل الديدان!

- لقد سبقتك ميغان إلى هناك.

ذلك أن ميغان كانت قد تجولت في الخارج قبل ذلك ببعض دقائق، وعادت الآن لتقف دون هدف في وسط المرجة كطائير متأمل

يتنظر طعامه. ومع ذلك عادت إلينا وقالت فجأة: يجب أن أعود إلى البيت اليوم.

فوجئتُ وقلت: لماذا؟

أكملت وقد احمر وجهها ولكن بتصميم مرتكب: كانت استضافتكم لي هنا موقفاً رائعاً منكم، وأظن أنني أزعجتكم تماماً، ولكنني استمتعت برفقتكم كثيراً. ولا بد لي من العودة الآن إلى بيتي لأنه بيتي رغم كل شيء ولا يستطيع المرء البقاء بعيداً عن بيته إلى الأبد، ولذلك أظن أنني سأذهب هذا الصباح.

حاولت -أنا وجوانا- إقناعها بالعدول عن قرارها، ولكنها كانت مصممة تماماً، وفي نهاية الأمر أخرجت جوانا السيارة من المرآب وصعدت ميغان إلى الدور العلوي ثم نزلت بعد دقائق وقد حزمت أمتعتها من جديد. وبدا أن الشخص الوحيد الذي سرّه رحيلها هو بارتریدج التي كادت أن ترسم ابتسامة على وجهها المتوجه؛ فهي لم تحب ميغان كثيراً.

كنت أقف في وسط المरجة عندما عادت جوانا. وعندما رأت وقتي تلك سألتني إن كنت أظن نفسي ساعة شمسية أو مزولة. قلت: لماذا؟

- تقف هناك كتمثال حديقة، إلا أننا لا نستطيع وضع شيء عليك يحدد الساعات الشمسية. كنت تبدو مثل الرعد!

- أنا متعرّك المزاج؛ بدأت صباحي -أولاً- بـيامي غريفيث..

تمتّت جوانا بجملة معتبرة قائلة: يا إلهي! أكان لزاماً على
أن أتحدث عن تلك الخضار!

أكملت أنا حديثي قائلاً: ثم جاء خروج ميغان. لقد فكرت في
أخذها في نزهة على الأقدام إلى لينغ تور.

- وأحسب أنك كنت ستأخذ معك طوق الكلب ورسنه؟
- ماذا؟

كررت جوانا كلامها بصوت مرتفع وواضح وهي ذاهبة إلى
حديقة المطبخ: قلت: مع طوق الكلب ورسنه! لقد فقد السيد كلبه،
هذه هي مشكلتك الآن!

* * *

أعترف بأنني انزعجت من الطريقة الفجائية التي غادرتنا بها
ميغان. ربما مللت منها فجأة؛ فالحياة معنا لم تكن -في نهاية الأمر-
حياة مسلية لفتاة مثلها. وسمعت جوانا تعود فتحركت بسرعة بعيداً
حتى لا أسمع منها مزيداً من الملاحظات الوجهة عن الساعات
الشمسية.

جاء أوين غريفيث في سيارته قبل موعد الغداء بقليل ، وكان
البستاني يتظره ومعه منتجات الحديقة الالازمة. وبينما كان البستاني
آدمز يضع الخضار في السيارة دعوْتُ أوين إلى البيت لتناول عصير ،
ولم يقبل البقاء لتناول الغداء.

عندما جئت حاملاً العصير وجدت جوانا وقد بدأت تؤدي عملها. لم تكن ثمة مؤشرات لعداء الآن؛ كانت قد كرمت نفسها في زاوية الأريكة باطمئنان وراح تطرح على أوبين أسئلة عن عمله وإن كان يحبه كطبيب عام، وما إذا كان من الأفضل له لو تخصص في حقل معين. وسمعتها تعبر عن رأيها بأن عمل الطبيب هو أحد أروع الأشياء في الدنيا.

وكائناً ما كانت الملاحظات على جوانا فإنها تبقى مستمرة رائعة. وبعد إصغائهما للكثير الكثير من العباءة الواudين وهم يخبرونها كيف لم ينالوا التقدير المطلوب، فإن استماعها إلى أوبين غريفيث كان أمراً سهلاً. وهو -بدوره- انطلق مسترسلًا يحدثها عن بعض الآفات الجسدية أو ردود الأفعال المرضية مستخدماً عبارات علمية متخصصة لا يستطيع فهمها إلا طبيب.

بدت جوانا مهتمة جداً، وأحسستُ -لحظة- بغضبة تأنيب للضمير. كان ذلك تصرفًا سيئاً جداً من جوانا؛ فغريفيث أطيب من أن يُعبّث به على هذا النحو. إن النساء لذوات كيد عظيم!

ثم نظرت إلى غريفيث بطرف عيني، بذقه الطويل المحدد ووضع شفتيه المتوجه، ولم أعد متأكداً كثيراً من أن جوانا ستتجح فيما تريده في نهاية الأمر. وعلى أية حال فلا ينبغي للرجل أن يضع نفسه موضع سخرية المرأة، ولو فعل لكان ذلك شأنه وحده.

قالت جوانا: أرجو أن تغير رأيك وتبقى معنا على الغداء يا دكتور غريفيث.

واحمر وجه غريفيث قليلاً وقال إنه كان ليقى لولا أن أخته تنتظر عودته، فقالت جوانا بسرعة: ستتصل بها هاتفياً ونشرح لها الأمر.

ذهبت إلى الصالة لتتصل بالهاتف، وأظن أن غريفيث بدا مضطرباً بعض الشيء، وقد خطر بيالي أنه ربما كان خائفاً قليلاً من أخته. وما لبثت جوانا أن عادت وهي تبتسم وقالت إنها قد سوت المسألة، وبقي أوين غريفيث حتى الغداء وبدأ مستمتعاً. تحدثنا عن القصص والمسرحيات وعن السياسة الدولية والموسيقى والرسم والعمارة الحديثة.

لم نتحدث عن لايمستوك على الإطلاق، ولا عن الرسائل المجهولة أو عن اتحار السيدة سيمونتن. تجنبنا كل شيء تماماً وأعتقد أن أوين غريفيث كان سعيداً؛ فقد أشرق وجهه الأسمراً الحزين، وأظهر عقلية تثير الإهتمام. وعندما غادرنا قلت لجوانا: هذا الرجل أفضل من أن يجعليه هدفاً للأعيك.

قالت جوانا: هذارأيك. أنتم عشر الرجال تدافعون بعضكم عن بعض !

- لماذا كنت تسعين لاصطياده يا جوانا؟ أهي الخيال المجرورة؟

- ربما.

* * *

كان مقرراً أن نذهب عصر ذلك اليوم لتناول الشاي مع الآنسة إميلي بارتن في شقتها في القرية.

ذهبنا إلى هناك مشياً على الأقدام، فقد شعرت الآن بالقدرة على تسلق الهضبة عند العودة. وبيدو أنتا وضعنا لطريقنا وقتاً أطول مما ينبغي، فوصلنا في وقت مبكر. فقد فتحت لنا الباب امرأة طويلة القامة بارزة العظام قاسية المظهر، وأخبرتنا بأن الآنسة بارتن لم تصل بعد، وقالت: ولكنني أعرف أنها تنتظركم، ولذلك أرجو أن تفضلوا بالدخول.

كان واضحاً أن هذه هي فلورنس المخلصة. تبعناها إلى الطابق العلوي وفتحت باب إحدى الغرف وأشارت إلينا بالدخول إلى غرفة جلوس كانت تبدو مريحة رغم كثرة أثاثها. وشككت بأن بعضها من هذا الأثاث قد أخذته معها من ليتل فريز.

بدت المرأة فخورة بغرفتها، فقد سألت: أليست غرفة جميلة؟

قالت جوانا بحماسة: جميلة جداً.

- أنا أحرص على راحة الآنسة بارتن قد استطاعتي، رغم أنني لا أستطيع أن أخدمها كما أحب وبالطريقة التي يجب أن تكون. كان يجب أن تبقى في بيتها ولا تتركه لتعيش في شقة.

نقلت فلورنس - وقد بدت مثل تين - بصرها بيني وبين جوانا بنظرة توبخ. وأحسست بأن اليوم لم يكن يوم سعدنا؛ فقد وبخت إيمي غريفيث شقيقتي جوانا ووبختها أيضاً بارتريدج وها هي فلورنس

الذين تويخنا نحن الآتين. وأضافت تقول: عملت خادمة استقبال طيلة خمس عشرة سنة هناك.

قالت جوانا بداعم من الإحساس بالظلم: لقد أرادت الآنسة بارثُن تأجير البيت، وأدرجهت للإيجار عند الوكلاء.

ردت فلورنس: كانت مجبرة على ذلك. وهي تعيش حياة مقتضدة جداً، ولكن حتى مع ذلك فإن الحكومة لا يمكن أن تتركها وشأنها! إنها مضطربة للبقاء على وضعها المعيشي كما هو.

هزت رأسي بحزن، فأكملت فلورنس: كانت توجد أموال كثيرة في زمن السيدة العجوز. ثم ماتت هي وماتت بناتها الواحدة بعد الأخرى.. المسكنات. كانت الآنسة إميلي تقوم على تمريرهم واحدة بعد الأخرى. لقد أرهقت نفسها وكانت صبوره ولا تندمر. ولكن ذلك أثر عليها، ثم بعد ذلك كله تأتي لتقلق على موضوع المال! تقول إن الأسهم لا تعطيها عائدأً كما كانت من قبل، لماذا لا تعطي مثل هذا العائد؟ هذا ما أود معرفته. كان يجب أن يخجلوا من أنفسهم؛ إنهم يخدعون سيدة في مكانتها لا تعرف شيئاً عن عالم الأرقام ولا تستطيع مواجهة ألاعيبهم.

قلت: الواقع أن الجميع تأثروا من ذلك.

ولكن فلورنس بقيت مصممة، وقالت: لا بأس بذلك بالنسبة لبعض الناس الذين يستطيعون العناية بأنفسهم، ولكن ليس بالنسبة لها. إنها تحتاج إلى رعاية، وما دامت معي فلن أسمح لأحد بأن يؤذيها أو يزعجها. إنني مستعدة لفعل أي شيء من أجل الآنسة إميلي.

غادرت فلورنس الصلبة الغرفة بعدها حملقت فينا لبعض لحظات لتأكد من أنها أفهمتنا هذه النقطة بوضوح، وأغلقت الباب وراءها بحذر.

سألتني جوانا: هل تشعر أنك مصاص دماء يا جيري؟ لعلني أنا أحسّ بذلك بعدها سمعت ما سمعت. ما الذي يجري لنا؟

- لا يبدو أننا نلقى قبولاً حسناً؛ لقد سئمت ميغان مثنا، وبارتريدج مستاءة منه، وفلورنس المخلصة مستاءة مثنا كلينا.

تمتمت جوانا: إنني أتساءل لماذا غادرت ميغان؟

- لقد سئمت.

- لا أظن هذا صحيحاً. أكان ذلك بسبب شيء قالته إيمي غريفيث؟

- تقصدين هذا الصباح عندما كانتا تتحدثان على عتبة الباب؟

- نعم، لم يكن لديها وقت كاف بالطبع، ولكن...

أكملت الجملة: ولكن وطأة تلك المرأة أثقل من وطأة الفيل！ ربما قالت لها شيئاً...

. فُتح الباب ودخلت الآنسة إميلي. كانت متوردة الخدين ولا همة بعض الشيء، وبدا عليها الانفعال، وكانت عيناهما تلمعان بزرقة شديدة. تمتمت بتحيتها وكأنها شاردة الذهن وقالت: آه، يا عزيزتي، أنا آسفة جداً لتأخري. كنت أقوم بالتسوق في البلدة ولم يكن الكعك في محل بلو روز طازجاً ولذلك ذهبت إلى محل السيدة ليغون. إنني

أحب - دائمًا - أن يكون الكعك آخر ما أشتريه حتى أحصل عليه طازجاً من الفرن مباشرة وليس بارداً من الأمس. أنا حزينة لترككما تتضرران؛ أمر لا يُغفر...

تدخلت جوانا: إنها غلطتنا يا آنسة بارتن، فقد جتنا مبكرتين؛ جيري أصبح سريعاً في مشيه بحيث نصل إلى وجهتنا بأسرع مما نظن.

- أنت لم تبكري كثيراً يا عزيزتي. لا تقولي هذا، فالمرء لا يكاد يحس بانقضاض الأوقات الجميلة.

ثم ربت السيدة العجوز على كتف جوانا بحنان. تهلل وجه جوانا؛ إذ بدا أخيراً أنها قد حققت نجاحاً. نشرت إميلي بارتن ابتسامتها لتشملني ولكن بشيء طفيف من الخنوع كما يقترب أمرؤ من نمر مفترس ضمئن للحظات أن لا يؤذيه. قالت: جميل منك أن تأتي لمناسبة نسوية كشرب الشاي.

أظن أن الصورة الذهنية عن الرجال لدى إميلي بارتن كانت ترسمهم كأناس منهمكين دوماً في استهلاك كميات ضخمة من لفائف التبغ، وفي أثناء الاستراحات يخرجون لإغواء فتيات القرية.

وبعد بضمِّ دقائق فتح الباب ودخلت فلورنس تحمل صينية الشاي وعليها بعض الفناجين الفاخرة التي أظن أن الآنسة إميلي قد أحضرتها معها من البيت. كان الشاي صينياً وكانت هناك أطباق عليها الشطائر والخبز الرقيق والزبدة وكمية من الكعك. والآن أشرق وجه فلورنس وأخذت تنظر إلى الآنسة إميلي بفرح أمٌّ تنظر إلى طفلها المدلل وهو يستمتع باللعب بدميته.

أكلنا أنا وجوانا أكثر بكثير مما كنا نريد، وذلك تحت ضغط وإصرار مضيقتنا. وبدا واضحًا أن المرأة تستمتع بحفل الشاي هذا، وأدركت أن إميلي بارتن تنظر إلى علاقتها معنا -نحن الاثنين- كمغامرة مثيرة مع اثنين جاءاء من عالم لندن الغامض والمتظور.

وكان طبيعياً أن يتحول حديثنا بسرعة إلى المواضيع المحلية. تحدثت الآنسة بارتن عن الدكتور غريفيث بحرارة، مشيدة بطفه وذكائه كطبيب. وأشارت أيضاً بالسيد سيمونغتون كمحام ذكي جداً ساعدها في أن تستعيد من ضريبة الدخل بعض الأموال التي ما كان لها أن تعرف بها لولاها. وقالت إنه كان لطيفاً جداً مع أطفاله مخلصاً لهم ولزوجته... ثم سارعت لستدرك قائلة: مسكينة السيدة سيمونغتون، أمر محزن جداً بقاء هؤلاء الأطفال دون أم. ربما لم تكن امرأة قوية أبداً... كما أن صحتها ساءت أخيراً؛ لا بد أنها كانت نوبة عصبية. قرأت عن مثل هذه الأشياء في الصحف. الناس لا يدركون أبعد تصرفاتهم في مثل هذه الظروف، ولعلها لم تفك في فيما أقدمت عليه، وإنما كانت تذكرت السيد سيمونغتون والأطفال.

قالت جوانا: لا بد أن تلك الرسالة المجهولة قد هزتها كثيراً.

احمر وجه الآنسة بارتن. قالت ونبرة طفيفة من التأنيب في صوتها: ليس هذا بالموضع الجميل للمناقشة، أليس كذلك يا عزيزتي؟ أعرف ما تم تداوله من... من رسائل، ولكننا لن نتحدث عنها، فهي كريهة. أظن أن من الأفضل تجاهلها.

قد تكون الآنسة بارتن قادرة على تجاهل هذه الرسائل لكن

ذلك لم يكن سهلاً على بعض الناس. ومع ذلك فقد غيرت موضوع الحديث طائعاً وتناقشنا حول إيمي غريفيث.

قالت إميلي بارتن: إنها رائعة، رائعة تماماً. طاقتها وقدراتها التنظيمية رائعة حقاً، كما أنها لطيفة جداً مع الفتيات، وهي فتاة عملية وعصيرية في كل شيء. إنها حقاً تدير هذا المكان، كما إنها مخلصة لأخيها. جميل جداً أن نرى مثل هذا الإخلاص بين الإخوة.

سألتها جوانا: ألا يجد فيها أبداً شيئاً من السيطرة؟

نظرت إميلي بارتن إليها وقد أجهلها السؤال وقالت بشيء من التأنيب والإباء: لقد ضحت كثيراً من أجله.

رأيت في عيني جوانا ما يوشك أن يكون صيحة انتصار ساخرة، ولذلك أسرعت في تحويل النقاش إلى السيد باي. كانت إميلي بارتن متربدة مرتابة قليلاً في حديثها عن السيد باي، وكل ما استطاعت قوله وإعادته بشيء من الارتياح هو أنه رجل لطيف جداً... نعم، لطيف جداً. كما أنه غني جداً، وكريم جداً. يزوره أحياناً أشخاص غرباء جداً، ولكن لا غرابة في ذلك فقد سبق له أن سافر كثيراً.

اتفقنا على أن السفر لا يوسع المدارك فحسب، بل يقود المرء إلى صداقات غريبة أيضاً. قالت إميلي بارتن باكتشاف: كنت أتمنى دائماً أن أخرج في رحلة بحرية، فالمرء يقرأ عنها في الصحف وتبدو رائعة جداً.

سألتها جوانا: لماذا لا تسافرين؟

بدا أن تحويل هذا الحلم إلى حقيقة قد أثار الذعر لدى الآنسة إميلي، إذ قالت: آه، كلا، سيكون ذلك مستحيلًا تماماً.

- ولكن لماذا؟ إنها رحلات رخيصة تماماً.

- ليس السبب هو التكاليف فقط، ولكنني لا أحب الذهاب وحدي. إن سفر المرء وحيداً سيبدو أمراً غريباً، أليس كذلك؟

قالت جوانا: لا أظن.

نظرت الآنسة إميلي إليها بارتياح ثم قالت: كما أنتي لا تعرف كيف سأتصرف بأمتعتي... والتزول أيضاً في موانئ أجنبية... وكل تلك العملات المختلفة...

ويبدو أن عدداً لا يحصى من العقبات قد ظهرت أمام العينين الخائفتين للسيدة العجوز، ولذلك أسرعت جوانا لتهديتها بسؤالها عن المهرجان الزراعي القريب ومبيعات الأشغال. وقد قادنا هذا الأمر -بشكل طبيعي - إلى الحديث عن السيدة كالثروب.

ظهر على وجه الآنسة بارتن -للحظة - شيء من التشنج الذي لا يكاد يلحظ وقالت: إنها يا عزيزتي امرأة شديدة الغرابة، بما تقوله من أشياء أحياناً.

سألتها عن تلك الأشياء فقالت: آه، لا أعرف. أشياء غير متوقعة أبداً. والطريقة التي تنظر بها إليك، كما لو لم تكن أنت الموجود هناك بل شخص آخر... إنني لا أعتبر عن هذا الأمر بشكل جيد، ومن الصعب جداً التعبير عن الانطباع الذي أقصده. ثم إنها لا تقبل... لا تقبل التدخل إطلاقاً. يوجد الكثير من القضايا التي

يمكن لزوجة الكاهن أن تقدم فيها المشورة... وربما التحذير. أعني توبيخ الناس وجعلهم يصلحون سلوكهم. الناس سيصيغون إليها، أنا واثقة من ذلك؛ فهم جميعاً يخافون منها. لكنها تصر على أن تكون بعيدة محايدة، ولديها عادة غريبة في الشعور بالأسف على أناس لا يستحقون أي أسف.

قلت وأنا أنظر إلى جوانا نظرة سريعة: هذا مثير جداً.

- ومع ذلك فهي امرأة كريمة الأصل. كانت من عائلة فارورواي من بيلبات، وهي عائلة عريقة، ولكنني أظن أن هذه العائلات العريقة تكون غريبة للأطوار أحياناً. لكنها مخلصة لزوجها ذي العقل المثقب جداً... وأشعر أحياناً بأن عقله ضائع في محيط ريفي كهذا. رجل طيب، ومخلص جداً، ولكنني أجده عادته في الاستشهاد بنصوص لاتينية مربكة بعض الشيء.

قلت متھمساً: نعم، نعم.

قالت جوانا: تلقى جيري تعليمه في مدرسة حكومية باهظة التكاليف، ولذلك فهو لا يعرف اللاتينية.

أدى هذا بالآنسة بارتن إلى الدخول في موضوع جديد، إذ قالت: مدیرة المدرسة هنا شابة كريهة جداً... أخشى أنها شيوعية تماماً. (وقد خفضت صوتها عندما لفظت الكلمة «شيوعية»).

بعد ذلك قالت جوانا ونحن نصعد التلة إلى البيت: إنها لطيفة.

* * *

عند العشاء في تلك الليلة قالت جوانا لبارتريديج إنها ترجو أن تكون حفلة الشاي التي عملتها ناجحة.

احمر وجه بارتريديج وتصلب جسدها أكثر من عادته وقالت:
أشكرك يا سيدتي، لكن أغنيس لم تأت في نهاية الأمر.

- آه، إني آسفة.

- هذا لا يهمني أنا.

كان التذمر قد بلغ بها حدأً جعلها تعطف علينا بيت شعراها:
لست أنا التي فكرت في دعوتها! فهي التي اتصلت وقالت إن لديها شيئاً تود قوله وسألت إن كان بإمكانها أن تأتي باعتباره يوم عطلتها.
وأجبتها بنعم، بشرط موافقتك التي أخذتها منك. وبعد ذلك لم أسمع منها شيئاً، كما أنها لم تعذر لي بكلمة واحدة! أمل أن أستلم منها خبراً صباح الغد. هؤلاء الفتيات اليوم... لا يعرفن شيئاً عن الأصول،
ولا يعرفن كيف يتصرفن.

حاولت جوانا مداواة مشاعر بارتريديج المجرورة قائلة: ربما
شعرت بتوعك في صحتها. ألم تتصل بي بها لتعرف في سبب تغييبها؟

انتصبت بارتريديج وقالت: نعم، لم أفعل يا سيدتي، ولن
أتصل. إن رغبت أغنيس في التصرف بطريقة وقحة فهذا شأنها،
ولكنني سأويخها بشدة عندما نلتقي.

خرجت بارتريديج من الغرفة وهي ساخطة، (وضحكت أنا
وجوانا. قلت: ربما كان لجوء أغنيس لطلب النصيحة من قبيل تلك
الحالات التي يكتبون فيها للصحف في باب مشكلات القراء؛ «العمدة»

ناتسي تحل لك مشكلتك»، وبيدو أن أغنيس قد فشلت في الحصول على مشورة العمة ناتسي فكان عليها أن تلتجأ إلى بارتريدج لطلب النصيحة. ولكنني أظن أن أغنيس قد حلّت مشكلتها الآن.

ضحكـت جوانـا وقـالت إنـها تـظن الأمـر عـلى هـذا التـحوـرـ. وـبـدـأـناـ تـحدـثـ عنـ الرـسـائـلـ المـجهـولةـ وـتـسـاءـلـناـ عـمـاـ يـمـكـنـ أنـ يـكـونـ نـاـشـ وـغـرـيفـزـ الكـيـبـ قـدـ توـصلـ إـلـيـهـ.

قـالـتـ جـوـانـاـ لـقـدـ مـضـىـ أـسـبـوعـ كـامـلـ عـلـىـ اـنـتـحـارـ السـيـدةـ سـيـمـنـغـتنـ، وـأـحـسـبـ أـنـهـمـ قـدـ توـصلـواـ إـلـىـ نـيـجـةـ ماـ؛ـ بـصـماتـ أـصـابـعـ أـوـ خـطـ الـيدـ أـوـ شـيءـ ماـ.

أـجـبـتـهاـ شـارـدـ الـذـهـنـ، فـقـيـ منـطـقـةـ ماـ خـلـفـ عـقـليـ الـوـاعـيـ كـانـ يـنـمـوـ تـمـلـلـ غـرـيبـ، وـكـانـ هـذـاـ التـمـلـلـ وـعـدـمـ الـأـرـتـيـاحـ مـرـتـبـطـاـ بـطـرـيـقـةـ ماـ بـالـعـبـارـةـ التـيـ اـسـتـخـدـمـتـهاـ جـوـانـاـ:ـ «ـأـسـبـوعـ كـامـلـ»ـ.ـ كـانـ عـلـيـ -ـكـماـ أـظـنـ-ـ أـنـ أـخـرـجـ بـعـضـ الـاسـتـتـاجـاتـ مـمـاـ أـعـرـفـهـ، وـرـبـماـ كـانـ عـقـليـ قـدـ بـدـأـ شـكـوـكـهـ فـيـ الـلـاشـعـورـ.ـ كـانـ الـخـمـيرـةـ تـعـمـلـ عـلـمـهـاـ، وـكـانـ التـمـلـلـ يـنـمـوـ...ـ وـيـقـرـبـ مـنـ التـنـائـجـ.

لـاـ حـلـثـ جـوـانـاـ فـجـأـةـ إـنـتـيـ لـمـ أـكـنـ أـصـفـيـ لـحـدـيـثـهـاـ الـحـمـاسـيـ عـنـ مـنـاوـشـةـ فـيـ الـقـرـيـةـ فـقـالـتـ:ـ مـاـ الـأـمـرـ يـاـ جـيـريـ؟ـ

لـمـ أـجـبـهاـ لـأـنـ ذـهـنـيـ كـانـ مـشـغـلـاـ بـجـمـعـ الـأـشـيـاءـ الصـغـيرـةـ بـعـضـهاـ مـعـ بـعـضـ:ـ اـنـتـحـارـ السـيـدةـ سـيـمـنـغـتنـ...ـ كـانـتـ وـحـدهـاـ فـيـ الـبـيـتـ عـصـرـ ذـلـكـ الـيـوـمـ...ـ وـحـيـدةـ فـيـ الـبـيـتـ لـأـنـ الـخـادـمـاتـ كـنـ يـقـضـيـنـ يـوـمـ إـجازـتـهـنـ...ـ قـبـلـ أـسـبـوعـ وـاحـدـ بـالـضـيـبـطـ...

- جيري، ماذا...

قاطعتها: جوانا، الخادمات يأخذن يوم عطلة مرة واحدة في الأسبوع، أليس كذلك؟

- ويتأوين على عطلة الأحد. ما الذي...

- لا عليك من أيام الأحد. ولكنهن يخرجن في نفس اليوم من كل أسبوع، أليس كذلك؟

- بلـى، هذا هو الأمر المعتاد.

كانت جوانا تحدق إلى بفوضول، إذ لم يهتد عقلها إلى الطريق الذي اهتدى له عقلي.

ذهبت وقرعت الجرس، فجاءت بارتريدج. قلت: أخبريني عن أغنيس وُدل هذه، هل تعمل في الخدمة؟

- نعم يا سيدى، في بيت السيدة سيمونغتن. أو -بالأحرى- في بيت السيد سيمونغتن الآن.

سحبـت نفساً عميقاً، ثم نظرت إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى العاشرة والنصف. قلت: أنتظـين أنها عادـت الآن؟

بدت بـارترـيدج مستـاءة وقالـت: نـعم يا سـيدـي. هـناـك يـجبـ أن تـعـودـ الخـادـمـاتـ قبلـ العـاـشـرـةـ؛ـ فالـبـيـتـ يـدارـ عـلـىـ الطـراـزـ الـقـدـيـمـ.

- أنا ذاهـبـ لـلـاتـصالـ.

خرجت إلى الصالة، وتبعتني جوانا ببارتريديج. كان واضحاً أن بارتريديج ثائرة، وكانت جوانا متحيرة. قالت وأنا أحاول إدارة رقم الهاتف: ماذا ستفعل يا جيري؟

- أريد أنتأكد من أن الفتاة قد عادت على ما يرام.

زفرت بارتريديج باستياء. مجرد زفراة لا أكثر، ولكتني لا أهتم ذرة واحدة لزفير بارتريديج. ردت إلسي هولاند على الطرف الآخر من الخط قلت لها: آسف للاتصال بكم، جيري بيترن يتكلم. هل... هل عادت خادمتكم أغنيس؟

لم أشعر بأنني كنت مغفلأً إلا بعد أن طرحت سؤالي، فإن كانت الفتاة قد عادت وكان الأمر على ما يرام فكيف لي أن أبرر سبب اتصالي وسؤالي. كان من الأفضل أن أجعل جوانا هي التي تتصل وتسأل، رغم أن سؤال جوانا أيضاً يحتاج إلى شيء من التفسير... ويدأت أرى في الأفق كلاماً يدور في لايمستوك عن علاقة بيني وبين أغنيس وُدل المجهولة هذه.

بدت إلسي هولاند مدحشة جداً، وحق لها ذلك. قالت: أغنيس؟ آه، لا بد أنها عادت الآن.

أحسست بأنني أحمق لكنني واصلت مغامرتي: هل تمانعين في التأكد من وجودها في البيت يا آنسة هولاند؟

لدى المريبيات حسنة لا بد من ذكرها؛ فقد اعتدن أن ينفذن ما يُطلب منهن دون أن يرین أن من حقهن التساؤل عن السبب!

وضعت إلسي هولاند السماعة وذهب طائعة، وبعد دقيقتين سمعت صوتها: أما زلت على الخط يا سيد بيرتن؟

- نعم.

- الحقيقة أن أغنيس لم تُعد بعد.

عرفت -عندها- أن حديسي كان صحيحاً. سمعت أصواتاً غامضة عند الطرف الآخر ثم تحدث سيمنعن نفسه معه: مرحباً يا بيرتن، ماذا في الأمر؟

- ألم تعد خادمتك أغنيس بعد؟

- نعم، لم تُعد بعد، لقد تأكدت الآنسة هولاند الآن من ذلك. ماذا في الأمر؟ هل وقع حادث؟

- ليس حادثاً.

- أعني أن لديك سبباً للاعتقاد بأن أمراً قد حدث للفتاة؟

قلت متوجهماً: لن يفاجئني ذلك.

* * *

الفصل الثامن

لم أنم جيداً في تلك الليلة، وأحسب أن بعض أجزاء اللغز كانت تدور في ذهني طوال الليل، ولعلي -لو كرست كل عقلي لذلك اللغز- لكت قادراً على حل المشكلة كلها في ذلك الحين. وإنما فلماذا تحوم هذه الأجزاء في ذهني بكل هذا الإلحاح؟

ما هو مقدار ما نعرفه في أي وقت؟ إن ما نعرفه، باعتقادي، هو أكثر بكثير مما ندرك أننا نعرفه، لكتنا لا نستطيع النفاذ إلى تلك المعرفة المخبأة الخفية. إنها هناك ولكتنا لا نستطيع الوصول إليها.

استلقيت على سريري وأنقلب متسلماً فيما راودتنى نصف غامضة فقط من اللغز لتزيد من عذابي: إن ثمة نمطاً ينظم الأمر كله، لو قُدر لي فقط أن أمسك به. كان يجب أن أعرف من كتب تلك الرسائل التسعة. كان ثمة أثر في مكان، لو أستطعت فقط أن أتبعه...

وفيما أنا أستسلم للنوم تراقصت الكلمات في ذهني الناعس على نحو مزعج: «لا دخان بلا نار». لا نار بلا دخان. دخان... دخان؟ الساتر الدخاني... كلا، كان ذلك في الحرب... عbara

حرب. الحرب... قصاصة ورق... مجرد قصاصة ورق. بلجيكا...
ألمانيا...

نمـتـ وـحـلـمـتـ أـنـتـ كـنـتـ آـخـذـ السـيـدـةـ كـالـثـرـوـبـ -وـقـدـ تـحـولـتـ
إـلـىـ كـلـبـ صـيـدـ- فـيـ نـزـهـةـ وـحـولـ رـقـبـهـ طـوـقـ وـحـبـلـ.

* * *

كان رنين الهاتف هو الذي أيقظني. رنين متواصل.

جلست على السرير ونظرت إلى ساعتي. كانت السابعة والنصف، وكان جرس الهاتف يرن في الصالة في الطابق الأرضي. قفزت عن سريري وارتدت روبي التوم ونزلت مسرعاً. سبقت بارترidding التي جاءت من الباب الخلفي من المطبخ للرد على الهاتف، ورفعت السماعة قائلاً: مرحبأ.

وأحسست بالارتياح حين سمعت صوت ميجان من الطرف الآخر للخط وهي تقول: آه... أهذا أنت!

كانت نبرة الخوف والحزن واضحة في صوتها. وأكملت:
أرجوك أن تأتي... تعال. آه، أرجوك تعال! هل ستأتي؟

قلت: أنا قادم على الفور. هل تسمعين؟ على الفور.

ارتقيت الدرج درجتين درجتين واقتحمت غرفة جوانا قائلاً:
اسمعيني يا جوانا، أنا ذاهب إلى بيت سيمونغتن.

رفعت جوانا رأسها الأشقر عن الوسادة، وفركت عينيها كطفل صغير وقالت: لماذا... ماذا حدث؟

- لا أعرف. إنها تلك الطفلة... ميغان. بدت في أسوأ حال.

- ماذا تظن في الأمر؟

- إنها الفتاة أغنيس، ما لم أكن مخطئاً إلى أبعد الحدود.

وعندما خرجت نادتني جوانا: انتظر، سوف آتي لأوصلك.

- لا حاجة لذلك، سأقود السيارة بنفسي.

- لا يمكنك قيادة السيارة.

- بل أستطيع.

وقد قدمتها فعلاً. آذتني قيادتها ولكن ليس كثيراً. كنت قد اغسلت وحلقت لحيتي ولبست ملابسي وأخرجت السيارة من الموقف ثم انطلقت بها إلى بيت سيمونغتون، وذلك كله خلال نصف ساعة. وكان ذلك وقتاً لا يأس به.

لا بد أن ميغان كانت تترقب وصولي؛ فقد خرجت من البيت مسرعة وأمسكت بي. كان وجهها النحيل الصغير شاحباً ومرتعشاً. قالت: آه، ها قد جئت... ها قد جئت!

- تماسكني يا طفلي. نعم، لقد جئت. ما الأمر الآن؟

بدأت ترتعش، فأحاطتها بذراعي. قالت: لقد... لقد وجدتها.

- وجدتِ أغنيس؟ أين؟

ازداد ارتعاشها وقالت: تحت الدرج، حيث توجد خزانة لحفظ صنابر الصيد ومضارب الغolf والأشياء الأخرى.

أومأت برأسِي، فقد كانت الخزانة المعتادة. وأكملت ميعانَ:
كانت هناك... مكومة... و... وباردة... باردة جداً. كانت... كانت
ميته!

سألتها بفضولٍ: ما الذي جعلك تبحثين هناك؟

- إبني... إبني لا أعرف. أنت خابرتنا الليلة الماضية، ويدأنا
جميعاً تساؤل عن مكان أغنيس. انتظرناها لبعض الوقت، ولكنها
لم تأت، وأخيراً ذهبتا للنوم. لم أنم جيداً ونهضت مبكرة. لم يكن
في البيت إلا روز، الطاهية. كانت غاضبة جداً لعدم عودة أغنيس،
وقالت إنها كانت تعمل من قبل في أحد البيوت وهررت فتاة من هناك
بنفس الطريقة هذه. تناولت الحليب والخبز والزبدة في المطبخ، ثم
فجأة دخلت روز وهي تبدو بمظهر غريب وقالت إن ملابس أغنيس
التي تخرج بها موجودة في غرفتها، وإن أفضل ملابسها ما تزال هناك.
ويدأت أتساءل إن كانت... إن كانت قد غادرت البيت أساساً، ويدأت
أقفل في البيت، وفتحت الخزانة التي تحت الدرج... فوجدتُها
هناك...

- أحسب أن أحدكم قد أبلغ الشرطة، أليس كذلك؟

- بلـى، إنهم هنا الآن. خابرهم زوج والدتي مباشرة. ثم
أحسست، أحسست بعدم استطاعتي تحمل الأمر فاتصلت بك.
أرجو أن لا يكون لديك مانع؟

- نعم، لا أمانع.

نظرت إليها باستغراب وقلت: هل أعطيك أحد بعض الشراب
أو القهوة أو الشاي بعد... بعد أن وجدتها؟

هزت ميغان رأسها بالنفي، فصبت اللعنات على آل سيمونتن
جميعاً؛ إذ أن حشوة القميص تلك، السيد سيمونتن، لم يفكر بشيء
سوى الشرطة. لا إلسي هولاند ولا الطاهية فكرتا في تأثير ذلك
الاكتشاف الرهيب على طفلاً رقيقة. قلت: هي ندخل يا عزيزتي،
سنذهب إلى المطبخ.

درنا حول البيت إلى الباب الخلفي ودخلنا المطبخ. وكانت
روز - وهي امرأة في الأربعين من عمرها ذات وجه متتفحخ - تشرب
الشاي الثقيل قرب مدفأة المطبخ. حينما بسيط دافق من الكلام ويدها
على قلبها.

أخبرتني بأنها أصبحت كالمحونة وازداد خفقان قلبها! فكر في
الأمر فقط، إذ كان يمكن أن تكون هي الضحية، ويمكن أن تكون
أي واحدة أخرى في البيت، تقتل أثناء نومها على سريرها.

قلت: صبي فنجان شاي ثقيل للأنسة ميغان؛ فقد صدمت.
تذكري أنها هي التي اكتشفت الجثة.

مجرد ذكر الجثة أصاب روز بالذعر ثانية لكنني قمعتها بنظرات
صارمة متى فضلت فنجان شاي أسود. قلت لميغان: خذ أيتها
الفتاة، اشربي هذا.

طلبت من ميغان أن تبقى مع روز وقلت مخاطباً الأخيرة: هل
أعتمد عليك في العناية بالأنسة ميغان؟

رَدَتْ روز بلطف قائلةً: آه، نعم يا سيدتي.

ثم دخلت البيت. ولئن لم تخبِّ معرفتي بروز ومثيلاتها فإنها سرعان ما ستتجدد أن من الضروري لها أن تحافظ على قوتها بتناول قليل من الطعام وهذا سيكون جيداً لميغان أيضاً. تباً لهؤلاء الناس، كيف لا يستطيعون العناية بهذه الطفلة؟

ووجدت إلسي هولاند في الصالة، و كنت أشتعل في داخلي. وبيدو أنها لم تفاجأ لرؤيتها. وأحسب أن بشاعة اكتشاف الجثة يجعل المرأة لا يعي من يأتي ومن يخرج. كان الشرطي بييرت راندل قرب الباب الأمامي. شهقت إلسي هولاند قائلةً: آه يا سيد بييرتن، أليس ذلك فظيعاً؟ متى يمكن أن يفعل مثل هذا الأمر الرهيب؟

- كانت جريمة قتل إذن؟

- آه، نعم. لقد ضربت على مؤخرة رأسها. رأسها كله دم وشعر... آه! أمر فظيع... وكانت مكومة في تلك الخزانة. من يمكن أن يفعل مثل هذا الشيء الشرير؟ ولماذا؟ المسكينة أغنيس، أنا واثقة أنها لم تؤذ أحداً أبداً.

قلت: نعم. لقد حرص أحدهم على أن لا يدعها تفعل ذلك، وبأقصى سرعة.

نظرت إلي بامتعان. رأيت أنها لم تكن ذات عقل سريع لتأخ، ولكنها ذات أعصاب قوية. كان لونها، كعادته، محمراً قليلاً بالانفعال، بل إنني تخيلت أنها كانت تستمتع بهذه الدراما بطريقة لا تخلو من رهبة، وبالرغم من طبيتها الطبيعية. قالت معترضة: يجب

أن أذهب إلى الأولاد. السيد سيمونغتن حريص جداً على أن لا يتعرضها لصدمة، وهو يريد مني إبعادهما.

- سمعت أن ميغان هي التي وجدت الجثة. أرجو أن يكون أحد قائمها على رعايتها؟

ولا بد من إنصاف إلسي هولاند والقول إنها بدت كمن يعذبه ضميره. قالت: يا إلهي، لقد نسيت أمرها تماماً. أرجو فعلاً أن تكون على ما يرام. لقد داهمتني الأعمال من كل صوب، مع وجود الشرطة وغير ذلك... ولكن إهمال مني. مسكينة، لا بد أنها في وضع سيء. سأذهب وأبحث عنها على الفور.

رقت لها وقلت: إنها بخير... روز تقوم على رعايتها. اذهبي إلى الأطفال.

شكرتني بابتسامة ظهرت خلفها أسنانها البيضاء وأسرعت إلى الطابق العلوي؛ فقد كانت مهمتها -في نهاية الأمر- تنصب على الولدين لا على ميغان... لم تكن ميغان من مهمة أحد. لقد عُينت إلسي للعناية بأولاد سيمونغتن، ولا يكاد المرء يستطيع لومها على ذلك.

وعندما لمحتها تعطف بسرعة عند الزاوية في أعلى الدرج حبس أنفاسي؛ فقد لمحت -لحظة- التماعنة لانتصارِ محلقي لا يُدانى، لا شأن له بمربية أطفال حية الضمير.

ثم فُتح أحد الأبواب وخرج المفتش ناش منه إلى الصالة

ووراءه سيمنعن. قال: آه، سيد بيرتن، كنت بصدد الاتصال بك
توأ. يسعدني أنك هنا.

لم يسألني إذن لماذا أنا هنا.

التفت وقال لسيمنعن: سأستخدم هذه الغرفة إن أمكن.

كانت غرفة صغيرة لجلسة الصباح بها نافذة تطل على مقدمة
البيت. قال السيد سيمنعن: بالتأكيد، بالتأكيد.

كان رابط الجأش، ولكنه بدا مرهقاً جداً. قال ناش بلطف: لو
كنت مكانك يا سيد سيمنعن لتناولت إفطاراً ما. أنت والآنسة هولاند
والآنسة ميغان ستشعرون بتحسن كثير لو تناولتم قهوة وبيضاً ولحماً.
إن مواجهة جريمة قتل بمعدة خاوية مسألة صعبة جداً.

كان يتكلم بأسلوب طيب العائلة المريح. وحاول سيمنعن أن
يتسم بابتسامة باهته وقال: أشكرك أيها المفتش. سأخذ بنصيحتك.

تبعد ناش إلى الغرفة الصغيرة، فأغلق الباب خلفه ثم قال:
لقد وصلت إلى هنا بسرعة. كيف سمعت الخبر؟

أخبرته أن ميغان اتصلت بي، وشعرت نحوه بالود؛ فهو لم
ينس أن ميغان تحتاج طعاماً هي الأخرى. قال: سمعت يا سيد بيرتن
أنك اتصلت في الليلة الماضية تسأل عن هذه الفتاة؟ لماذا؟

أظن أن ذلك بدا غريباً بالفعل. وقد أخبرته عن مكالمة أغنيس
مع بارترidding وعدم قدومها فقال: نعم، فهمت....

قالها ببطء وتفكير وهو يفرك ذقنه، ثم تنهد وقال: حسناً، إنها

جريمة قتل هذه المرة، دون أي شك. اعتداء جسدي مباشر. السؤال هو: ماذا كانت الفتاة تعرف؟ هل قالت أي شيء لبارتريدج هذه؟ أي شيء محدد؟

- لا أظن ذلك، ولكن يمكنك سؤالها.

- نعم، سأذهب وأراها عندما أنتهي من هنا.

- ما الذي حدث بالضبط؟ أم أنكم ما زلتم لا تعلمون؟

- لدينا صورة تقريبية. كان يوم عطلة الخدم...

- كلا الخادمتين؟

- نعم، يبدو أنه كانت هنا في السابق خادمتان شقيقتان كانتا تحبان الخروج معاً، ولذلك فقد رأت السيدة سيمونغتون عطلتهما بهذه الطريقة. ثم عندما جاءت هاتان الخادمتان بدلاً منها بقيت على نفس النظام. وقد اعتادتا ترك العشاء بارداً في غرفة الطعام وكانت الآنسة هولاند هي التي تحضر الشاي.

- فهمت.

- الأمر واضح حتى نقطة محددة. الطاهية روز من سكان نيدر ميكفورد، وحتى تصلك إلى هناك في يوم عطلتها عليها أن تلحق بحافلة الساعة الثانية والنصف، ولذلك كان على أغنيس أن تنظف طاولة الغداء دائماً. ولكي تجازيها روز على ذلك فإنها اعتادت غسيل الأطباق المستخدمة على العشاء نيابة عنها.

وهذا ما حدث بالأمس. ذهبت روز في الساعة الثانية وخمس

وعشرين دقيقة لتحقق بالحافلة، وذهب سيمتنع إلى مكتبه الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة، وخرجت إلسي هولاند مع الأطفال الساعة الثالثة إلا ربعاً، كما خرجت ميغان هتر على دراجتها بعد ذلك بخمس دقائق. وبذلك تكون أغنيس وحدها في البيت. وحسبما استطعت استنتاجه فإنها كانت تغادر البيت في العادة بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف.

- وهل يبقى البيت حالياً بعدها؟

- آه، إنهم لا يأبهون لذلك هنا في البلدة، ولا يقفلون بيوتهم كثيراً في هذه المناطق. وكما قلت: كانت أغنيس في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق وحدها في البيت، وواضح أنها لم تغادره أبداً لأنها كانت تلبس قبعة وصدرية العمل عندما وجدنا جثتها.

- لعلكم تعرفون موعد وفاتها على التقرير؟

- لم يشا الدكتور غريفيث إلزام نفسه بموعد ذيق. رأيه الطبي الرسمي أن الوفاة حدثت بين الساعة الثانية والرابعة والنصف.

- وكيف قُتلت؟

- ضربت أولأ على مؤخرة رأسها بحيث فقدت الوعي، وبعد ذلك جيء بسيخ عادي مما يستخدم في المطابخ - وقد شُحذ حتى أصبح رأسه دقيناً - وتم إدخاله في قاعدة جمجمتها مما سبب وفاتها على الفور.

قلت: جريمة بدم بارد تماماً.

- آه، نعم، نعم، كان ذلك واضحاً.

- من فعلها؟ ولماذا؟

قال ناش ببطء: لا أظنتنا سنعرف السبب بالضبط أبداً، لكننا
نستطيع التخمين.

- وكانت تعرف شيئاً؟

- نعم، كانت تعرف شيئاً.

- ألم تلمع لأحد هنا بشيء؟

- لم تلمع حسبيما استنتاجه. تقول الطاهية إنها كانت متضايقاً
منذ وفاة السيدة سيمونتن. وحسب كلام روز هذه كان قلقها يزداد
شيئاً فشيئاً، وظلت تقول إنها لا تعرف ما ينبغي عليها عمله.

زفر زفة غيظ قصيرة وقال: نفس الأسلوب دائماً. إنهم لا يأتون
إلينا. لديهم عقدة عميقة الجذور اسمها «الاحتياط بالشرطة». لو أنها
جاءت إلينا وأخبرتنا عما يقلقها لكان اليوم على قيد الحياة.

- ألم تلمع للمرأة الأخرى بأي شيء؟

- نعم. أو هذا ما تقوله روز، وأنا أميل إلى تصديقها؛ لأنها
لو فعلت لأخبرتنا روز به على الفور مع إضافة الكثير من زخارف
خيالها عليه.

- أمر يبعث على الجنون أن لا نعرف.

- ما زال بإمكاننا التخمين يا سيد بيرتن. فالسبب بدأية لا يمكن

أن يكون شيئاً محدداً جداً. لا بد أنه من تلك الأشياء التي تعيد التفكير فيها، وكلما أعددت التفكير فيها زاد تململك وعدم ارتياحك. أتفهم ما أعنيه؟

- نعم.

- عملياً أحسب أنني أعرف ما هو.

- هذا عمل جيد أيها المفتش.

- حسناً، إن الأمر - يا سيد بيرتن - هو أنني أعرف شيئاً لا تعرفه أنت. في عصر اليوم الذي انتحرت فيه السيدة سيمونغتون كان من المفترض أن تخرج الخادمتان، فقد كان يوم عطلتهما. ولكن لأغليس عادت عملياً إلى البيت.

- هل تعرف هذا؟

- نعم. إن لأغليس صديقاً... شاب اسمه ريندل يعمل في محل الأسماك. كان يخرج من عمله مبكراً أيام الأربعاء ويأتي لمقابلة أغليس فيتمشيان أو يذهبان إلى السينما إن كان الجو ممطراً. وقد تشاوبرا في ذلك الأربعاء عندما التقى مباشرة. فقد كانت كاتبة الرسائل المجهولة نشيطة، وقد أوضحت بأن لأغليس صديقاً آخر، وثارت ثائرة الشاب فريد ريندل فتشاجرا شجاراً عنيفاً، وعادت أغليس إلى البيت قائلة إنها لن تخرج إلا بعد أن يعتذر الشاب منها.

- حسناً، وبعد؟

- إن المطبخ يواجه ظهر البيت، لكن حجرة الخزين تطل على

نفس المكان الذي نظر عليه في غرفتنا هذه. هناك بوابة دخول واحدة فقط، تدخل منها ثم تأتي إما إلى الباب الأمامي أو تمشي على الطريق الموازي لجانب البيت إلى الباب الخلفي.

سكت قليلاً ثم قال: سأخبرك الآن شيئاً. تلك الرسالة التي وصلت إلى السيدة سيمونغتون عصر ذلك اليوم لم تأت عن طريق البريد. فقد ألصق عليها طابع سبق استخدامه من قبل، وكان ختم البريد على الرسالة مزوراً بطريقة متقدمة باستخدام سخام المصابيح حتى تبدو وكأن ساعي البريد هو الذي سلمها مع بريد العصر، إلا أنها في الواقع لم تأت عن طريق البريد. هل ترى ما يعنيه هذا؟

قلت بيضاء: يعني أنها وُضعت باليد في صندوق الرسائل قبل وقت قصير من وصول البريد المسائي حتى تكون بين الرسائل الأخرى.

- تماماً. إن بريد المساء يأتي الساعة الرابعة إلا ربعاً تقريباً.رأيي هو أن الفتاة كانت في غرفة الخزين تنظر من النافذة (والنافذة مستترة وراء الشجيرات لكن بوسع المرء النظر من خلالها جيداً) وكانت ترقب مجيء صديقها ليعتذر لها.

- وقد رأيت من وضع تلك الرسالة، أليس كذلك؟

- هذا هو تخميني يا سيد بيرتن، وقد أكون مخطئاً بالطبع.

- لا أظنك مخطئاً... الأمر بسيط... ومقنع أيضاً... وهو يعني أن أغنيس قد عرفت من هو كاتب هذه الرسائل المجهولة.

- نعم.

قلت: "ولكن، لماذا لم...", ثم سكت متوجهماً. قال ناش
بسريعة: الأمر -كما أظن- هو أن الفتاة لم تدرك مغزى ما رأته. لم
تدرك في البداية. نعم... مجرد شخص ترك رسالة في البيت... ولكن
ذلك الشخص لم يكن شخصاً تحلم أغنيس أن يكون ذا صلة بالرسائل
المجهولة. لقد كان -وفق هذه النظرية- شخصاً فوق الشبهات تماماً،
ولكن كلما كانت تفكير في هذا الأمر أكثر كلما ازداد قلقها. هل تخبر
شخصاً بهذا الأمر؟ وفي حيرتها تلك فكرت في الآنسة بارترidding التي
أظن أنها ذات شخصية مهيمنة من شأن أغنيس أن تقبل حكمها دون
تردد، وقررت أن تسألها عما ينبغي عليها عمله.

قلت متأملاً: نعم، هذا يناسب الواقع بشكل جيد. وقد
اكتشفت صاحبة القلم السام هذا الأمر بطريقة ما. كيف اكتشفت
ذلك أيها المفتش؟

- أنت غير معتمد على العيش في الريف يا سيد بيرتن. إن الأمور
تتشير هنا بنوع من المعجزة. هناك أولًا المكالمات الهاتفية... من
الذي سمع المكالمة عندك؟

فكرت ثم قلت: أنا الذي أجبت على الهاتف في البداية، ثم
ناديت بارترidding وكانت في الطابق العلوي.

- هل ذكرت اسم الفتاة؟

- نعم... نعم، فعلت.

- هل سمعك أحد؟

- ربما سمعتني أخي، أو الآنسة غريفيث.

- آه، الآنسة غريفيث. ما الذي كانت تفعله هناك؟

أوضحت له، فسأل: هل كانت ستعود إلى القرية؟

- كانت ذاهبة إلى السيد باي أولاً.

تهد الضابط ناش وقال: هذا يعني وجود مصدرين لنشر الخبر في المنطقة.

قلت غير مصدق: هل تقصد أن آياً من الآنسة غريفيث أو السيد باي يمكن أن يكلف نفسه عناء إشاعة معلومة صغيرة لا معنى لها بهذه؟

- إن أي شيء يعد خبراً في مثل هذه القرية. ستذهب من ذلك، ولكن لو حدث أن والدة خياطة الملابس ظهر في أصبع قدمها مسمار فإن الجميع هنا سيعرفون ذلك! ثم هناك الطرف الآخر على الخط هنا. الآنسة هولاند، وروز... ربما كان بوسعهما سماع ما قالته أغنيس، وهناك فريد ريندل. ربما كان خبر عودتها إلى البيت عصر ذلك اليوم قد انتشر عن طريقه هو.

ارتعدت قليلاً. كنت أنظر عبر النافذة، كانت أمامي أرض صغيرة مزروعة بالحشائش وممر وبواحة صغيرة. لقد فتح شخص البوابة ومشى بطريقة طبيعية وبهدوء وجاء إلى البيت ووضع الرسالة في صندوق الرسائل. رأيت عين عقلي شكل تلك المرأة الغامضة. كان الوجه صفحة بيضاء لا ملامح لها... ولكن لا بد أنه وجه كنت أعرفه...

كان المفتش ناش يقول: ومع ذلك، فإن هذا يضيق دائرة

المشبوهين. هكذا نمسك بهم في النهاية دائمًا. نحذف أسماءهم واحداً بعد الآخر بعد تمحيص طويل وصبور. لا يمكن أن يكون قد بقي الآن الكثير من المشبوهين.

- ماذا تعني...؟

- هذا يستبعد أية امرأة عاملة كانت في مكان عملها عصر الأمس، وهو يستبعد مديرية المدرسة فقد كانت في مدرستها تعمل. كما يستبعد ممرضة المنطقة، فأنا أعرف أين كانت بالأمس. وهذا لا يعني أني كنت أشك بأية واحدة منهم، ولكتنا الآن متأكدون. كما ترى يا سيد بيرتن فإن لدينا الآن وقتين محددين نرکز عليهما: عصر الأمس، والأسبوع الذي قبله، أي في يوم وفاة السيدة سيمونغتون، ولنلقل بين الساعة الثالثة والرابع (وهو أقرب وقت كان يمكن أن تعود فيه أغنيس إلى البيت بعد المشاجرة) والساعة الرابعة عندما يكون البريد قد وصل دون ريب (ويمكن تحديد هذا الوقت بمزيد من الدقة مع ساعي البريد). والأمس من الساعة الثالثة إلا عشر دقائق (عندما غادرت الآنسة ميغان هتر البيت) إلى الساعة الثالثة والنصف أو حتى الساعة الثالثة والربع باعتبار أن أغنيس لم تكن قد بدأت بتغيير ملابسها.

- ما الذي ترى أنه قد حدث بالأمس؟

كشر ناش وقال: ما الذي أراه؟ أرى أن امرأة معينة مشت إلى الباب الأمامي ودقت الجرس وهي تبتسم بكل هدوء، باعتبارها زائرة المساء... وربما سألت عن الآنسة هولاند أو الآنسة ميغان أو

ربما أحضرت معها طرداً. وعلى أيه حال فقد التفتت أغنيس فضررتها السيدة الزائرة على مؤخرة رأسها على حين غرة.

- لماذا؟

- السيدات هنا يحملن معهن حقائب يدوية كبيرة الحجم في العادة. لا أحد يعرف ما يمكن أن يكون بداخلها.

- ثم طعنتها في مؤخرة عنقها ووضعتها في الخزانة؟ أليس من شأن ذلك أن يكون عملاً ثقيلاً بالنسبة لامرأة؟

نظر ناش إلى نظرات غريبة وقال: إن المرأة التي نبحث عنها ليست عادية... ليست طبيعية أبداً... وذلك النوع من الاضطراب العقلي ترافقه عادة قوة مدهشة. ولم تكن أغنيس كبيرة الحجم.

سكت قليلاً ثم قال: ما الذي جعل الآنسة ميغان هتر تفكك في البحث في الخزانة؟

قلت: مجرد غريزة. ثم سأله: لماذا تم سحب أغنيس ووضعها في الخزانة؟ ما الغرض من ذلك؟

- كلما استغرق العثور على الجثة وقتاً أطول كلما زادت صعوبة تحديد وقت الوفاة بالضبط. لو أن الآنسة هولاند -على سبيل المثال- عثرت على الجثة بمجرد وصولها، لاستطاع الطبيب تحديد وقت الوفاة بدقة تبلغ نحو عشر دقائق، وهو أمرٌ سيكون خطيراً على صاحبتنا هذه.

قلت عابساً: ولكن إن كانت أغنيس تشتبه في هذه المرأة...

قاطعني ناش قاتلاً: لم تكن تشبه فيها، ليس إلى حد الاشتباه المحدد الجازم. إنما رأت أن أمر تلك المرأة «غريب». أظنهما كانت فتاة قليلة الذكاء، ولم تكن تشبه إلا بطريقة مبهمة، شاعرةً أن ثمة شيئاً غير طبيعي. إنها لم تشک بالتأكد بأنها تواجه امرأة يمكن أن ترتكب جريمة قتل.

سألته: هل شككت أنت في ذلك؟

هز ناش رأسه بالنفي، ثم قال بتأثر: كان يجب أن أعرف. إن مسألة الانتحار تلك أربعت صاحبة القلم المسموم؛ لقد أصابها الذعر. والخوف -يا سيد بيرتن- أمر لا يمكن التنبؤ بعواقبه.

- نعم، إنه الخوف. هذا ما كان علينا أن نتبنا به. الخوف... في عقل مجنون...

قال المفتش ناش بعد ذلك كلمات جعلت الأمر كله يبدو مرعباً تماماً: نحن نواجه قاتلاً يحظى بالاحترام والتقدير.. قاتلاً يتمتع حقاً بمركز اجتماعي مرموق!

* * *

وسرعان ما قال ناش بأنه ذاهب لمقابلة روز مرة أخرى. سأله بشيء من الحياء إن كان بإمكانني الذهاب معه. ولقد دهشت قليلاً إذ وافق بحرارة قاتلاً: أنا مسرور جداً بتعاونك معنا يا سيد بيرتن، إن كان لي أن أقول ذلك.

قلت: يبدو هذا مربياً؛ ففي الروايات عندما يرحب رجل

التحري بمساعدة شخص ما فإن ذلك الشخص يكون -في العادة- هو القاتل.

ضحك ناش قليلاً ثم قال: أنت لا تكاد تكون من النوع الذي يكتب رسائل مجهولة يا سيد بيرتن. ثم أضاف: بصراحة، يمكنك أن تفينا.

- يسرني ذلك، لكنني لا أعرف كيف.

- أنت غريب هنا، هذا هو السبب. ليست عندك أفكار مُسبقة عن الناس هنا. ولكن في نفس الوقت، لديك الفرصة لمعرفة الأمور بطريقة اجتماعية.

تمتت قائلاً: القاتل شخص ذو مكانة اجتماعية مرموقة.

- بالضبط.

- هل سأكون الجاسوس الذي يعمل من الداخل؟

- هل لديك أي مانع؟

فكرت بالأمر ثم قلت: كلا، ليس عندي مانع. إنْ كان في المنطقة مجنون خطير يدفع النساء البريئات إلى الإنتحار، ويضرب الخادمات البائسات على رؤوسهن، فإني لن أتوانى عن التصرف بقليل من القذارة لوضع حدًّا لذلك المجنون.

- هذا تصرفٌ واعٌ منك يا سيدِي، ولكن دعني أخبرك بأن من نبحث عنها خطيرة، بل باللغة الخطورة.

ارتعدت قليلاً وقلت: الواقع أن علينا أن نتعجل في العمل؟

- هذا صحيح. لا تظن أننا نجلس دون عمل. كلا، فنحن -في دائرة الشرطة- نتابع عدة خيوط مختلفة.

قالها عابساً، ورأيت في مخيلتي شبكة عنكبوت رقيقة تمتد على مساحة واسعة...

أوضح لي ناش أنه يريد سماع رواية روز مرة أخرى لأنها سبق ذكرت له روایتين مختلفتين، وكلما حصل منها على المزيد من الروايات كلما استطاع الحصول من تلك الروايات على نُفَّ صغيرة من الحقيقة يمكن جمعها معاً.

وجدنا روز تغسل أطباق الافطار، فتوقفت على الفور وقد أدارت عينيها ووضعت يدها على قلبها وأوضحت ثانية كيف تعكر مزاجها طيلة الصباح. كان ناش صبوراً معها، ولكنه كان حازماً. وقد أخبرني أنه كان في المرة الأولى لطيفاً يهدئها، ثم غدا حازماً معها في المرة الثانية، وهو الآن يستخدم الأسلوبين معاً.

بالغت روز في وصف تفصيلات ما جرى في الأسبوع المنصرم باستمتع، وكيف أن أغنيس كانت في حالة خوف قاتل، وكيف ارتعدت وقالت: "لا تسأليني" عندما ألحت عليها روز لتخبرها عمما بها. ثم أنهت روز حديثها قائلة إن أغنيس قالت لها: "سيكون جزائي الموت إن أنا أخبرتك". قالتها روز وهي تدبر بصرها مسرورة.

- ألم تلمح أغنيس بأية إشارة لما كان يقلقها؟

- لم تفعل، باستثناء خوفها على حياتها.

تهد الضابط ناش وترك الموضوع، مقنعاً نفسه بالاكتفاء بانتزاع

وصف دقيق لتحركات روز نفسها في عصر اليوم السابق.

ورد في وصفها -باختصار- أنها ركبت حافلة الساعة الثانية والنصف وقضت المساء مع عائلتها، وعادت في حافلة الساعة الثامنة وأربعين دقيقة من نيدر ميكفورد. وقد عقد وصفها هذا ما انخرطت به من سرد لهوا جس الشر التي انتابتها طيلة المساء، وكيف أن أختها علقت على ذلك وكيف أنها لم تستطع تذوق لقمة واحدة من الكعكة التي تم إعدادها.

خرجنا من المطبخ بحثاً عن إلسي هولاند التي كانت تشرف على دروس الأطفال. وكما هي عادتها كانت إلسي هولاند قديرة ولطيفة. نهضت وقالت: والآن يا كولين ستحل أنت ويريان هذه المسائل الثلاث وتجهزان الإجابات لي عندما أعود.

ثم أخذتنا إلى غرفة نوم الطفلين وقالت: هل تنفع هذه؟ رأيت من الأفضل أن لا تتحدث أمام الأطفال.

- أشكرك يا آنسة هولاند. أريدك أن تخبريني فقط مرة أخرى: هل أنت واثقة تماماً من أن أغنيس لم تذكر لك أبداً أنها كانت قلقة من شيء ما... أقصد منذ وفاة السيدة سيمونغتن؟

- لا، لم تقل أي شيء. كانت فتاة هادئة جداً، ولم تكن تتحدث كثيراً.

- إذن فهي تختلف عن الأخرى!

- نعم، إن روز تتحدث كثيراً جداً. أحياناً أضطر لتوجيهها بعدم تجاوز الأصول في ذلك.

- هلاً أخبرتني بالضبط عما حدث بعد ظهر الأمس؟ كل ما يمكنك تذكره.

- حسناً تناولنا الغداء كالمعتاد في الساعة الواحدة، وأسرعنا قليلاً؛ فأنا لا أترك الأطفال يضيعون وقتهم سدى. دعني أتذكر... عاد السيد سيمونغتون إلى المكتب، وقمت أنا بمساعدة أغنيس في إعداد الطاولة للعشاء... وأُسع الطفلان خارجين إلى الحديقة إلى أن انتهيت من عملي وأخذتهما معني.

- إلى أين ذهبت؟

- إلى كومبيكر، سالكين الطريق المار عبر الحقول... أراد الأولاد صيد السمك. وقد نسيت طعم السمك واضطررت للعودة لأخذه.

- متى كان ذلك؟

- دعني أتذكر، انطلقنا الساعة الثالثة إلاً ثلثاً تقريباً... أو بعد ذلك بقليل. كانت ميغان ستأتي معنا ولكنها غيرت رأيها إذ أرادت الخروج في رحلة على الدراجة؛ إنها مولعة بالدراجات.

- أقصدكم كانت الساعة عندما عدت لأنخذ طعم الأسماك؟ هل دخلت البيت؟

- لا. كنت قد تركته في سقيفة الزراعة وراء البيت. لا أعرفكم كانت الساعة وقتها... ربما كانت الثالثة إلا عشر دقائق تقريباً.

- هل رأيت ميغان أو أغنيس؟

- أظن أن ميغان كانت خرجت، ولم أَرْ أغنيس. لم أَرْ أحداً.

- وبعد ذلك، هل ذهبت لصيد السمك؟

- نعم، ذهبتا بمحاذاة النهر، ولم نصطاد شيئاً... نحن قلما نصطاد شيئاً. ولكن الأولاد يستمتعون بذلك. وقد ابتهلت ملابس برايان قليلاً، وتعين على تغيير ملابسه عندما دخلنا البيت.

- هل أنت التي تقدمين الشاي أيام الأربعاء؟

- نعم. يكون كل شيء جاهزاً للسيد سيمونغتون في غرفة الاستقبال فأعد الشاي عندما يأتي. أما أنا والأطفال فإننا نتناول الشاي في غرفة الدراسة... وميغان بالطبع. إنني أحافظ بعده الشاي الخاصة بي في خزانة في الغرفة.

- كم كانت الساعة عندما دخلتم البيت؟

- في الخامسة إلا عشر دقائق. أخذت الولدين إلى الطابق العلوي وبدأت أعد الشاي. وعندما عاد السيد سيمونغتون الساعة الخامسة نزلت لأقدم له الشاي هناك، ولكنه قال إنه سيتناوله معنا في غرفة الدراسة. كان الأولاد مسرورين جداً، ثم قمنا ببعض الألعاب بعد ذلك. يبدو أمراً فظيعاً عندما نفكّر الآن أننا كنا نلعب وقتها والفتاة المسكينة موجودة داخل الخزانة طيلة الوقت.

- هل من شأن أحد أن يذهب إلى تلك الحزانة في العادة؟

- لا، إنها تستخدم فقط لحفظ الأغراض البالية. إننا نعلق القبعات والمعاطف في غرفة الملابس الصغيرة على يمين الباب

الأمامي عند الدخول. لا أظن أحداً ذهب إلى الخزانة الأخرى منذ أشهر عديدة.

- فهمت. ألم تلاحظي أي شيء غير عادي، أي شيء شاذ، عند عودتك؟

فتحت عينيها الزرقاوين على اتساعهما وقالت: آه، أبداً يا حضرة المفتش، لا شيء على الإطلاق. بدا كل شيء طبيعياً كالمعتاد. هذا ما كان رهيباً في الأمر!

- وفي الأسبوع الذي قبله؟

- تقصد اليوم الذي... ماتت فيه السيدة سيمونغتن؟

- نعم.

- آه، كان ذلك فظيعاً... فظيعاً!

- نعم، نعم، أعرف. هل كتم في الخارج بعد ظهر ذلك اليوم أيضاً؟

- نعم، إنني آخذ الأولاد دائمًا بعد الظهر في نزهة إنْ كان الجو صحواً، وفي الصباح تقوم بالدراسة. وأذكر أنها ذهبت إلى السبخة... وكانت بعيدة جداً. وقد خشيت من أنني قد عدتُ متأخرة، لأنني عندما دخلت البوابة رأيت السيد سيمونغتن قادماً من مكتبه عند الطرف الآخر من الطريق، ولم أكن قد وضعت إبريق الشاي على النار بعد، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعشر دقائق.

- ألم تصعدي إلى غرفة السيدة سيمونغتن؟

- آه، لم أكن أفعل ذلك أبداً. كانت ترتاح دائمًا بعد الغداء؛ كانت تنتابها آلام عصبية... وكانت تصيبها -عادة- بعد الوجبات، وقد أعطتها الدكتور غريفيث بعض الكبسولات لتأخذها. كانت معتادة على الاستلقاء ومحاولة النوم.

قال ناش بصوت غير مكترث: إذن فإن أحداً لا يأخذ لها البريد؟

- بريد المساء؟ كلا، كنت أفتح الصندوق وأضع الرسائل التي أجدها فيه على طاولة الصالة عندما أدخل. ولكن السيدة سيمونغتون اعتادت في الغالب أن تنزل وتأخذ البريد بنفسها. لم تكن تنام طيلة العصر؛ كان من عادتها الاستيقاظ الساعة الرابعة.

- ألم تفكري بوجود شيء غير طبيعي لأنها لم تستيقظ ذلك المساء؟

- أبداً، لم أتخيل وقوع مثل هذا الأمر. كان السيد سيمونغتون يعلق معطفه في الصالة وقلت له: "الشاي ليس جاهزاً تماماً، ولكن الماء في الإبريق على وشك أن يغلي". وقد أومأ برأسه ونادي: "مونا، مونا". وحين لم ترد السيدة سيمونغتون صعد إلى غرفتها فكانت صدمة عنيفة له دون شك. ناداني فجئت إليه، وقال: "أبعدي الأطفال عن المكان"، ثم اتصل هاتفياً بالدكتور غريفيث، ونسينا كل شيء عن الإبريق واحترق أسفله كله! آه، يا إلهي، كان ذلك رهيباً، مع أنها كانت سعيدة جداً ومبتهجة ساعة الغداء.

قال ناش بسرعة: ما هو رأيك الخاص بتلك الرسالة التي استلمتها يا آنسة هولاند؟

قالت إلسي هولاند ساخطة: أعتقد أنها عمل شرير... شرير!

- نعم، نعم، لم أقصد ذلك. هل تظنين أن ما قالته الرسالة
كان صحيحاً؟

قالت إلسي هولاند بجزم: كلا، لا أرى ذلك. كانت السيدة
سيمنغتون حساسة... بل حساسة جداً. وكانت تتناول مختلف أنواع
الأدوية لتهذئة أعصابها. كما كانت... كانت متزمنة.

احمر وجه إلسي وأكملت: كان من شأن أي شيء من ذلك
النوع (وأعني من النوع القذر) أن يسبب لها صدمة كبيرة.

صمت ناش لحظة ثم سألها: هل استلمت أيّاً من هذه الرسائل
يا آنسة هولاند؟

- لا، لا، لم أستلم شيئاً منها.

- هل أنت متأكدة؟ أرجوك...

ثم رفع يده وقال: لا تتعجلِي الإجابة. أعرف أنها رسائل
كريهة، وأحياناً لا يحب الناس الاعتراف بأنهم تلقوا شيئاً منها،
ولكن من المهم جداً في هذه القضية أن نعرف. إننا ندرك تماماً أن
ما تحتويه هذه الرسائل من كلام هو كذب محض، ولذلك لا حاجة
لإحساس بالخرج.

- ولكتني لم أستلم شيئاً منها أيها المفتش. لم أستلم -حقاً- أي
شيء من هذا القبيل.

كانت ساخطة توشك أن تبكي، وبدا إنكارها صادقاً تماماً.

عندما عادت إلى الأطفال وقف ناش ينظر عبر النافذة، ثم قال:
حسناً، هكذا إذن! تقول إنها لم تتلق أيّاً من هذه الرسائل، ويبدو
أنها تقول الحقيقة.

- لقد قالت الحقيقة بالتأكيد. أنا واثق من ذلك.

قال: "همم، إن ما أريد معرفته -إذن- هو لماذا لم تستلم؟"،
ثم أكمل بشيء من فناد الصبر: إنها فتاة جميلة، أليس كذلك؟

قلت: هي -في الواقع- أكثر من جميلة.

- بالضبط. الحقيقة أنها فتاة جميلة بطريقة غير عادية، كما أنها
صغريرة. بل هي في الحقيقة مما يسيل له لعاب أي كاتب للرسائل
المجهولة تلك. لماذا تم استثناؤها إذن؟

هزّت رأسي حيرة فقال: إنه أمر مشير للاهتمام. يجب أن أذكر
ذلك لغريفز؛ لقد طلب منا أن نخبره عن أي شخص لم يتلق رسالة
من هذه الرسائل.

- إنها المرأة الثانية. تذكر أن إميلي بارتن لم تستلم شيئاً
أيضاً.

ضحك ناش ضحكة باهتة وقال: يجب أن لا تصدق كل ما يقال
للك يا سيد بيرتن. لقد استلمت الآنسة بارتن واحدة دون شك... بل
أكثر من واحدة.

- وكيف عرفت؟

- تلك التنبية المخلصة التي تعيش معها أخبرتني... خادمتها أو

طاهيتها؛ فلورنس إلفورد. كانت ساخطة جداً من هذا الأمر، وأرادت أن تشرب من دم كاتب الرسائل.

- ولماذا قالت الآنسة إميلي إنها لم تتلق أية رسالة؟

- إنها الرقة والتهذيب؛ فلغة الرسائل بذيئة. لقد قضت الآنسة بارُن حياتها وهي تتجنب كل ما هو جلف غير مهذب.

- وماذا قالت الرسائل؟

- الكلام المعتمد. ولكنه كان -في حالتها- كلاماً سخيفاً إلى حدّ مضحك، مع تلميع إلى أنها قد سمت أمها العجوز ومعظم أخواتها.

قلت غير مصدق: أتريد القول إن هذه المجنونة الخطرة ستبقى طليقة دون أن نحدد هويتها؟

قال ناش بصوت مكتتب: سنكتشفها، فستكتب رسائل كثيرة بعد.

- ولكن، يا إلهي! لا يمكن أن تواصل كتابة هذه الأشياء... ليس الآن.

نظر إلى وقال: نعم، ستكتب. لا تستطيع أن تتوقف الآن. إنه هاجس فظيع يجري في الدم. ستستمر الرسائل، لا شك في ذلك.

* * *

الفصل التاسع

ذهبت لرؤية ميغان قبل مغادرة البيت. كانت في الحديقة وبدت وقد عادت إلى طبيعتها تقريباً، وحيثني بحرارة.

اقترحت عليها أن تعود للإقامة معنا لبعض الوقت، ولكنها هزت رأسها بالرفض بعد قليل من التردد وقالت: هذا لطف منك... ولكن أظنتي سأبقى هنا؛ فهو في نهاية الأمر بيتي... كما أظن. وأحسب أن باستطاعتي مساعدة الأولاد قليلاً.

- حسناً، كما تشاءين.

- أظن أنني سأبقى. يمكنني... يمكنني...

- ماذا؟

- لو... لو حدث شيء فظيع، يمكنني الاتصال بك فتأتي،
أليس كذلك؟

تأثرت وقلت: بالطبع. ولكن ما هو شيء الفظيع الذي تظنين أنه قد يحدث؟

قالت بشيء من الإيهام: آه، لا أعرف. الأمور تبدو مقلقة في
الوقت الحاضر، أليس كذلك؟

- بالله عليك لا تدسي أنفك ل تستخرجني لنا مزيداً من الجثث؛
فهذا يضر بك!

ابتسمت لي ابتسامة خفيفة وقالت: صحيح. لقد جعلني هذا
الأمر أشعر بالغثيان.

لم أكن أرغب كثيراً بتركها هناك، ولكنه -في نهاية المطاف-
بيتها كما قالت، كما أتمنى تصورت أن إلسي هولاند ستشعر الآن
بمزيد من المسؤولية تجاهها.

ذهبت مع ناش إلى بيتنا ليتل فيرز. وبينما كنت أقوم بسرد
أحداث الصباح لجوانا كان ناش يحاور بارتريديج، ثم انضم إليها
محبطةً وقال: ليس في كلامها ما يساعدنا كثيراً. حسبما تقوله هذه
المرأة فإن كل ما قالته الفتاة هو أنها قلقة من شيء ما ولا تعرف ماذا
تفعل، وأنها تريد نصيحة الآنسة بارتريديج.

سألته جوانا: هل حدثت بارتريديج بهذا الأمر أياً كان؟

أومأ ناش برأسه وهو يبدو متوجهماً وقال: نعم، لقد أخبرت
السيدة إيموري، الخادمة النهارية التي تعمل عندكم. أخبرتها بذلك
بشكل عام كما فهمت، حيث قالت إن بعض الفتيات يبدين استعداداً
لأخذ المشورة منهن هم أكبر منها سنًا، ولا يرين أن باستطاعتهن
حل مشكلاتهن بأنفسهن تلقائياً! وإن أغنىهم ربما لم تكن ذكية جداً،
ولكنها كانت فتاة لطيفة محترمة وتعرف كيف تصرف.

تمتّمت جوانا: إنما أرادت بارتريديج إطراء نفسها في حقيقة الأمر، وربما نشرت إيموري الخبر في أرجاء البلدة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا آنسة بيرتن.

قلت: يدهشني أمر واحدٌ بعض الشيء. لماذا شُملت أنا وأختي في قائمة الذين أرسلت لهم رسائل مجهولة؟ نحن غريبان هنا، ولا يمكن لأحد أن تكون له عداوة أو ضغينة تجاهنا.

- أنت لا تفهم عقلية أصحاب الرسائل المسمومة؛ فكل ما يقع أمام نظرهم يصلح موضوعاً لمكرهم. يمكنك القول إن حقدهم ينصب على الإنسانية عموماً.

قالت جوانا متأنلة: أظن أن هذا ما عنته السيدة كالثروب.

نظر ناش إليها متسائلاً، ولكنها لم توضح له. قال المفتش: لا أعرف إن كنت قد نظرت عن كثب إلى مخلف الرسالة التي تلقيتها يا آنسة بيرتن. إن كنت فعلت ذلك فلعلك لاحظت أنها كانت في الواقع مُعَنِّونة إلى الآنسة بارتن ثم حُوّل حرف الألف في بارتن إلى الياء بعد ذلك.

كان يجب أن تعطينا تلك الملاحظة -لو فُسرت بشكل صحيح- مفتاحاً لحل اللغز كله، لكن الذي حدث أن أحداً منا لم يلحظ فيها أهمية.

خرج ناش ويقيت مع جوانا فقالت: أتظن أن تلك الرسالة كانت مرسلة حقاً إلى الآنسة إميلي؟

- لو كانت كذلك فلا أظنها كانت ستبدأ بعبارة: «أيتها المومس المتبرجة»!

وافقتني جوانا. ثم اقترحت عليّ أن أذهب إلى البلدة قائلة: يجب أن تسمع ما يقوله كل واحد؛ سيكون هذا موضوع الصباح! اقترحت عليها الذهاب معي، ولكنها رفضت، الأمر الذي فاجاني قليلاً. قالت إنها تريد العبث في الحديقة، وقبل خروجي من الباب وقفت وقلت وأنا أخفض صوتي: أظن أن بارتريدج بريئة من ذلك؟

- بارتريدج!

جعلني الذهول الواضح في صوت جوانا أشعر بالخجل من فكري هذه. قلت بلهجة المعترض: كنت أسألك فقط. إنها «غريبة الأطوار» في بعض الأمور... عانس مخيفة... من ذلك النوع الذي يمكن أن نجد لديه هوساً دينياً.

- ولكن الدافع هنا ليس الهوس الديني... أو هذا ما أخبرتني بأن غريفز قد قاله.

- حسناً، هوس جنسي. فهمت أنهما مرتبطان معاً ارتباطاً وثيقاً. إنها مكبوة ومهذبة وقد عاشت هنا وراء أبواب مغلقة مع العديد من النساء العجائز لسنوات عديدة.

- ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

قلت ببطء: ليس لدينا إلا أتوالها هي عما قالته الفتاة أغنيس

لها، أليس كذلك؟ افترضي أن أغنيس قد طلبت من بارتريدج أن تخبرها لماذا جاءت (أي بارتريدج) وتركت رسالة في ذلك اليوم... وقالت بارتريدج إنها ستزورها عصر ذلك اليوم لشرح لها.

- ثم مؤهت ذلك بالمجيء إلينا والسؤال عن إمكانية قدم الفتاة هنا؟

- ٦ -

- لكن بارتريديج لم تخرج من البيت أبداً عصر ذلك اليوم.

- لا نعرف ذلك؛ كنا خارج البيت في ذلك الوقت، ألا تذكريين؟

- بلى، هذا صحيح؛ أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت جوانا وهي تقلب الأمر في ذهنها: ولكنني -مع هذا- لا أظن ذلك. لا أظن بارتريدرج تمتلك العقلية المناسبة للتغطية على آثارها في تلك الرسائل: مسح بصمات الأصابع وكل هذه الأمور. فالمرء لا يحتاج إلى المكر فقط، بل إلى المعرفة أيضاً. ولا أظن أنها تملك المعرفة. أحس أن...

ترددت جوانا ثم قالت ببطء: إنهم متأكدون أنها امرأة، أليس كذلك؟

هفتُ غير مصدق: لا أظنك تحسينه رجالاً؟

- ليس... ليس رجلاً عادياً... ولكن رجل من نوع معين. إنني
- في الحقيقة- أفكر في السيد باي.

- إذن فالسيد باي هو من وقع اختيارك عليه؟
- ألا تشعر أنت بأنه احتمال ممكّن؟ إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا وحيدين... تعيسين وحاذدين. الجميع هنا يكادون يهزؤون به. ألا تراه في داخله يكره كل الناس الطبيعيين السعداء، ويستمتع استمتاعاً شاذًا وغريبًا فيما يفعله؟
- قال غريفز إنها عانس في متوسط العمر.
- والسيد باي «عانس» في أواسط عمره.
- قلت ببطء: شاذ عن بيئته.
- هذا صحيح. إنه غني، ولكن المال لا يعني بشيء. أنا أشعر فعلاً أنه قد يكون مضطرباً عقلياً. إنه حقاً قزم محبف.
- تذكري أنه استلم رسالة من هذه الرسائل.
- نحن لا نعرف ذلك يقيناً... نظن ذلك فقط. وعلى أية حال ربما كان يمثل أماماً؛ إن له من الذكاء ما يجعله يفكر في ذلك، ولا يبالغ في تمثيله للدور.
- لا بد أن يكون ممثلاً من الدرجة الأولى.
- بالطبع يا جيري، إن أي واحد يقوم بهذا العمل لا بد أن يكون ممثلاً من الدرجة الأولى، وهذا ما يجعل في الأمر متعة.
- أرجوك يا جوانا، لا تتحدى بكل هذا الفهم! هذا يجعلنيأشعر بأنك... بأنك تفهمين العقلية التي تقف خلف هذا الأمر.

- أظن أنني أفهمها. أستطيع أن... أن أفهم المزاج الذي تنطلق منه. لو لم أكن جوانا بيرتن، ولو لم أكن شابة وجذابة إلى حد معقول وقدرة على الاستمتاع بوقتي، لو كنت... كيف أعبر عن ذلك؟... لو كنت حبيسة وراء القضبان أقرب الآخرين وهم يستمتعون بالحياة، فهل كان الشر الأسود سينمو في نفسي ويجعلني أرغب في الإيذاء والتعذيب... وحتى في التدمير؟

أمسكتها من كتفيها وهزّتها قائلًا: جوانا!

نهدت قليلاً وارتعدت ثم ابتسمت لي: لقد أخفتَكَ، أليس كذلك يا جيري؟ ولكنني أشعر بأن هذه هي الطريقة الصحيحة لحل هذه المشكلة. يجب أن تمثل وضع الشخص نفسه، وتعرف كيف يشعر وما الذي يجعله يتصرف، وعندها... وعندها ربما عرفت ما الذي سيفعله ذلك الشخص بعد ذلك.

- آه، تبا! وأنا الذي جئت إلى هذا المكان لأكون كسولاً وأهتم بالفضائح المحلية الصغيرة. هه! الفضائح المحلية الصغيرة؛ قذف وذم، وكلام بذيء، وجرائم قتل!

* * *

كانت جوانا محققة تماماً؛ فقد كان الشارع العام مليئاً بالمجموعات المهمة، وعزمت على معرفة رد فعل كل امرئ واحداً تلو الآخر.

التقيت أولأ بغريفيث، وقد بدا متعباً ومرضاً جداً لدرجة جعلتني أتعجب. إن جرائم القتل ليست -بالتأكيد- حدثاً يومياً في

حياة الطيب، ولكن مهمته تهيئة بالفعل لمواجهة معظم الأمور بما فيها المعاناة، والجانب البشع من الطبيعة البشرية، وحقيقة الموت.

قلت له: تبدو مرهقاً.

قال بشيء من الغموض: حقاً؟ آه! واجهتني بعض الحالات المقلقة مؤخراً.

- بما فيها حالة مجنوننا؟

- بالتأكيد.

أبعد نظره عني وحوله إلى الشارع. رأيت عصباً صغيراً يتنفس في جفنه. قلت له: أليست لديك أية شكوك بالنسبة ل الهوية الفاعل؟

- لا، لا. أتمنى مخلصاً لو كنت أعرف.

سأل فجأة عن جوانا ثم قال متربداً إن لديه بعض الصور التي كانت تريد رؤيتها. عرضت عليه أن آخذها لها فقال: آه، لا يهم. سأمر أمام بيتك في وقت لاحق من هذا الصباح.

بدأت أخشى أن يكون غريفيث قد أخذ موضوع جوانا على محمل الجد. تباً لجوانا! كان غريفيث أطيب من أن تضمه إلى قائمة انتصاراتها.

تركته يذهب لأنني رأيت أخته قادمة وأردت الحديث معها هذه المرة. بدأت إيمي غريفيث الحديث كما لو أنها تكمله بعد انقطاع: أمر مذهل تماماً! سمعت أنك كنت هناك... في وقت مبكر؟

كانت كلماتها على صيغة سؤال وقد لمعت عينها عندما شددت على الكلمة «مبكر». لم أرد أن أخبرها أن ميغان اتصلت بي، وبدلًا من ذلك قلت: كنت أشعر بشيء من عدم الارتياح ليلة أمس؛ كانت الفتاة ستأتي لشرب الشاي في بيتنا لكنها لم تظهر.

- ولذلك فقد خشيت وقوع الأسوأ؟ هذا ذكاء بالغ منك!

- نعم؛ أنا كلب صيد بشري.

- هذه أول جريمة قتل تقع عندنا في لايستوك، والانفعالات على أشدتها. أرجو أن يتمكن الشرطة من معالجة الأمر.

- هذا لا يقلقني؛ فهم رجال أكفاء.

- لا أستطيع حتى تذكر شكل الفتاة، رغم أنها فتحت لي الباب عشرات المرات فيما أظن. فتاة صغيرة الحجم هادئة لا شيء يميزها. ضربت على رأسها ثم طعنت في مؤخرة عنقها، هكذا قال أوين. يبدو لي أن ذلك من فعل صديق لها. ماذا ترى؟

- وهذا هو تصورك؟

- يبدو أرجح من غيره. أظنهما تشارجا معا، فكثير من الناس هنا ولدوا من زيجات الأقارب... ولذلك فإن لدى الكثير منهم شذوذًا وموروثات سيئة. وسكتت قليلاً ثم أكملت: يُقال إن ميغان هتر هي التي وجدت الجثة؟ لابد أنها أص比ت بصدمة عنيفة.

قلت باختصار: نعم.

- لا أظن هذا جيداً لها.رأي أنها لا تتمتع بالكثير من القوة العقلية، و شيء كهذا قد يصيبها بالجنون التام.

أخذت قراراً مفاجئاً، إذ أردت أن أعرف شيئاً. قلت:
أخبريني يا آنسة غريفيث، أنت التي أقنعت ميغان بالعودة إلى بيتها
بالأمس؟

- حسناً، ما كنت لاستعمل كلمة «أقنعتها» بالضبط.

اصررت على موقفى وقلت: ولكنك قلت لها شيئاً؟

ثبتت إيمي غريفيث قدميها بقوة ونظرت إلى وجهها. كانت في موقف دفاعي إلى حد ما، قالت: ليس من الجيد أن تهرب تلك الفتاة من مسؤولياتها؛ فهي شابة ولا تعرف كيف تدور الألسن، ولذلك شعرت أن من واجبي أن ألمح لها بشيء.

- الألسن...؟

سكت لأنني لم أستطع مواصلة الكلام من شدة الغضب.
أكملت إيمي غريفيث تتكلم مظهراً خصلتها الرئيسية التي تشير الجنون، خصلة الثقة بالنفس والرضا عن الذات: آه، أحسبك لا تسمع الشائعات التي تدور في البلدة، أما أنا فأعترفها! أعرف ما يقوله الناس. رغم أنني لا أظن -لحظة واحدة- أن فيما يقولونه شيئاً من الصحة... أبداً! ولكنك تعرف طبيعة الناس... إذا ما وجدوا فرصة لقول شيء فإنهم يقولونه! وسيكون ذلك من سوء حظ الفتاة عندما تريد أن تكسب عيشها.

قلت متراجعاً: تكسب عيشها؟

أكملت إيمي: هو موقف صعب بالنسبة لها طبعاً، وأعتقد أنها فعلت عين الصواب. أقصد أنها لم تكن تستطيع الرحيل دون إنذار مسبق وترك الأطفال دون وجود أحد يرعاهم. لقد كانت رائعة... رائعة جداً. إنني أقول ذلك للجميع! ولكن هذا ما وصل إليه الأمر... إنه موقف مثير للاستياء، وسوف يتكلم الناس.

- عمن تتكلمين؟

قالت إيمي غريفيث بنفاذ صبر: عن إلسي هولاند بالطبع. إنها - برأيي - فتاة لطيفة جداً، ولم تكن تقوم إلا بعملها.

- وما الذي يقوله الناس؟

ضحكـت إـيمـي غـريفـيثـ، ورأـيت ضـحـكتـهاـ كـريـبةـ بـعـضـ الشـيءـ: يـقولـونـ إنـهاـ تـفـكرـ فـعـلـاـ فـيـ إـمـكـانـيـةـ أـنـ تـصـبـحـ السـيـدـةـ سـيـمـنـغـتنـ رقمـ ٢ـ ...ـ وإنـهاـ تـبـذـلـ كـلـ جـهـودـهاـ لـموـاسـاـةـ الـأـرـمـلـ وـوـضـعـ نـفـسـهاـ فـيـ موـضـعـ منـ لاـ يـمـكـنـ الـاستـغـنـاءـ عـنـهـ.

قلـتـ مـصـدوـماـ:ـ وـلـكـنـ،ـ يـاـ إـلـهـيـ!ـ لـمـ يـمـضـ عـلـىـ وـفـاةـ السـيـدـةـ سـيـمـنـغـتنـ سـوـىـ أـسـبـوـعـ وـاحـدـ!

رفـعـتـ إـيمـيـ كـتـفيـهاـ اـسـتـهـجـانـاـ وـقـالـتـ:ـ بـالـطـبـعـ،ـ إـشـاعـاتـ سـخـيـفةـ!ـ وـلـكـنـ تـعـرـفـ طـبـيـعـةـ النـاسـ،ـ فـالـفـتـاةـ إـلـسيـ هـوـلـانـدـ شـابـةـ وـجـمـيـلـةـ...ـ وـهـذـاـ يـكـفـيـ.ـ تـذـكـرـ أـنـ عـمـلـ مـرـيـةـ أـطـفـالـ لـاـ يـعـتـرـفـ مـسـتـقـبـلـاـ جـيـداـ بـالـنـسـبـةـ لـأـيـةـ فـتـاةـ.ـ مـاـ كـنـتـ لـأـلـومـهـاـ إـنـ أـرـادـتـ بـيـتاـ مـسـتـقـرـاـ وـزـوـجـاـ وـقـامـتـ بـلـعـبـ أـورـاقـهـاـ وـفـقـاـ لـذـلـكـ.

ثم أكملـتـ:ـ إـنـ الـمـسـكـيـنـ سـيـمـنـغـتنـ لـاـ يـعـرـفـ بـالـطـبـعـ شـيـناـ عـنـ كـلـ

ذلك! إنه ما زال يعاني من الصدمة التي أحدثتها وفاة مونا سيمونغتن، ولكنك تعرف طبيعة الرجال! إذا كانت الفتاة إلى جانبه دوماً، توفر له أسباب الراحة، وتعتني به، وتظهر إخلاصاً واضحاً للأطفال... عندها يصبح معتمداً عليها.

قلت بهدوء: إذن فأنت ترين أن إلسي هولاند لعوب ذات كيد وتحظى به؟

احمر وجه إيمي غريفيث وقالت: إطلاقاً. إنني آسف لتلك الفتاة... لكل ما يقوله الناس من أقاويل كريهة! هذا هو ما جعلني أخبر ميغان -بطريقة ما- بأن عليها أن تذهب إلى بيتها. هذا يبدو أفضل من أن تعيش الفتاة والسيد سيمونغتن في البيت وحدهما.

بدأت أفهم الأمور.

أطلقت إيمي غريفيث ضحكتها المبتهجة وقالت: لقد صدمت يا سيد بيرتن من سمع ما تفكّر به بلدتنا الثرثارة الصغيرة. بوعي أن أؤكد لك التالي: إنهم دائماً يفترضون الأسوأ!

ضحكت وأوّمأت برأسها ثم ذهبت.

* * *

التقيت بالسيد باي قرب الكنيسة فيما كان يتحدث مع إميلي بارتن التي بدت محمرة الوجه متفعلة. حينما السيد باي بحرارة واضحة قائلاً: آه، بيرتن، صباح الخير، صباح الخير! كيف حال أختك الفتاة؟

أخبرته بأن جوانا بخير، فقال: ولكنها لم تنضم إلى برلمان قريتنا؟ نحن جميعاً متلهفون للأخبار. جريمة قتل! جريمة قتل حقيقية كتلك التي تُكتب في الصحف، وتقع بيننا! لا أحس بها من تلك الجرائم المشيرة جداً، فهي جريمة قدرة إلى حد ما؛ قتل وحشي لخادمة صغيرة. لا يوجد فيها جوانب دقيقة عالية المستوى، ولكنها مع ذلك خبر لا يمكن إنكاره.

قالت الآنسة بارتن وهي ترتعش: إنها تثير الصدمة تماماً.

التفت السيد باي إليها وقال: لكنك تستمعين بها، يا عزيزتي، تستمعين بها.. اعترفي بذلك الآن! أنت تستنكرينها ولا توافقين عليها، ولكن تبقى الإثارة. أنا أصر على أن فيها إثارة!

قالت إميلي بارتن: كانت فتاة لطيفة. جاءت إلي من ملجم سانت كلوييلد فتاة غرّة تماماً، ولكنها شديدة القابلية للتعلم، وقد غدت خادمة لطيفة جداً. كانت بارترidding مسروقة جداً منها.

قلت بسرعة: كانت ستأتي لشرب الشاي مع بارترidding عصر أمس. ثم التفت إلى باي وقلت: أظن أن إيمي غريفيث أخبرتك.

قلت ذلك بنبرة عرضية عادية تماماً، وأجبت باي دون أن يظهر عليه الارتياح: نعم، ذكرت هذا لي. أذكر أنها قالت إنه لأمر جديد من الخدم أن يتصلوا على هواتف مخدوميهم.

قالت الآنسة إميلي: لم تكن بارترidding لتحلم أبداً بفعل شيء كهذا، وإنني مدحوشة حقاً من إقدام أغنىيس على ذلك.

قال السيد باي: أنت تتنمرين لزمان مضى يا عزيزتي. إن خادمي

يستخدمان الهاتف باستمرار، وكانا يدخلان في جميع أرجاء البيت إلى أن اعترضت عليهما. ولكن المرأة لا يجرؤ على قول الكثير، فالسيد بريسكوت طباخ رائع، رغم مزاجيته، والسيدة بريسكوت خادمة تبعث على الإعجاب.

- نعم، نحن جميعاً نراك محظوظاً جداً بهما.

تدخلت إذ لم أرد أن يتحول الحديث إلى الخدم: لقد انتشر خبر الجريمة بسرعة كبيرة.

قال السيد باي: بالطبع، بالطبع. إنها على لسان كل من هب ودب. إن لايمستوك تتدحرج مع الأسف: رسائل مجهرولة، جرائم قتل، والكثير من الظواهر الإجرامية!

قالت إميلي بارتن بعصبية: إنهم لا يرون... لا توجد أية فكرة بأن... بأن الأمرين مرتبطان.

التقط السيد باي هذه الفكرة بلهفة وقال: هذا تخمين مثير للاهتمام. كانت الفتاة تعرف شيئاً، ولذلك قُتلت. نعم، لهذا حدس رائع. يا لذكاء هذه الفكرة منك.

قالت إميلي بارتن فجأة: أنا... أنا لا أستطيع تحمل ذلك.

ثم دارت ومضت مسرعة وبأي ينظر إليها. كان وجهه الملائكي مزدوماً من الحيرة، ثم التفت إلي وهز رأسه بلطف وقال: امرأة حساسة. ألا تظن أنها امرأة رائعة؟ قطعة أثرية لعهد غابر. فهي لا تتمنى حتى لجيدها نفسه، بل لجييل سابق لها. لا بد أن أمها كانت امرأة قوية الشخصية؛ أظن أنها أبقت التوقيت في عائلتها متوقفاً عند

العام ١٨٧٠ تقريباً. وبقيت العائلة كلها محفوظة في قفص زجاجي.
إنني أحب الالتقاء بمثل هذا النوع من الناس!

لم أرغب بالحديث عن القطع الأثرية، فسألته: ما هو رأيك
حقاً في هذا الأمر كله؟

- ماذا تقصد؟

- الرسائل المجهولة، جريمة القتل...

- موجة الجرائم المحلية عندنا؟ ماذا ترى أنت؟

قلت مرحباً: أنا الذي سألك أولاً؟

قال السيد باي بلطف: أنا من هوا دراسة الشواد؛ فهم يشرون
اهتمامياً. أنت قد تجد تصرفات في غاية الغرابة لدى أناس يظهرون
بعيدين عن مثل هذه الممارسات. خذ على سبيل المثال قضية ليزي
بوردن؛ لا يوجد تفسير معقول لهذه القضية. إن نصيحتي للشرطة
في هذه الحالة هي: ادرسوا الشخصية. اتركوا بصمات الأصابع
وقياسات خط اليد والعمل المجهري، وبدلأ من ذلك لاحظوا ماذا
يفعل الناس بأيديهم، وما هي الحركات الصغيرة في طريقة تصرفهم،
والطريقة التي يأكلون بها طعامهم، وهل يضحكون أحياناً دون سبب
واضح...

رفعت حاجبي دهشة وقلت: أتعني أنه مجنون؟

- نعم، مجنون تماماً، تماماً. ولكنك لن تعرف ذلك أبداً!

- من يكون؟

نظر إلى وابتسم قائلاً: كلا، كلا يا بيرتن، سيكون ذلك قذفاً.
ولا نستطيع إضافة القذف إلى بقية ما نراه حولنا.

ثم انطلق مسرعاً في الشارع.

* * *

بينما كنت أقف وأحدق إليه وهو يبتعد، فتح باب الكنيسة
وخرج منه الكاهن كالثروب. ابتسם لي ابتسامة غامضة وقال:
صباح... صباح الخير يا سيد... يا سيد...
ساعدته قائلاً: بيرتن.

- بالطبع، بالطبع، يجب أن لا تظن أنني نسيتك. لقد سقط
اسمك من ذاكرتي للحظة فقط. إنه يوم جميل.
قلت بشيء من الاقتضاب: نعم.

أمعن النظر إلي و قال: ولكن... آه، نعم، تلك الفتاة المسكينة
التي كانت تخدم في بيت سيمونغتن. لا بد أن أتعرف بأنني لا أستطيع
تصديق وجود قاتل بيننا يا سيد... يا سيد بيرتن.

- يبدو ذلك بالفعل غريباً بعض الشيء.

مال نحو و قال: لقد بلغ مسامعي شيء آخر؛ علمت أن
رسائل مجهولة تنتشر في البلدة. هل سمعت مثل هذه الإشاعات؟
نعم، سمعت.

- تصرفات جبانة خسيسة.

سكت ثم استشهاد بسيل دافق من الكلام اللاتيني وقال: إن تلك الكلمات تنطبق على واقعنا هذا كثيراً. أليس كذلك؟

قلت باقتضاب: بالتأكيد.

* * *

لم أجد أحداً آخر يفيدني الحديث معه، ولذلك عدت إلى البيت، ولكنني مررت في طريقي على محل لأشتري بعض التبغ وألستمع إلى بعض الآراء الأكثر تواضعاً بخصوص الجريمة.

- متشرد قذر.

هكذا بدا حكم صاحب المحل فيما يخص هوية المجرم. وقد أضاف قائلاً: إنهم يأتون إلى أبواب المنازل ويتحبون ويطلبون نقوداً، فإن وجدوا في البيت فتاة وحيدة انقلبوا إلى أشرار. لقد تعرضت أخي دوراً هناك في كومبيكر لتجربة بغية في أحد الأيام... كان مخموراً، وبيع تلك الأشعار المطبوعة...

واستمرت الحكاية، وانتهت بقيام دورا الجسورة بإغلاق الباب في وجه الرجل والتمترس في ملجاً غامض داخل البيت، فهمت من تحسسه من ذكره أنه الحمام دون ريب. "وقد بقى هناك إلى أن عادت سيدتها إلى البيت!"

وصلت ليتل فيرز قبل موعد الغداء ببضع دقائق. كانت جوانا واقفة عند الباب الزجاجي لغرفة الجلوس لا تفعل شيئاً، وقد بدت أفكارها بعيدة جداً. سألتها: ماذا كنت تفعلين وحدك؟

- آه، لا أعرف. لا شيء محدداً.

خرجت إلى الشرفة. كان فيها كرسيان قد سُجنا إلى طاولة حديدية، وكان عليها كأسا عصير فارغان، وعلى كرسي آخر كان شيء نظرت إليه بحيرة وقلت: ما هذا؟

قالت جوانا: أحسبها صورة لطحال مريض أو شيء من هذا القبيل. يبدو أن الدكتور غريفيث ظنتي مهتمة بهذا الموضوع.

نظرت إلى الصورة ببعض الاهتمام. ولئن كانت لكل رجل طريقته الخاصة في مغازلة النساء، فإني ما كنت شخصياً لأفعل ذلك باستخدام صور الطحال، سواء كان مريضاً أو غير مريض. ومع ذلك لا شك بأن جوانا هي التي جئت على نفسها!

قلت: تبدو صورة كريهة جداً.

وافقتني جوانا على أنها كريهة بالفعل. وسألتها: كيف كان غريفيث؟

- بدا مرهقاً وحزيناً جداً. أظن أن في ذهنه شيئاً.

- طحالاً لم ينجح معه العلاج؟

- لا تكن سخيفاً! أقصد شيئاً حقيقياً.

- أظن أنك أنت التي في ذهن الرجل. أرجو أن تبتعدى عنه يا جوانا.

- آه، أرجوك أن تسكت، فأنا لم أفعل شيئاً.

- النساء دائماً يقلن هذا.

خرجت جوانا من الغرفة غاضبة. وكانت صورة الطحال المريض قد بدأت تتجدد تحت الشمس فامسكت بها من إحدى الروايا وأدخلتها إلى غرفة الاستقبال. لم أكن معجبًا بها شخصياً، ولكنني افترضت أنها واحدة من كنوز غريفيث. انحنىت وسحبت كتاباً كبيراً من رف سفلي في خزانة الكتب حتى أضيع الصورة بين أوراقه لتعود إلى استقامتها، وكان الكتاب مجلداً ثقيلاً.

انفتح الكتاب بين يدي بطريقة فاجأتني قليلاً، ولكنني سرعان ما عرفت السبب؛ فمن وسط المجلد تم قصّ عدد من الصفحات بطريقة مرتبة.

* * *

وقفت أحدق إليه، ثم نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أنه قد نشر عام ١٨٤٠. لم يكن في المسألة أي شك على الإطلاق؛ فقد كنت أنظر إلى الكتاب الذي جمعت من صفحاته كلمات الرسائل المجهولة. من الذي قصّها؟

حسناً، أولاً، يمكن أن تكون إميلي بارتون نفسها، وربما كانت هي الشخص الواضح الذي تتجه إليه الأنظار، أو قد تكون بارتريديج.

ولكن كانت توجد احتمالات أخرى عديدة. يمكن أن تكون الصفحات قد قُطعت من قبل أي شخص يقي في هذه الغرفة وحيداً، من قبل زائر جلس هناك يتضرر الآنسة إميلي مثلاً، أو ربما يكون أي شخص جاء لزيارتها في عمل ما.

كلا، لم يكن ذلك مرجحاً كثيراً؛ فقد لاحظت ذات يوم -عندما جاء موظف البنك لرؤيتي- أن بارتردج أدخلته إلى المكتب الصغير في آخر البيت. من الواضح أن ذلك هو ما جرت عليه العادة في هذا البيت.

أيكون زائراً إذن؟ شخصاً ذا «مكانة اجتماعية مرموقة»؟ السيد باي؟ إيمي غريفيث؟ السيدة كالثروب؟

* * *

فرغ جرس الطعام وذهبت لتناول الغداء. وبعد ذلك، عندما كنا في غرفة الاستقبال، أطلعت جوانا على اكتشافي. ناقشتنا الأمر من جميع جوانبه، ثم أخذت الكتاب إلى مركز الشرطة.

سرروا جميعاً من هذا الاكتشاف وهنؤونني على شيء لم يكن إلا مجرد حظ. لم يكن غريزه هناك، ولكن ناش كان موجوداً، وقد اتصل بزميله بالهاتف. واتفقا على فحص الكتاب بحثاً عن بصمات الأصابع، رغم أن ناش لم يكن متفائلاً باكتشاف شيء. ويمكن القول إنه لم يجد شيئاً بالفعل فلم تكن على الكتاب سوى بصماتي وبصمات بارتردج فحسب، مما يظهر أن بارتردج كانت تنظف كل شيء بإخلاص.

سار ناش معي في طريق عودتي صعوداً على التلة. سألته كيف تجري الأمور معه فقال: إننا نضيق نطاق الاحتمالات يا سيد بيرتن، فقد حذفنا الأشخاص المستبعدين.

- آه. ومن بقي؟

- الآنسة غينش. كان يفترض أن تلتقي بأحد الزبائن في أحد البيوت عصر أمس بناء على موعد سابق. لم يكن البيت بعيداً على طريق كومييكر، وهو الطريق الذي يمر عبر بيت سيمونغتن. كانت ستمر أمام البيت في ذهابها وفي عودتها... وفي الأسبوع الذي سبق، يوم سُلّمت الرسالة المجهولة وانتحرت السيدة سيمونغتن، كان ذلك هو آخر أيامها في مكتب سيمونغتن. وقد ظن السيد سيمونغتن في البداية أنها لم تغادر المكتب أبداً عصر ذلك اليوم. كان معه السير هنري لاشينغتون طيلة العصر، وقد اتصل بالآنسة غينش عدة مرات، ومع ذلك فقد اكتشفت أنها غادرت المكتب بين الساعة الثالثة والرابعة؛ خرجت لشراء بعض الطوابع البريدية التي نفت من المكتب. كان بوسها إرسال صبي المكتب لشراء الطوابع، ولكنها اختارت أن تذهب بنفسها قائلة إنها مصابة بالصداع وتحب استنشاق بعض الهواء الطلق، ولم تغب طويلاً.

- ولكنها غابت بما يكفي؟

- نعم، غابت بما يكفي للذهاب سريعاً إلى الطرف الآخر من القرية ودم رسالة في الصندوق والعودة مرة أخرى. ولكن لا بد لي من القول إن أحداً لم يرها قرب بيت سيمونغتن.

- أكان من شأن أحد أن يلحظها؟

- ربما، وربما لا.

- ومن غيرها في جعبتك؟

نظر ناشر أمامه بصورة مستقيمة وقال: أنت تفهم أننا لا نستطيع استثناء أي شخص... أي شخص على الإطلاق.

- نعم، أفهم ذلك.

قال بتجهم: لقد ذهبت الآنسة غريفيث إلى بريتن لحضور اجتماع لفتيات الكشافة بالأمس، وقد وصلت إلى هناك متأخرة.

- لا أحسبك تظن...

- كلا، لا أظن. ولكنني لا أعرف. إن الآنسة غريفيث تبدو امرأة عاقلة وواعية تماماً... ولكن، كما قلت، لا أعرف.

- وماذا عن الأسبوع الماضي؟ أيمكن أن تكون قد دست الرسالة في الصندوق؟

- ممكן، فقد كانت تسوق في البلدة عصر ذلك اليوم.

سكت قليلاً ثم قال: نفس الأمر ينطبق على إميلي بارتن. كانت قد خرجت للتسوق في وقت مبكر من بعد ظهر أمس، وذهبت مشياً على الأقدام لرؤية بعض صديقاتها على الطريق الذي يمر أمام بيت سيمونغن الأسبوع الماضي.

هززت رأسي غير مصدق. كنت أعرف أن العثور في منزل ليتل فيرز على الكتاب الذي قُشت منه الأوراق سيؤدي حتماً إلى توجيه الانتباه نحو صاحبة البيت، ولكنني عندما تذكرت قدوم الآنسة إميلي بالأمس بكل ذلك الإشراق والسعادة والانفعال...

تباً للأمر كله... الانفعال... نعم، كانت منفعلة... بخددين

متوردين، وعيدين لامعتين... من المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب...
لم يكن لأنها...

قلت على نحو غامض: ما أسوأ هذا الأمر على المرء! فهو يجعله يرى أشياء عديدة... ويتصور أشياء كثيرة...

قال ناش: نعم، ليس من المفرح كثيراً أن ينظر المرء إلى من يلتقيهم من زملائه البشر على أنهم مجرمون مهووسون. وسكت لحظة ثم أكمل: ولدينا السيد باي...

قلت بحدة: أَوْقَدْ فكرتم فيه إذن؟

ابتسم ناش وقال: آه، نعم، فكرنا فيه دون شك. شخصية غريبة جداً... ولا أظنهما شخصية لطيفة كثيراً. ليس لديه ما يثبت مكان وجوده ساعة الجريمة. كان في حدائقه وحيداً في كلا الحادتين.

- إذن فأنتم لا تشتبهون بالنساء فقط؟

- لا أظن أن من كتب الرسائل رجل... بل إنني متتأكد من ذلك في الواقع، وكذلك غريفز، مع وضعنا لصاحبنا السيد باي في أذهاننا دوماً، ذلك أن في شخصيته بعض الملامة الأنوثية الشاذة. لكننا راجعنا تحرّكات الجميع بالنسبة لعصر أمس؛ فهذه جريمة قتل كما تعلم. وضعك أنت على ما يرام، وكذلك أختك، والسيد سيمونغتون الذي لم يغادر مكتبه بعد أن وصل إليه، وكذلك الدكتور غريفيث الذي كان يقوم بجولة على المرضى في الجانب الآخر من البلدة، وقد تحققت من الزيارات التي قام بها.

سكت، ثم ابتسم ثانية وقال: نحن -كما ترى- لا نترك شيئاً للصدق.

قلت بيضاء: إذن فقد تمت تصفية القضية بحيث لم يتبق إلا هؤلاء الأربع: الآنسة غينش، والسيد باي، والآنسة غريفيث، والآنسة بارتن؟

- آه، كلا، لدينا اثنان غيرهم... إلى جانب زوجة الكاهن.

- هل فكرتم فيها؟

- فكرنا في الجميع، ولكن جنون السيدة كالثروب أكثر صراحة ووضوحاً من أن تكون هي، إن كنت تفهم ما أعنيه. ومع ذلك يمكن أن تكون قد فعلتها. كانت في الغابة ترقب الطيور عصر أمس... ولا يمكن للطير أن تشهد لصالحها.

التفت بحدة عندما دخل أوين غريفيث إلى مركز الشرطة قائلاً: مرحباً يا ناش. سمعت أنك كنت تسأل عنى هذا الصباح. هل من شيء مهم؟

- سيكون التحقيق يوم الجمعة إن كان ذلك يلائمك يا دكتور غريفيث.

- جيد، سنقوم أنا ومورسي بتشريع الجنة هذه الليلة.

قال ناش: شيء آخر يا دكتور غريفيث. كانت السيدة سيمونغتون تتناول بعض الأقراص أو الكبسولات التي وصفتها لها...

ثم سكت، فقال أوين غريفيث متسللاً: نعم؟

- هل كان من شأن جرعة زائدة من هذه الأقراص أن تكون قاتلة؟

قال غريفيث بجفاء: كلا، بالتأكيد. إلا إذا تناولت خمسة وعشرين فرصةً مثلاً!

- لكنك حذرتها مرة من تجاوز الجرعة المقررة كما أخبرتني الآنسة هولاند.

- نعم، هذا صحيح. فقد كانت السيدة سيمونتن من ذلك النوع الذي يمكن أن يعمد إلى المبالغة في تناول أي شيء يوصف له... تخيل أن مضاعفة الجرعة يعني مضاعفة التحسن، لكننا لا نريد لأي مريض أن يضاعف جرعته حتى لو كانت من الأسبرين؛ فمثل هذا مضير. وعلى أية حال، ليس هناك أي شك على الإطلاق في سبب وفاتها؛ فقد حدثت بسبب السيانيد.

- آه، أعرف ذلك... أنت لم تدرك قصدي. لقد رأيت فقط أن من ي يريد الانتحار سيفضلأخذ جرعة مضاعفة من المنوم على إطعام نفسه حمض البروسيك.

- صحيح. ولكن حمض البروسيك -من ناحية أخرى- أكثر درامية، ويؤدي الغرض بصورة أكيدة. ولو تناول المتحرّم مادة منومة مثلاً فمن الممكن إسعافه إذا أدركته في الوقت المناسب.

- فهمت، أشكرك يا دكتور غريفيث.

غادر غريفيث، وودع ناش، وعدت إلى البيت صاعداً التلة بيضاء. كانت جوانا خارج البيت... أو لم تكن فيه أية إشارة

على وجودها على الأقل، وكانت هناك ملاحظة مبهمة مكتوبة بخط سريع على حاملة الهاتف، والمفترض أنها كانت توجيهها إما لي أو لبارتريدج: "إذا اتصل الدكتور غريفيث فلا يمكنني المضي يوم الثلاثاء، ولكن يمكن ترتيب ذلك يوم الأربعاء أو الخميس".

رفعت حاجبي ودخلت غرفة الاستقبال، حيث جلست على أكثر الكراسي راحة (ولم يكن أيّ منها مريحاً تماماً لأن ظهورها مستقيمة وهي من بقايا المرحومة السيدة بارتُن) ومددت ساقتي وحاولت التفكير في الأمر كله.

تذكرة -بانزعاج مفاجئ- أن وصول أوين قد قطع عليّ حديثي مع المقتش وأنه كان قد ذكر لتوه وجود شخصين آخرين مشتبه بهما. وتساءلت عن هوية هذين الشخصين: أ تكون بارتريدج واحدة منهما؟ فالكتاب الذي قُصّت منه الأوراق وُجد في هذا البيت ويمكن أن تكون أغبيس قد ضربت على يد مرشدتها وراعيتها وهي غافلة لا تشک بشيء. كلا، لا يمكن استبعاد بارتريدج. ولكن من هو الآخر؟ أيّكون شخصاً قد لا أعرفه؟ السيدة كليت؟ المشبوهة الأولى في القرية؟

أغمضت عيني وفكّرت في أربعة أشخاص واحد تلو الآخر، والغريب أنهم كانوا غير مرجحين. أ تكون إميلي بارتُن اللطيفة الضئيلة الضعيفة؟ ما هي النقطة الموجودة عملياً ضدّها؟ حياة الحرمان؟ الكبت والسيطرة اللذين تعرضت لهما منذ طفولتها المبكرة؟ التضحيات الكثيرة التي كانت مطلوبة منها؟ ربّها الغريب من مناقشة أيّ موضوع «ليس لطيفاً»؟ أكان ذلك عملياً مؤشراً على

انشغل داخلي مرضي بتلك الموضوعات نفسها؟ أحسست أنني أصبحت فرويدياً إلى درجة فظيعة. تذكرت أن أحد الأطباء أخبرني يوماً بأن هلوسات السيدات العوانس اللطيفات عندما يقعن تحت تأثير المخدر كانت كشفاً مذهلاً؛ قال لي: ما كان المرء ليظن أنهن يعرفن مثل تلك الكلمات!

إيمي غريفيث؟ لم يكن فيها -بالتأكيد- شيء مكتوب أو محبط. امرأة مرحة مسترجلة ناجحة، وحياة مليئة مشغولة. ومع ذلك فقد قالت السيدة كالثروب عنها: «فتاة مسكونة!».

وكان هناك شيء... شيء ما... آه! تذكرته. لقد قال أورين غريفيث شيئاً من قبيل: "لقد حدثت موجة من تلك الرسائل المجهولة في الشمال حيث كنت أعمل". أكان ذلك أيضاً من عمل إيمي غريفيث؟ من المؤكد أن تلك مصادفة لا تكاد تصدق: أن تحدث موجتاً رسائل من نفس النوع. ولكن تمهل لحظة، فقد عثر الشرطة على كاتبة تلك الرسائل. لقد قال غريفيث ذلك، وكانت طالبة مدرسة.

أصبح الجو بارداً فجأة... لا بد أنه تيار هوائي من النافذة. تقلبت على الكرسي متزعجاً. لماذا شعرت فجأة بهذا الإحساس الغريب وهذا الإنزعاج؟

امض في تفكيرك... إيمي؟ أ تكون كاتبة تلك الرسائل هي إيمي غريفيث وليس تلك الفتاة الأخرى؟ ربما جاءت إيمي إلى هنا وبدأت بممارسة حيلها ثانية، ولهذا كان أورين غريفيث يبدو تعسياً شديداً القلق؛ لقد شك بالحقيقة. نعم، لقد شك...

أم تراه يكون السيد باي؟ إنه - بطريقة ما - ليس بالرجل اللطيف جداً. يمكّني تصوره وهو يقوم بهذا الأمر كله.. ضاحكاً!

تلك الرسالة المكتوبة على حاملة الهاتف في الصالة... لماذا أواصل التفكير فيها؟ غريفيث وجوانا... كان يقع في حبها... ولكن لا، لم يكن ذلك هو السبب الذي جعل الرسالة تقلقني. كان شيئاً آخر...

كانت حواسِي تسُبُّح، وكان النوم قريباً مني. كررت في نفسي بغباء: "لا دخان بلا نار. لا دخان بلا نار... هذه هي الحقائق كلها تترابط معاً...". ويعدها رأيتُني أسير في الشارع مع ميغان، ومرت إلسي هولاند. كانت تلبس ثياب العروس والناس يتمتمون: سوف تتزوج الدكتور غريفيث أخيراً، فقد كانوا طبعاً مخطوبين سراً منذ سنوات...

كنا في الكنيسة، وكان كالثروب يقرأ الخطبة باللاتينية، وفي وسط الخطبة قفزت السيدة كالثروب من مقعدها وصاحت بقوّة: يجب إيقاف هذا... يجب إيقاف هذا!

ولبعض لحظات لم أعرف إن كنت نائماً أم مستيقظاً. ثم صفا ذهني، وأدركت أنني كنت في غرفة الاستقبال في ليتل فيرز وأن السيدة كالثروب قد دخلت لتوها من الباب الزجاجي وكانت تقف أمامي وتقول بغضب وعصبية: يجب إيقاف هذا.

قفزت قائلاً: أرجو المغفرة، لم أسمعك؛ أخشى أنني كنت نائماً. ماذا قلت؟

ضررت السيدة كالثروب بقبضتها على راحة يدها الأخرى بقوة
وقالت: يجب وقف هذا. هذه الرسائل... جرائم القتل... لا يمكن
الاستمرار في قتل أطفال أبرياء أمثال أغنيس وُدل!

- أنت محققة تماماً، ولكن كيف تنوين إيقافها؟

- يجب أن نفعل شيئاً!

ابتسمت، وربما كان في ابتسامتي شيء من الفوقة، ثم قلت:
وما الذي تفترحين علينا عمله؟

- يجب توضيح كل شيء! لقد قلت إن هذه ليست بلدة شريرة.
ولكني كنت مخطئة، إنها شريرة.

شعرت بالضيق، وقلت بشكل لم أرَع فيه كثيراً من الأدب:
نعم يا سيدتي العزيزة، ولكن ماذا ستفعلين؟

- أضع حداً لهذا الأمر كله بالطبع.

- الشرطة يبذلون كل جهدهم.

- إن كانت أغنيس قد قُتلت بالأمس فإن كل جهدهم ليس
كافياً.

- إذن فأنت تعرفين أفضل منهم؟

- أبداً. أنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق، ولهذا سأستدعي
خبريراً.

هزّت رأسي وقلت: لا يمكنك فعل ذلك؛ إذ أن سكون لانديارد

لا تتدخل إلا ببناء على طلب من رئيس الشرطة في المقاطعة، وقد قامت في الواقع بإرسال غريفز.

- لا أقصد خبيراً من هذا النوع. لا أقصد شخصاً يعرف عن هذه الرسائل المجهولة أو حتى عن جرائم القتل. أقصد شخصاً يعرف الناس. ألا تفهم؟ نريد شخصاً يعرف الكثير عن الشر!

كانت وجهة نظر غريبة، ولكنها كانت مُحفزةً على نحو ما. وقبل أن أنفوه بأية كلمة أخرى أومأت السيدة كالثروب برأسها لي وقالت بنبرة سريعة وواثقة: أنا سأتولى ذلك في الحال.

ثم خرجت من الباب الزجاجي مرة أخرى.

* * *

الفصل العاشر

أظن أن الأسبوع الذي تلا ذلك كان من أكثر الأسابيع التي مرت علىي غرابة. كان في أحدهاته شيء أشبه بالأحلام، إذ لم يبدُ أي شيء حقيقياً.

تم التحقيق في مقتل أغنيس وُدل، وحضره كل سكان لايمستوك الفضوليين. لم تظهر أية حقائق جديدة وعاد نفس الحكم المتوقع: «جريمة قتل بواسطة مجهول أو مجهولين».

وهكذا تم دفن المسكينة أغنيس وُدل في مقبرة الكنيسة القديمة الهدائة بعد أن نالت نصيبها من الاهتمام العام، واستمرت الحياة في لايمستوك كما كانت عليه من قبل. ولكن كلا، تلك العبارة الأخيرة ليست صحيحة؛ ليس كما كانت عليه من قبل ...

ففي عين كل امرئ من سكان البلدة كانت التماعنة نصفها رعب ونصفها لهفة وجشع، وأخذ الجار ينظر إلى جاره. لقد اتضحت في التحقيق نقطة واحدة... وهي أن من المستبعد تماماً أن يكون قاتل أغنيس وُدل شخصاً غريباً عن البلدة، إذ لم يلحظ أحد وجود مشردين أو رجال غير معروفين في المنطقة. كان -إذن- في مكان

ما في لايستوك شخص يسبر في الشارع العام، يتسوق، ويقضي ساعات النهار، بعد أن حطم جمجمة فتاة لا حول لها ولا قوة وغرس سيخاً حاداً في رأسها. ولم يعرف أحد من هو ذلك الشخص!

وكم أقلت، مررت الأيام كأنها حلم. كنت أنظر إلى كل من التقى وفق منظور جديد، منظور الخشية من أن يكون قاتلاً محتملاً. ولم تكن تلك بالتجربة المريرة! وفي الأماسي، عندما تُسدل ستائر، كنت أجلس مع جوانا نتحدث ونتحدث ونناقش جميع الاحتمالات التي بقيت -رغم ذلك- مُستبعدة لا يمكن تصديقها.

تمسكت جوانا بنظريتها القائلة إن الفاعل هو السيد باي. أما أنا فقد عدتُ بعد قليل من التردد إلى مشبوبتي الأصلية، الآنسة غينش. ولكتنا نقاشنا الأسماء المحتملة مرة تلو الأخرى: السيد باي... الآنسة غينش...السيدة كالثروب... بارتريديج... إيميلي غريفيث... إميلي بارتن؟

وكنا -طيلة هذه الفترة- ننتظر بعصبية وخشية وقوع شيء، ولكن لم يقع شيء. لم يتلق أحد -حسب علمنا- أية رسائل أخرى. كان ناش يظهر في البلدة بصورة دورية، ولكني لم أكن أعرف ماذا كان يفعل وما هي الفخاخ التي كان ينصبها، وكان غريفز قد رحل مرة أخرى.

جاءتنا إميلي بارتن لشرب الشاي، وجاءت ميغان للغداء، وكان أون غريفيث يدور على مرضاه. ذهبتنا وشرينا الشاي عند السيد باي، كما ذهبتنا لشرب الشاي في بيت الكاهن.

كنت مسؤولاً إذ وجدتُ أن السيدة كالثروب لم تُظهر تلك

القصوة التي أبدتها في لقائنا الأخير، وأظن أنها نسيت كل شيء عن هذا الأمر. بدت الآن مهتمة بصورة أساسية في القضاء على الفراش الأبيض للمحافظة على مزروعات القرنيط والملفوف.

والحق أن الأممية التي قضيناها في بيت الكاهن كانت من أكثر زياراتنا هدوءاً. كان بيته قديماً جميلاً، فيه غرفة استقبال كبيرة مريحة رغم قدمها، وقد تُعْجَد أثاثها بقمash وردي فاتح. وكانت في البيت ضيافة تقيم مع الكاهن وزوجته، وهي سيدة عجوز لطيفة كانت تحيك شيئاً ما بصوف أبيض.

تناولنا مع الشاي كعكة ساخنة لذيذة، وجاء الكاهن وابتسم في وجهنا بينما كان يحدثنا حديثه اللطيف الدال على سعة علمه. كانت جلسة سارة جداً. ولكنني لا أقصد بهذا أتنا ابتعدنا كثيراً عن موضوع جريمة القتل، لأننا - فعلًا - لم نتبعد.

كانت الضيافة العجوز - واسمها الآنسة ماربل - قد أثارها هذا الموضوع. وكما قالت معتقدرة: "ليس لدينا في الريف إلا القليل جداً من الموضوعات التي تصلح للحديث!". وقد قررت أن الفتاة القتيلة كانت تشبه دون ريب خادمتها إيديث، وقالت: كانت خادمة صغيرة في غاية اللطف والتعاون، ولكن لديها أحياناً القليل من البطء في استيعاب الأمور.

كما قالت الآنسة ماربل إن لها ابن عم له ابنة أخ كانت أخت زوجها قد عانت من إزعاجات ومشكلات كثيرة بسبب بعض الرسائل المجهولة، وبذلك فإن موضوع الرسائل كان هو الآخر مثيراً جداً بالنسبة للعجز الرائعة.

قالت تخاطب السيدة كالثروب: ولكن أخبريني يا عزيزتي،
ما الذي يقوله أهل القرية... أقصد أهل البلدة؟ ما هو رأيهم؟

قالت جوانا: أظنهم ما زالوا يظنون أنها السيدة كليت.

قالت السيدة كالثروب: آه، كلا. ليس الآن.

سألت الآنسة ماربل عمن تكون السيدة كليت هذه، فأجابتها
جوانا بأنها ساحرة القرية، ثم قالت: أليس هذا صحيحاً يا سيدة
كالثروب؟

تمتم الكاهن بعبارة طويلة مقتبسة باللغة اللاتينية حتىل إلى أنها
عن موضوع القوة الشريرة للساحرات. وقد أصغينا جميعاً لكلامه
بصمت واحترام دون أن نفهم كلمة واحدة.

قالت زوجته: إنها امرأة سخيفة جداً. تحب التباكي والإيحاء
بأمور معينة؛ فتخرج لتجمع الأعشاب عندما يكون القمر بدرأ
وتحرص على أن يعلم كل أهل القرية بهذا الأمر.

قالت الآنسة ماربل: وأحسب أن الفتيات السخيفات يذهبن
ويستشننها؟

رأيت الكاهن يستعد لنصب المزيد من العبارات اللاحينية على
مسامعنا فسارعتُ أسأل: ولكن لماذا لا يشك الناس الآن بارتكابها
جريمة القتل؟ لقد توقعوا أن تكون الرسائل من فعلها.

قالت الآنسة ماربل: آه! ولكن الفتاة قتلت بسيخ من حديد
كما سمعت (وهي فعلة شنيعة جداً!). إن من الطبيعي أن يُبعد هذا

الأسلوب كل الشبهات عن السيدة كليت، إذ كان بإمكانها أن تطلب لها الشر بحيث تمرض الفتاة تدريجياً ثم تموت لأسباب طبيعية.

قال الكاهن: غريب كيف تستمر هذه المعتقدات القديمة!

قالت زوجته: ما يتوجب علينا التعامل معه الآن ليس الخرافات بل الحقائق.

قلت: وهي حقائق كريهة جداً.

قالت الآنسة ماربل: كلامك صحيح يا سيد بيرتن... أرجو أن تعذرني إن كان كلامي شخصياً؛ ولكنك غريب هنا، ولديك معرفة بالعالم ويجوانب الحياة المختلفة. ويبدو لي أن من المفترض أن تستطيع أنت إيجاد حل لهذه المعضلة البغيضة.

ابتسمت فقلت: إن أفضل حل توصلت إليه كان حلمأً. وفي حلمي كانت كل الحقائق منسجمة تحتل مكانها الصحيح وتعطي نتائج رائعة. وعندما استيقظت وجدت - مع الأسف - أن كل شيء كان هراء!

- هذا مثير جداً. أرجو أن تخبرني كيف كان ذلك الهراء!

- لقد بدأ الأمر كله بالعبارة السخيفة: «لا دخان بلا نار». كان الناس يرددون العبارة إلى حدٌ مثير للاشمئزاز، ثم ما لبثت أن امتزجت لدى مع مصطلحات حرية: سواتر دخانية، قصاصة ورق، رسائل هاتفية... ولكن كلا، كان ذلك في حلم آخر.

- وماذا كان ذلك الحلم؟

كانت السيدة العجوز متلهفة على هذا الموضوع بحيث شعرت بأنها كانت بالتأكيد قارئة سرية لكتاب «تفسير الأحلام» الذي كان مرافقاً دائماً لمريضي العجوز.

قلت: رأيت فيه فقط أن إلسي هولاند (وهي مربية الأطفال في بيت سيمونغتون) تتزوج من الدكتور غريفيث، وكان مضيقنا الكاهن يتلو الخطبة باللاتينية... ثم نهضت السيدة كالثروب فاعتبرت على الزواج وقالت إنه ينبغي وقف ذلك!

ثم أضفت مبتسمة: ولكن ذلك الجزء الأخير كان حقيقياً؛ فقد نهضت من غفوتي فوجدتك تتفقين بجانبي وتقولين هذا الكلام.

قالت السيدة كالثروب: وكنت على حق تماماً.

سررت إذ لاحظت أنها قالت ذلك بهدوء ودون انفعال.

سألت الآنسة ماربل وهي تقطب حاجبيها: ولكن أين جاءت الرسالة الهاتفية التي ذكرتها؟

- آه، أخشى أنني أتصرف ببغاء. فتلك لم تكن في الحلم، بل كانت قبله تماماً. جئت البيت ودخلت الصالة فلاحظت أن جوانا كتبت رسالة صغيرة أرادت إبلاغها لأحدهم إذا ما اتصل هاتفياً...

مالت الآنسة ماربل إلى الأمام، وقالت وقد احمررت وجهتها: هل ستعتبرني فضولية جداً وووقة جداً إذا سألك عن فحوى تلك الرسالة؟ ثم قالت وهي تنظر إلى جوانا: أرجو المغفرة يا عزيزتي.

ولكن جوانا كانت مستمتعة جداً، فطمأنـت السيدة العجوز

فائلة: آه، لا مانع لدى. أنا - شخصياً - لا أذكر منها شيئاً، ولكن ربما استطاع جيري تذكرها. لا بد أنها كانت مسألة تافهة جداً.

كررت بجدية كلمات الرسالة بأفضل ما أمكنني تذكره، وقد حفزني وسرني ما أبدته العجوز من اهتمام بالغ. كنت أخشى أن تخيب كلمات الرسالة أملاها، ولكن ربما خطر لها خاطر توهمت معه وجود علاقة غرامية ما خلف تلك الرسالة، إذ أنها أوّمأت برأسها وابتسمت ويدت مسرورة، وقالت: فهمت. لقد ظننت أنها ستكون شيئاً على هذا النحو.

قالت السيدة كالثروب بحده: أي نحو يا جين؟
- أي أن تحوي كلاماً عادياً جداً.

نظرت إليّ متأنّلةً لبعض الوقت ثم قالت على نحو غير متوقع: بوسعي أن أرى أنك شاب ذكي جداً... ولكنك غير واثق من نفسك بما فيه الكفاية. ينبغي أن تثق بنفسك!

صاحت جوانا احتجاجاً: بالله عليك لا تشجعيه على مثل هذا الشعور؛ يكفيه ما لديه من عجب بنفسه.

قلت: اسكنتي يا جوانا، إن الآنسة ماريل تفهمني.

استأنفت الآنسة ماريل حياكتها بالصنارة، ثم قالت بتأنّل حزين: أتعلم، إن ارتكاب جريمة قتل ناجحة لا بد أن يشبه كثيراً تنفيذ حيلة من حيل السحر.

- أتعنين أن خفة اليد وسرعتها تخدع العين؟

- ليس ذلك فقط. عليك أن تجعل الناس ينظرون إلى الشيء

غير الصحيح وفي المكان غير الصحيح... شيء من قبيل التوجيه الخاطئ لانتباه الناس.

قلت: حتى هذه اللحظة يبدو أن الجميع قد نظروا إلى المكان الخطأ بحثاً عن مجرمنا المجنون.

قالت الآنسة ماربل: من شأنني - أنا شخصياً - أن أميل للبحث عن شخص عاقل جداً.

قلت متأملاً: نعم، هذا ما قاله ناش. وأذكر أنه شدد على أنه شخص محترم أيضاً.

وافقت الآنسة ماربل قائلة: "نعم. هذا مهم جداً". وبدا أنها جميعاً وافقنا على هذا الرأي. ثم خاطبَتْ السيدة كالثروب قائلاً: يرى المفتش ناش سنشهد المزيد من الرسائل المجهولة. ما رأيك؟

قالت بيطء: أحسب أن ذلك قد يحدث.

قالت الآنسة ماربل: إذا كان الشرطة يظنون ذلك، فسيكون الأمر دون شك كما يظنون.

توجهتُ بإصرار إلى السيدة كالثروب قائلاً: أما زلت تشقيقين على كاتب تلك الرسائل؟

احمر وجهها وقالت: ولم لا؟

قالت الآنسة ماربل: لا أظنني أوقفك الرأي يا عزيزتي... ليس في هذه القضية.

قلت متحمساً: لقد دفعت تلك الرسائل امرأة إلى الانتحار
وتسبيب في بؤسٍ وحسرة لا يوصافان!

سألت الآنسة ماريل جوانا: هل تلقيت واحدة يا آنسة بيرتن؟
قهقحت جوانا وقالت: آه، نعم! وقد ذكرت أموراً مخيفة
جداً.

قالت الآنسة ماريل: أخشى أن يكون كاتب الرسائل أكثر ميلاً
لانتقاء من يتمتعون بالشباب والجمال.

قلت: هذا ما يجعلني أستغرب من استثناء إلسي هولاند من
تلقي أية رسالة.

قالت الآنسة ماريل: انتظر لحظة... أتعني مربيّة الأطفال لدى
عائلة سيمونتن؟ الفتاة التي حلمت بها يا سيد بيرتن؟
- نعم.

قالت جوانا: ربما تلقت واحدة ولكنها لا تريد قول ذلك.
قلت: لا، إنني أصدقها، وكذلك ناش.

قالت الآنسة ماريل: يا إلهي! هذا مثير جداً... هذا أكثر
ما سمعته إثارةً حتى الآن!

* * *

أخبرتني جوانا - فيما كنا عائدين إلى البيت - أنني أخطأت إذ
كررتُ ما قاله ناش بخصوص استسلام المزيد من الرسائل.

سألتها: لماذا؟

- لأن السيدة كالثروب قد تكون الفاعلة.

- أتصدقين ذلك حقاً!

- لست متأكدة؛ فهي امرأة غريبة الأطوار.

وعدنا إلى مناقشة الاحتمالات من جديد.

بعد ذلك بليتين كنت عائداً بالسيارة من إيكزامبن. كنت قد تناولت العشاء هناك ثم انطلقتُ عائداً بحيث لم أصل إلى لايستوك إلا وقد خيم الظلام. وقد أصاب أنوار السيارة عطبٌ ما، فبطأتُ السرعة وحاولت إطفاء إشعال الأنوار ثانية، ثم أوقفت السيارة وخرجت منها لرؤية ما يمكن فعله، ويفيت أعبث بها فترة من الوقت إلى أن نجحت أخيراً في إصلاحها.

كان الطريق خالياً تماماً؛ إذ لم يكن أحد يخرج من لايستوك بعدما يخيم الظلام. كانت أمامي مباشرة أول بيوت البلدة، ومن ضمنها ذلك المبني الكريه لجمعية المرأة. كان يلوح من بعيد متضيئاً في ضوء النجوم الخافت، ودفعني شيءٌ في داخلي لأن أذهب وألقي نظرة عليه. لا أدرى إن كنت قد لمحت بشكل غير مؤكد ما بدا لي شخصاً دخل البوابة خلسة... ولthen كان الأمر كذلك فقد كان ذلك الانطباع واهياً للدرجة لم ينطبع معها في عقلي الواعي، ولكنني أحسست فجأة بنوع من الفضول الطاغي إزاء هذا المبني.

كانت البوابة مفتوحة قليلاً، فدفعتها ودخلت، ورأيت أمامي ممراً قصيراً وأربع درجات تؤدي إلى باب المبني. وقفت هناك لحظة

متردداً، ما الذي كنت أفعله حقاً؟ لم أكن أعرف، وفجأة سمعت بقريبي صوت حفييف... بدا أشبه بصوت فستان امرأة. درت بسرعة وذهبت إلى زاوية المبني حيث كان مصدر الصوت.

لم أستطع رؤية أحد، فواصلت سيري وانعطفت عند زاوية أخرى. أصبحت الآن عند خلفية البيت، وفجأة رأيت نافذة مفتوحة على بعد قدمين مني فقط. زحفت أسفلها وأصغيت. لم أستطع سماع شيء، ولكنني أحسست -بشكلٍ ما- بأنني مقتنع بوجود شخص في الداخل.

لم يكن ظهيري قد غدا صالحًا بعد للألعاب الهوائية، ولكنني تمكنت من رفع نفسي والقفز إلى الداخل، وقد أحدثت حركتي هذه صوتاً لسوء الحظ. وقفـت أمام النافذة مصغياً، ثم سرت إلى الأمام ويداي ممدودتان أمامي. وسمعت صوتاً خافتًا جداً أمامي إلى جهة اليمين.

كنت أحمل في جنبي كشافاً صغيراً فأضائه، وعلى الفور سمعت صوتاً منخفضاً يقول بحدة: "أطفئ هذا". وأطعنه فوراً، لأنني أدركت في تلك اللحظة القصيرة أنه كان المفترض ناش.

أحسست به يمسكني من ذراعي ويدفعني من خلال الباب إلى ممر، وهناك -حيث لا توجد نافذة تفضح وجودنا أمام أحد من الخارج- أضاء المفترض كشافاً ونظر إلى نظرة تعبر عن الحزن أكثر مما تعبر عن الغضب، ثم قال: أكان يجب أن تتدخل في هذه اللحظة بالذات يا سيد بيرتن.

اعتذر لـ قائلًا: أنا آسف، ولكن انتابني إحساس داخلي
بأنني ساعثر على شيء ما.

- وربما كنتَ ستعثر على شيء بالفعل. هل رأيت أحداً؟

ترددت ثم قلت ببطء: لست متأكداً. كان لدى إحساس غامض
بأنني رأيت شخصاً يتسلل من البوابة الأمامية، لكنني لم أر أحداً رؤية
محققة، ثم سمعت صوت حفيظ عند جانب البيت.

أو ما ناش برأسه وقال: هذا صحيح؛ جاء شخص خلف البيت
قبلك. وقد تردد قليلاً عند النافذة، ثم ذهب بسرعة... فقد سمعك،
كما أظن.

اعتذر لـ ثانية وسألته: ما هو الموضوع؟

- إنني أراهن على الفرضية القائلة إن من يكتب مثل هذه
الرسائل لا يستطيع التوقف عن كتابتها. ربما كانت كاتبتها على علم
بخطورة ما تفعله، ولكنها ستضطر لفعله. إنه أشبه بالإدمان على
الشراب أو المخدرات.

أو مأت برأسى، فمضى قائلًا: ولذلك فإني أتصور بأن كاتبة
هذه الرسائل - كائنة من كانت - ستحرص على أن تبقى الرسائل
على نفس النمط قدر الإمكان. لقد انتزعت تلك الصفحات من ذلك
الكتاب، ويمكنها الاستمرار في استخدام الحروف والكلمات بعد
قصها من تلك الصفحات. ولكن المغلفات تمثل لها صعوبة، إذ
سيتعين عليها أن تطبعها على نفس الآلة الكاتبة. لا تستطيع المجازفة
باستخدام طابعة أخرى أو باستخدام خط يدها.

سألته غير مصدق: أعتقد حقاً أنها ستواصل نفس اللعبة؟

- نعم، وأراهنك بأي شيء تريده على أنها واثقة جداً بنفسها. إن أمثال هذه المرأة يملؤهم الغرور! ولذلك فقد تصورت أن الفاعلة ستأتي إلى الجمعية بعد أن يحل الظلام حتى تستخدم الآلة الكاتبة.

قلت: الآنسة غينش.

- ربما.

- ألم تعرف بعد؟

- لا أعرف.

- ولكنك تشك؟

- نعم، ولكن الفاعل شديد المكر يا سيد بيرتن؛ إنه يعرف جميع أساليب اللعبة.

أستطيع أن أتخيل الشبكة التي نشرها ناش على اتساعها. ليس عندي شك أن كل رسالة يكتبها مشبوه ويضعها في البريد أو يسلّمها باليد يتم تفتيشها فوراً. سوف تزل قدمًا العاجاني عاجلاً أم آجلاً، وسوف يزداد إهمالاً.

اعتذر لمرة الثالثة عن وجودي الحماسي غير المرغوب فيه، فقال ناش بأسلوب فلسفى: حسناً، هذا ما لم يكن بالإمكان تفاديه. حظاً أفضل في المرة القادمة.

خرجت إلى عتمة الليل، فرأيت ظل شخص يقف إلى جانب

سياري. ولشدة دهشتي أدركت أنها ميغان. قالت: مرحباً، ظنت أن هذه سيارتكم. ما الذي كنت تفعله؟

- الأخرى أن أسأل ما الذي تفعلينه أنت.

- خرجت أتمشي. إنني أحب المشي في الليل؛ لا أحد يوقفك ويتحدث معك بحديث سخيف. كما أنني أحب النجوم، ورائحة الأشجار تكون أزكى، وتبدو الأمور اليومية الاعتيادية أكثر سحرًا.

- أسلم معك بصحة هذا كله ولكن القطة والساحرات فقط هن اللاتي يخرجن في الظلام، وسوف يتساءل أهل البيت عن مكان وجودك.

- كلا، لن يتتساءلوا. إنهم لا يتتساءلون أبداً عن مكانى.

- كيف تسير أمورك؟

- أظنها على ما يرام.

- هل تهتم بك الآنسة هولاند وترعاك؟

- إلسي لا بأس بها. لا يسعها إلا أن تكون مغفلة تماماً.

- وصف فظ، ولكنه ربما كان صحيحاً. اركبي حتى أوصلك إلى البيت.

لم يكن صحيحاً أن أحداً لا يفتقد ميغان؛ فقد كان سيمتنع واقفاً على عتبة الباب عندما وصلنا. نظر باتجاهها وقال: مرحباً، هل ميغان موجودة معك؟

- نعم، لقد أحضرتها إلى البيت.

قال سيمونتن بحدة: يجب أن لا تخرجي هكذا دون أن تخبرينا يا ميغان؛ لقد قلقت الآنسة هولاند عليك كثيراً.

تمتّمت ميغان بكلمات غير مفهومة وهي تعبر أمامه وتدخل البيت. تنهى سيمونتن وقال: إن البنت البالغة مسؤولية عظيمة عندما لا تكون عندها أم ترعاها، وأحسبها كبرت على المدرسة.

ثم نظر إلى بشيء من الارتياح وقال: أظنك أخذتها معك في نزهة بالسيارة؟

رأيت أن من الأفضل ترك السؤال هكذا.

* * *

الفصل الحادي عشر

في اليوم التالي جُنَّ جنوني، وإذا أتذكر الآن هذا الأمر فإنني لا أجد حِقًا إلا هذا التفسير.

كان عليَّ القيام بالزيارة الشهرية للدكتور ماركوس كنت... ذهبت بالقطار، ولشدة دهشتي اختارت جوانا أن تبقى في البيت، مع أن من عادتها دائمًا أن تكون متلهفة على المجيء، معنى حيث نبقي هناك بضعة أيام. واعترضت هذه المرة العودة في نفس اليوم في قطار المساء، ولكنني كنت -مع ذلك- مدھوشًا من جوانا؛ فقد اكتفت بالقول بطريقة مبهمة إن لديها الكثير من العمل تقوم به، وتساءلت لماذا عساها تقضي ساعات في قطار رديء مزدحم بينما كان الجو رائعًا في الريف.

كان ذلك بالطبع أمراً لا يمكن إنكاره، ولكنه بدا مخالفًا لطبيعة جوانا. قالت إنها لا تريد السيارة ولذلك يمكنني الذهاب بها إلى المحطة وتركها هناك لحين عودتي.

تقع محطة لايمستوك -لسبب لا يعرفه أحد سوى شركة سكة الحديد- على مسافة نصف ميل من لايمستوك نفسها. وفي منتصف

طريقي إلى المحطة رأيت ميغان تسير على غير هدى. توقفت وقلت:
مرحباً، ماذا تفعلين؟

- خرجت لأنتمشي فقط.

- ولكنني أرى أن مشيك ليس بالمشي الرشيق السريع. أنت
تمشين زحفاً كسرطان الماء الحزين.

- ذلك لأنني لا أقصد مكاناً محدداً بذاته.

- إذن يمكنك أن تأتي لتدعي في المحطة.

فتحت باب السيارة، فقفزت ميغان فيها وسألتني: إلى أين
أنت ذاهب؟

- إلى لندن؛ لرؤيه طبيبي.

- هل تدهورت حالة ظهرك؟

- لا، لقد عاد طبيعياً الآن، وأنواع أن يسعد الطبيب كثيراً
لذلك.

أومأت ميغان برأسها وقدرت السيارة وصولاً إلى المحطة،
وهناك أوقفتها ودخلت المحطة واشترت تذكرة من شباك للحجوز.
كان على الرصيف عدد قليل جداً من الناس ولم يكن بينهم من أعرفه.
قالت ميغان: هل تمانع في إقراضي بنساً؟ أريد أن أشتري قطعة من
الشوكولاتة من تلك الآلة.

قلت وأنا أسلمها القطعة النقدية المطلوبة: ها لك يا طفلي. أنت

وائلة أنك لا تريدين أيضاً علقة أو أقراص العلق المرطبة؟

قالت دون أن تتتبه لسخريتي: أحب الشوكولاتة أكثر.

ذهبت إلى آلة الشوكولاتة ونظرت إليها وهي ذاهبة بشعور من الغيظ المتنامي. كانت تلبس حذاء باليأ وجوارب خشنة قبيحة المنظر وبلوزة وتنورة لا شكل لهما. ولا أعرف لماذا أغاظني كل هذا، ولكنه أغاظني فعلاً.

قلت غاضباً عندما عادت: لماذا تلبسين هذه الجوارب المخزية؟

نظرت ميغان إلى جواربها مدحشة وقالت: وما العيب فيها؟

- كل العيب فيها؛ إنها كريهة! ولماذا تلبسين كنزة كأنها رأسٌ ملفوفٌ فاسد؟

- لا بأس بها، فهي عندي منذ سنوات.

- هذا واضح تماماً. ولماذا أنت...

في هذه اللحظة وصل القطار فقطع عليّ محاضرتى الخاصة. دخلت مقصورة خالية في الدرجة الأولى، وأنزلت النافذة، وأخرجت رأسي منها لأكمل الحديث.

وقفت ميغان أسفل مني ووجهها إلى أعلى. سألتني عن سبب

غضبي، فقلت غير صادق: لست غاضباً، إنما أحسست بالغيظ لأنني
أراك كسولة ولا تهتمين بمظهرك.

- لا يمكن أن أبدو بمظهر حسن على أية حال، فما أهمية
ذلك إذن؟

- يا إلهي، أريد أن أراك بشباب جيدة... بودي أن آخذك إلى
لندن وأكسوك من رأسك حتى قدمك.

قالت: ليتك تفعل!

بدأ القطار يتحرك، ونظرت إلى وجه ميغان الكثيب، وعندها
انتابني الجنون كما قلت: فتحت الباب وأمسكت بميغان بذراع واحدة
ورفعتها إلى المقصورة بسرعة!

أطلق الحمال صيحة غاضبة، ولكن كل ما استطاع فعله هو
إغلاق الباب مرة أخرى بطريقة بارعة. رفعت ميغان عن الأرض،
فسألتني وهي تمسح ركبتيها: لماذا فعلت ذلك بالله عليك؟

- اسكنني. ستأتين معي إلى لندن، وعندما أفرغ من أمرك لن
تعرف في نفسك! سأريك كيف يمكنك أن تظهرني لو حاولت الاهتمام
بنفسك؛ لقد سئمت من رؤيتك تتسلّكين بملابس رثة.

أطلقت ميغان آهة هامسة تملئها النشوة. وجاء محصل التذاكر
فاشتريت لها تذكرة ذهاب وعودة، وجلست في زاويتها تنظر إلى
بنوع من الاحترام والرهبة. وعندما ذهب الرجل قالت: أرى أنك ممن
يتصرفون من وحي اللحظة، أليس كذلك؟

- تماماً... إنها إحدى الصفات المتوارثة في عائلتنا.

كيف أشرح لميغان ذلك الإحساس المفاجئ الذي انتابني؟
كانت قد بدت أشبه بكلب حزين تركه صاحبه وراءه، وهي الآن
تظهر من البهجة المستغربة ما يظهره الكلب إذ قرر صاحبه اصطحابه
في نهاية الأمر.

قلت لها: لا أحسبك تعرفين لندن جيداً، أليس كذلك؟

- بل أعرفها. كنت أمر بها دائماً حين كنت أذهب إلى المدرسة.
كما ذهبت إلى طبيب أسنان فيها، وإلى إحدى المسرحيات.

- هذه المرة ستكون لندن مختلفة.

وصلنا قبل نصف ساعة من موعدى مع الطبيب في شارع هارلي، فأخذت سيارة أجرة وذهبنا إلى محل ميروتين للأزياء الذي تعامل جوانا معه. وصاحبة محل ميروتين امرأة مرحة غير تقليدية في الخامسة والأربعين من عمرها اسمها ماري غري، وهي امرأة ذكية حلوة المعشر، وقد كنت معجبًا بذوقها دائمًا.

قلت لميغان: أنت ابنة عمى.

- لماذا؟

- لا تجادلي.

كانت ماري غري تعامل مع فتاة بدينة وتصرّ على ثمن ثوب سهرة أزرق اللون ضيقاً كانت الفتاة قد افتتنت به. اقتربت منها

وأخذتها جانباً وقلت: اسمعني، لقد أحضرت ابنة عم لي. كانت جوانا ستأتي ولكن أمراً منها قالت إن بإمكانني ترك الأمر لك. هل ترين كيف تبدو الفتاة الآن؟

قالت ماري غري بانفعال: يا إلهي، إبني أراها بالطبع.

- حسناً، أريد أن تقلبي مظهرها رأساً على عقب ومن جميع النواحي. لك مطلق الصلاحية لتجهيزها بكل ما تريدين. جوارب، أحذية، ملابس داخلية، كل شيء! على فكرة، المحل الذي يصف شعر جوانا قريب من هنا، أليس كذلك؟

- إنه عند الزاوية... سأتدير هذا الأمر أيضاً.

- أنت امرأة بألف امرأة!

- آه، سأستمتع بهذا الأمر، بغض النظر عن المال، مع أنه أمر لا يمكن الاستهانة به هذه الأيام... إن نصف البهائم من زبوناتي لا يدفعن فواتيرهن أبداً. ولكن كما قلت، سوف أستمتع بهذا الأمر.

نظرت إلى ميغان نظرة محترفة وسريعة وهي تقف بعيداً عنها وقالت: إن لها شكلاً جميلاً.

- لا بد أن لك عينين أنفذا من الأشعة السينية؛ فأنا لا أرى لها أي شكل.

ضحكـت ماري غري وقالـت: لا تقلق، دع الأمر كـله لي.

- حسناً، سأعود وأأخذـها في الساعة السادـسة تقريـباً.

* * *

كان ماركوس كنت مسروراً من صحتي، وقد أخبرني بأنني تجاوزت أفضل توقعاته، ثم قال: لا بد أن لك بُنيةً فيل حتى استعدت صحتك بهذه السرعة. ياله من رائع ذلك التأثير الذي يتربكه على المرء هواء الريف وعدم التأخر في السهر أو التعرض لانفعالات... إن هو استطاع الالتزام بذلك.

- أوقفك على أول اثنين. ولكن لا تحسب أن الريف خلو من الانفعالات؛ فلدينا الكثير منها في منطقتنا.

- أي نوع من الانفعالات؟

- جرائم قتل مثلاً.

زَمَّ ماركوس كنت شفتيه وصقر قائلاً: أهي مأساة حب ريفية؟
صبي مزارع يقتل فتاته؟

- أبداً، بل قاتل مخادع مصمم مجنون.

- لم أقرأ عن ذلك شيئاً. متى اعتقلوه؟

- لم يعتقلوه، كما أنها أنتي!

- ووه! لست واثقاً أن لايمستوك هي المكان المناسب لك أيها الفتى.

قلت بصلابة: بل هي كذلك، ولن تستطيع إخراجي منها.

- هكذا إذن! أود وجدت حسناء هناك؟

قلت وأنا أفكر باليسي هولاند بشيء من الشعور بالذنب:
إطلاقاً، كل ما في الأمر أن سيكولوجية الجريمة تثير اهتمامي.

- آه، لا بأس. من المؤكد أنها لم تؤذك حتى الآن، ولكن تأكد
فقط من أن مجرمتك المجنونة لن تقتلك أنت.

- لا خوف من هذا.

- ما رأيك بالعشاء معى الليلة؟ يمكنك أن تخبرنى كل شيء
عن جريمتك تلك.

- أعتذر؛ إنني محجوز.

- موعد مع سيدة؟ نعم، أنت تتقدم بالتأكيد.

قلت وقد أتعجبني تخيل ميغان وهي تقوم بذلك الدور: أحسب
أن بوسفك أن تسميها هكذا.

وصلت محل ميروتين الساعة السادسة، وهو موعد الإغلاق
الرسمي للمحل. جاءت ماري غري لاستقبالى عند أعلى الدرج
خارج غرفة العرض، وقالت وقد وضعت أصبعها على شفتيها:
ستصاب بالصدمة! ولو صح أن أقول ذلك عن نفسي لقلت إنني
قمت بعمل رائع.

ذهبت إلى غرفة العرض الكبيرة. كانت ميغان تقف وتنظر إلى
نفسها في مرآة طويلة، وأصدقكم القول بأنني لم أකد أعرفها؛ فقد
أدهشتني منظرها للحظات! طويلة ونحيفة بملابس أنيقة وجوارب
حريرية وحذاء جميل... كانت الجودة والتميز في كل مظهر من

مظاهرها، وقد تم تشييب شعرها وتصنيفه ليناسب رأسها، وكان يلتمع كحبة الكستناء. ولقد كان لهم من الذوق ما جعلهم يتذرون وجهها على حاله، بلا مساحيق أو أحمر الشفاه.

نظرت إليّ باحتشام وهي تبتسم بابتسامة خجولة وقالت: إنني أبدو... رائعة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- رائعة؟ إن كلمة رائعة لا تكفي لوصفك! تعالى نذهب إلى العشاء وسوف أندهش إن لم يلتفت إليك كل الرجال... ستقهرن كل الفتيات!

لم تكن ميغان باللغة الجمال، ولكنها كانت ذات مظهر آسر وغير عادي؛ كانت ذات سمات شخصية. دخلت المطعم تتقدمني، وأسرع النادل إلينا يدعونا للجلوس على مائدة مناسبة. وبعدما تناولنا العشاء قالت ميغان: أليس هذا الطعام رائعًا؟ وكل شيء!

ثم تنهدت مسروورة، فقلت: نفس شعوري بالضبط.

كانت أمسية جميلة، وفجأة قالت ميغان بارتياح: ألا يجب أن نعود إلى البيت؟

فتحت فمي دهشة. بلّى، كنت مستغرقاً تماماً بحيث نسيت كل شيء. صحت: "يا إلهي!"؛ فقد أدركت أن آخر قطار قد غادر. قلت: أبقي هنا، أنا ذاهب للاتصال بالهاتف.

اتصلت بشركة لويلين لتأجير السيارات وطلبت أن يرسلوا لنا أكبر وأسرع سيارة عندهم، وفي أسرع وقت ممكن. ثم عدت إلى

ميغان وقلت لها: لقد غادر آخر القطارات لهذا اليوم، ولذلك سنعود إلى البيت بالسيارة.

- أحقا؟ يا لها من متعة!

رأيتُ كم كانت طفلة لطيفة... يسرّها كل شيء، لا تجادل، وتقبل كل اقتراحاتي دون ضجة أو تذمر. وصلت السيارة، وكانت كبيرة وسريعة، ومع ذلك لم نصل إلى لايستوك إلا في وقت متاخر جداً. قلت وقد شعرت فجأة بوخز الضمير: لا بد أنهم أرسلوا فرق تفتيش للبحث عنك!

لكن ميغان بدت في مزاج هادئ. قالت على نحو غامض: آه، لا أظن ذلك؛ فأنا غالباً ما أخرج ولا أعود إلى البيت على الغداء.

- نعم يا عزيزتي، ولكنك غبت طوال النهار وتخلفت عن العشاء أيضاً.

حالف الحظ ميغان؛ فقد كان البيت مظلماً وساكناً. وبناء على نصيتها درنا خلف البيت وألقينا حصى على نافذة غرفة روز.

وأخيراً أطلت روز من النافذة، وبعد الكثير من تعابير الدهشة المكبوتة والانفعال، نزلت لتدخلنا إلى البيت قائلة: ها أنت الآن، وأنا التي قلت إنك نائمة في فراشك. خرج سيدي مع الآنسة هولاند (قامت بحركة ازدراء عند ذكر الآنسة هولاند). تناولا العشاء مبكراً وذهبوا في نزهة بالسيارة، وقد قلت لهما إنني سأهتم بأمر الولدين. ظنتُ أنني سمعتك تدخلين عندما كنتُ في غرفة الأطفال لإسكات كولين الذي كان يلعب في الغرفة، ولكنك لم تكوني موجودة عندما

نزلت، ولذلك ظنتُ أنك ذهبت إلى فراشك، وهذا ما قلته عندما جاء سيدتي وسأل عنك.

قطعتُ الحديث لأقول إن من الأفضل لميغان أن تأوي إلى فراشكما الآن. قالت ميغان: طابت لي ليلتك، وأشكرك شكرًا لا حدود له... كان هذا أروع يوم في حياتي.

عدت بالسيارة إلى البيت وأنا ما زلتأشعر بالسعادة، ودفعت للسائق إكرامية كبيرة وعرضت عليه أن ينام عندنا إن شاء، لكنه فضل أن يعود إلى لندن في الليل.

كان باب الصالة قد افتح أثناء حديثنا، وعندما انطلق بسيارته أطلت جوانا وقالت: إذن فقد عدت أخيراً؟

دخلت وأغلقت الباب خلفي وقلت: هل قلقت علي؟

ذهبت جوانا إلى غرفة الاستقبال وتبعتها. كان إبريق القهوة موضوعاً على الطاولة فصبت جوانا فنجانين من القهوة لي ولها ثم قالت: قلقت عليك؟ كلا بالطبع. ظنتُ أنك قررت البقاء في المدينة وقضاء سهرة حافلة.

- لقد قضيت سهرة حافلة... من نوع ما.

ابتسمت ثم بدأت أضحك. سألتني جوانا عن سبب ضحكتي فأخبرتها بما جرى، فقالت: ولكن يا جيري... لابد أنك كنت مجنوناً، مجنوناً تماماً!

- أظنتني كنت كذلك.

- ولكنك يا طفلي العزيز لا تستطيع فعل أشياء كهذه... ليس في مثل هذا المكان! سينتشر الخبر في كل أنحاء لا يمستوك غداً.

- أظنه سينتشر بالفعل، ولكن ميغان مجرد طفلة في نهاية الأمر.

- ليست طفلة؛ إنها في العشرين. لا يمكنك أن تأخذ فتاة في العشرين إلى لندن وتشتري لها ملابس دون إحداث فضيحة كبيرة.

يا إلهي، ربما اضطررت للزواج بالفتاة!

كانت جوانا تخلط الجد بالهزل. وفي تلك اللحظة وصلت إلى اكتشاف مهم جداً، فقد قلت: تباً لذلك كله! أنا لن أمانع في الزواج بها. بل إنني في الحقيقة... سأحب ذلك.

ظهرت على وجه جوانا ملامح غريبة جداً. نهضت وقالت بشيء من الواقعية وهي تتجه نحو الباب: نعم، لقد عرفت ذلك منذ بعض الوقت...

تركبتي وفنجاني بيدي واقفاً مشدوهاً باكتشافي الجديد.

* * *

الفصل الثاني عشر

لا أعرف ماذا ينبغي لرجل يعتزم الزواج أن تكون أحاسيسه.

في الروايات يكون حلقه جافاً ويشعر أن ياقته تضيق على رقبته كثيراً ويكون في حالة عصبية يرثى لها، ولكنني لمأشعر بذلك على الإطلاق. وبعد أن توصلت إلى فكرة جيدة عزمت أمري على تنفيذها وتسويتها في أسرع وقت ممكن، ولم أر أي سبب خاص يدعو للارتكاك.

ذهبت إلى بيت سيمنغن في نحو الساعة العاشرة عشرة. قرعت الجرس وعندما جاءت روز سألت عن الآنسة ميغان، وكانت النظرة العارفة التي نظرت بها ووز إلي هي أول ما جعلنيأشعر بشيء من الخجل. وأدخلتني إلى غرفة الصباح الصغيرة، وفيما كنت أنتظر هناك تمنيت أن لا يكونوا قد ضايقوها ميغان.

وعندما افتح الباب والتفت لأنظر ارتحت على الفور. لم تبد ميغان متৎقة أو متضايقة على الإطلاق؛ كان رأسها ما يزال كما هو ككستناء لامعة، وكانت تجللها تلك الكبراء واحترام الذات الذي اكتسبته بالأمس. كانت في ملابسها القديمة مرة أخرى، ولكنها

تمكنت من جعل تلك الملابس تبدو مختلفة. أمر رائع ما يفعله بالفتاة علمها بحقيقة جاذبيتها! وأدركت فجأة أن ميغان قد نضجت.

أظن أنني كنت عصبي المزاج قليلاً دون ريب، وإنما افتحت معها الحديث بمحة قائلًا: "مرحباً أيتها القطة!"، إذ لا تكاد هذه العبارة تكونه تحية محب في مثل تلك الظروف.

ولكن بدا أنها أعجبت ميغان. فقد ابتسمت وقالت: مرحاً!
- أرجو أن لا تكوني قد تعرضت لمشايرة بخصوص الأمس؟

قالت ميغان بشقة: آه، لم يحصل شيء من هذا.

ثم طرفت عيناهَا وقالت بشكل غامض: بلـى، أظن أنني خضـت شـجاـراً. أقصد أنـهـم قالـواـ أشيـاءـ كـثـيرـةـ وـبـدـاـ آنـهـمـ رـأـواـ الـأـمـرـ غـرـيـباـ جـداـ، ولـكـنـكـ تـعـرـفـ طـبـيـعـةـ النـاسـ وـالـضـجـةـ التـيـ يـفـتـلـونـهـاـ مـنـ لـاـ شـيـءـ.

ارتـحتـ عـنـدـمـاـ وـجـدـتـ آنـ الـاسـيـاءـ وـالـصـدـمـةـ لـمـ يـؤـثـرـ أـبـداـ عـلـىـ مـيـغـانـ.ـ قـلـتـ لـهـاـ:ـ جـثـتـ هـذـاـ الصـبـاحـ لـأـنـ عـنـدـيـ اـقـتـرـاحـ أـرـيدـ طـرـحـهـ.ـ أـنـتـ تـعـلـمـنـ آنـيـ أـحـبـ كـثـيرـاـ،ـ وـأـعـتـقـدـ آنـكـ تـحـيـيـتـيـ...ـ

قالـتـ مـيـغـانـ بـحـمـاسـةـ شـدـيـدةـ:ـ كـثـيرـاـ.

- كـمـاـ آنـاـ نـسـجـمـ مـعـاـ جـيدـاـ،ـ وـلـذـلـكـ أـرـىـ آنـهـاـ سـتـكـونـ فـكـرـةـ جـيـدةـ لـوـ تـزـوـجـنـاـ.

- آهـ.

بدت عليها الدهشة... الدهشة فقط. لم تجفل من قولي ، ولم تصب بالصدمه؟ مجرد دهشة معتدلة. سأله بأسلوب من يريد استيضاح الأمر استيضاها تماماً: أتعني أنك تريد الزواج بي حقاً؟

قلت وأنا أعني ما أقول: أريد ذلك أكثر من أي شيء آخر.

- تقصد... أنك تحبني؟

- إنني أحبك.

كانت عيناها ثابتتين وهادئتين. قالت: أعتقد أنك ألطف إنسان في العالم... ولكنني لا أحبك.

- سأحملك على أن تحبني.

- لن ينفع ذلك؛ فأنا لا أريد أن أحمل.

سكت ثم قالت بجدية: لست من النوع الذي يصلح زوجة لك؛ إنني أتفق الكراهية أكثر مما أتفق الحب.

قالت ذلك بعمق وتركيز غريبين. قلت: الكراهية لا تدوم، أما الحب فيدوم.

- هل هذه حقيقة؟

- هذا ما أعتقده.

مرة أخرى ساد الصمت، وأخيراً قلت: ردك إذن هو (لا)؟

- نعم، إنه لا.

- وأنت لا تصحّحي بي بالإبقاء على الأمل؟

- وما فائدة هذا؟

وافتتها قائلًا: لاشيء إطلاقاً... مجرد تسويف؛ لأنني سأستمر في الأمل سواء نصححتي بذلك أم لا.

* * *

حسناً، هذا مكان. غادرت البيت وأناأشعر بشيء من الانشاد، ولكنني كنت واعياً لنظارات روز التي لاحقتني بكثير من الاهتمام.

كان لدى روز الكثير مما تقوله لي قبل أن أستطيع الإفلات. قالت إنها لم تعد تشعر بأن الأمور على ما كانت عليه منذ ذلك اليوم المرعب! وإنها ما كانت لتبقى لو لا الأطفال وشعورها بالأسف على السيد سيمونتن المسكين، وإنها لن تبقى إلا إذا جيء بخادمة أخرى بسرعة، ومن غير المحتمل أن تأتي خادمة إلى بيت وقعت فيه جريمة قتل! وقالت إن الآنسة هولاند كانت في غاية اللطف عندما قالت إنها ستقوم بتدبيير المترجل حتى قدومن خادمة بديلة. كانت لطيفة جداً وخدومه... نعم، ولكنها تتصور أنها ستكون سيدة البيت في يوم من الأيام! إن السيد سيمونتن المسكين لا يرى شيئاً على الإطلاق... ولكن المرأة يعرف كيف تكون حالة الأرمل؛ مخلوق بايس مسكين وضعته الظروف فريسة لكيد امرأة. وإن من المؤكد أن فشل إلسي هولاند في الحلول محل السيدة سيمونتن -إذا ما حصل- لن يكون سببه قلة المحاولة من طرفها.

وافتتها على كل شيء بطريقة آلية وأنا منشوق للهروب منها،

ولكني لم أستطع ذلك لأن روز كانت ممسكة بقبعتي وهي ماضية في صب منافاتها. وتساءلت إن كان فيما قالته أي نوع من الحقيقة. هل تافت إلسي هولاند لأن تصبيع الزوجة الجديدة لسيمنغتن؟ أم أنها فتاة طيبة القلب تبذل ما يسعها للعناية بأسرة حلت بها مصيبة؟

ربما كانت النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. ولم لا؟ إن طفلة سيمونغتن الصغيرين يحتاجان إلى أم، وإلسي كانت امرأة محترمة... إلى جانب كونها جميلة إلى حد يخرج عن حدود الاحترام، وهي صفة قد تعجب الرجل... حتى وإن كان رجلاً محترماً كسيمنغتن!

أعرف أنني كنت أفكّر بهذا كله لأحاول تجنب التفكير بأمر ميغان. ربما قلت إنني ذهبت لميغان طالباً منها الزواج بي بعقلية فيها الكثير من الرضا عن الذات والثقة بالنفس، وإنني أستحق ما حصل... ولكن الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة. كان ذلك لأنني أحسست بشقة كبيرة وبشكل مؤكد بأن ميغان كانت لي أنا... وأنها كانت شأنًا من شؤوني، وأن عنايتي بها وإسعادها وتجنيبيها الأذى هو طريقة الحياة الطبيعية الوحيدة أمامي، وإنني توقعت منها أن تشعر هي أيضاً أننا متناسبان. لكنني لم أكن لاستسلم... نعم؛ إن ميغان هي فتاتي، وسوف أحصل عليها!!

بعد لحظات من التفكير ذهبت إلى مكتب سيمونغتن. قد لا تلتفت ميغان إلى الانتقادات الموجهة لسلوكها، ولكني أحيثت تقويم الأمور. وقيل لي إن السيد سيمونغتن غير مشغول فدخلت عليه، وقد فهمتُ من زمة شفتيه والتصلب الإضافي في سلوكه أنني لا أحظى بالكثير من الترحيب في تلك اللحظة. قلت: صباح الخير.

أخشى أن لا تكون هذه زيارة عمل، بل زيارة شخصية. سأطرح الموضوع بكل وضوح... أظنك أدركت -بلا ريب- أنني أحب ميغان، وقد طلبت منها الزواج بي ولكنها رفضت، إلا أنني لا أعتبر ذلك الرفض نهائياً.

رأيت ملامح سيمونغتون تتغير، وأدركت ما يدور في ذهنه بسهولة؛ فقد كانت ميغان عنصر نشاز في بيته. أحسست -واثقاً- بأنه رجل مُنصف ولطيف، وما كان ليفكر أبداً في عدم إيواء ابنة زوجته المتوفاة أو الامتناع عن تقديم السكن لها، ولكن زواجها بي سيكون مصدر راحة له بالتأكيد.

تراجعت صرامة ملامحه، وابتسم لي ابتسامة باهتة حذرة وقال:
تعلم يا بيرتن أنني -بصراحة- لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أعرف أنك كنت توليهما الكثير من عنايتك، ولكننا كنا دائماً نعتبرها طفلة.

قلت باقتضاب: ولكنها ليست طفلة.

- نعم، ليس من ناحية العمر.

قلت وما زال بي شيء من الغيظ: إنها تستطيع التصرف وفق عمرها الصحيح في أي وقت يُسمح لها فيه بذلك. أعرف أنها لم تبلغ الحادية والعشرين (الذي يعتبر رسمياً سن النضوج والاستقلالية)، ولكنها ستبلغ هذا العمر بعد شهر أو اثنين. سأعطيك كل المعلومات التي تريدها عندي: أنا في وضع مالي جيد، وقد كانت حياتي شريفة تماماً، وسأهتم بميغان وأفعل كل ما أستطيعه لجعلها سعيدة.

- تماماً... تماماً. ومع ذلك فإن الأمر يرجع لميغان نفسها.

- ستقتنع مع مرور الوقت، ولكنني أحببت فقط أن أصارحك بهذا الأمر.

قال إنه يقدر هذا الموقف، ثم افترقا وديأ.

* * *

صادف إميلي بارتون في الخارج، وكانت تحمل سلة مشتريات بيدها. قالت: صباح الخير يا سيد بيرتن. سمعت أنك ذهبت إلى لندن بالأمس.

نعم، لقد سمعت ذلك دون شك! رأيت أن الرقة بادية في عينيها، ولكنها كانتا مليئتين بالفضول. قلت: ذهبت لرؤية طبيبي. ابتسمت الآنسة إميلي وتمتّت قائلة: سمعت أن ميغان كاد يفوتها القطار، وقد ففخت إليه وهو يتحرك.

- بمساعدتي أنا؛ أنا الذي سحبتها إليه.

- كم كنت محظوظاً في ذلك، وإنما لوقع حادث.

غريب كيف يمكن لعجز رقيقة فضولية أن تجعل الرجل يشعر أنه مغفل! وأنقذني ظهور السيدة كالثروب من مزيد من المعاناة، وكانت معها ضيفتها العجوز. قالت السيدة كالثروب: صباح الخير. سمعت أنك اشتريت لميغان بعض الملابس اللاقنة؟ إنه تصرف عاقل منك؛ فالتفكير بشيء عملٍ كهذا يتطلب رجلاً بكل معنى الكلمة. كنت قلقة على هذه الفتاة منذ وقت طويل. الفتيات العاقلات معرضات أن يتحولن إلى مغفلات، أليس كذلك؟

وبهذه العبارة الملفتة للنظر دخلت السيدة كالثروب إلى محل السماك بسرعة. أما الآنسة ماربل التي بقيت واقفة إلى جانبها فقد طرفت بعينيها وقالت: إن السيدة كالثروب امرأة رائعة؛ تكاد تكون على حق دائماً.

- الأمر الذي يجعلها مخيفة بعض الشيء!

- إن للصدق مثل هذا التأثير.

خرجت السيدة كالثروب من محل السماك مرة أخرى وجاءت إلينا. أشارت إلى سرطان كبير أحمر كانت تحمله وقالت: أرأيت شيئاً أبعد شبهاً بالسيد باي من هذا؟ انظركم هو مفعم بالقوة والذكرة، أليس كذلك؟

* * *

شعرت ببعض الحرج من مقابلة جوانا، ولكن عندما وصلت إلى البيت عرفت أن قلقي لم يكن له داع؛ فقد خرجمت ولم تعد لتناول الغداء. وقد أحزن ذلك بارتريدرج كثيراً فقالت بمرارة وهي تضع قطعتين من اللحم في طبق: لقد أكدت الآنسة بيرتن أنها ستعود لتناول الغداء.

أكلت قطعتي اللحم في محاولة للتعويض عن غياب جوانا، ولكنني تساءلت في نفسي أين يمكن أن تكون اختي الآن. لقد اعتادت أن تكون غامضة جداً في تصرفاتها مؤخراً!

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف عندما سمعت صوت

سيارة تقف في الخارج، وما لبثت جوانا أن دخلت غرفة الاستقبال. وتوقت أن أرى غريفيث معها لكنها كانت وحيدة. كان وجهها ممتقاً بالحمرة وبدت متزعجة، وتصورت أن شيئاً قد حدث.

سألتها: ما الأمر؟

فتحت جوانا فمها لتتكلم لكنها أغلقته ثانية وتنهدت وألقت بنفسها على كرسي وأخذت تحدق أمامها، ثم قالت: لقد قضيت اليوم أسوأ الأيام.

- ماذا حدث؟

- عملت شيئاً لا يصدق؛ كان رهياً.

- وما هو؟

- خرجمت في نزهة سيراً على الأقدام في نزهة عادية. صعدت التلة وذهبت إلى السبخة. مشيت أميالاً... فقد أعجبني أن أمشي. ثم نزلتُ وادياً، وكانت هناك مزرعة... في منطقة منعزلة تماماً. شعرت بالعطش وتساءلت إن كان عندهم حليب فمشيت إليهم ودخلت ساحة المزرعة، ثم فتح الباب وخرج منه أوين.

- وبعد؟

- ظنّ أن القادمة هي ممرضة المقاطعة. كانت هناك امرأة تضع مولوداً، وكان أوين يتوقع مجيء الممرضة، وكان قد أرسل يبلغها بأن تحضر معها طبيباً آخر. كانت... كانت الأمور تجري بشكل سعيٍ.

- وماذا حدث؟

- عندما رأني قال لي: "هيا، تعالى... وجودك أفضل من لا شيء...". قلت له إنني لا أستطيع، فسألني عما أعنيه. قلت له إنني لم أقم بعمل كهذا في حياتي، وإنني لا أعرف أي شيء، فقال إن ذلك لا يهم أبداً، ثم غدا فجأة فظيعاً! صاح بي قائلاً: ألسنت امرأة؟ أظن أن باستطاعتك أن تفعلي أي شيء لمساعدة امرأة أخرى؟ ثم أكمل حديثه بعنف قائلاً: أنت كنت تتحدىن وكأنك مهتمة بالطبع وقلت إنك تمنين أن تصبحي ممرضة... أظنه كان مجرد كلام جميل منق ولم تقصدي الأمر حقيقة. لكن هذا عمل حقيقي، ويجب أن تتصرف في كامرأة مسؤولة وليس كحمقاء عديمة الفائدة!

لقد قمت بأعمال لا تصدق يا جيري... أمسكت بالأدوات وغليتها بالماء وناولته إياها. إنني متعبة بحيث لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي. كان ذلك فظيعاً، لكنه أنقذها... وأنقذ الجنين.

غضت جوانا وجهها بيديها. تأملتها بسرور بالغ واحترمت أوين غريفيث في قراره نفسي؛ لقد جعل جوانا تواجه الواقع بشكل حقيقي لأول مرة. وأخيراً قلت لها: توجد رسالة لك في الصالة. أظنها من بول.

قالت: إيه؟ وسكتت دقيقة ثم أضافت: لم أكن أعرف يا جيري ما يُضطر الأطباء لعمله والشجاعة التي ينبغي أن يتحلوا بها!

خرجت إلى الصالة وأحضرت لجوانا رسالتها. فتحتها ونظرت إلى محتواها نظرات غامضة وتركتها تسقط من يدها، ثم قالت: لقد

كان... رائعاً حقاً. الطريقة التي حارب بها، الطريقة التي قاوم بها الهزيمة! صحيح أنه تحدث معي بغلظة... لكنه كان رائعاً.

لاحظت بشيء من السرور رسالة بول المهمَلة؛ من الواضح أن جوانا قد شفيت من بول!

* * *

الفصل الثالث عشر

الأمور لا تأتي أبداً عندما نتظرها.

كنت مشغولاً جداً بأموري الشخصية وأمور جوانا ففوجئت تماماً في صباح اليوم التالي عندما سمعت ناش يكلمني عبر الهاتف:
لقد أمسكتنا بها يا سيد بيرتن !

جفلت تماماً بحيث كدت أسقط السماعة. قلت: تقصد الـ...
قاطعني: هل يمكن لأحد أن يسترق السمع على حديثنا
الآن؟

- كلا، لا أظن ذلك... ولكن، ربما...

بدا لي أن باب المطبخ قد انفتح قليلاً، وسمعته يقول على
الطرف الآخر من الخط: هلا جئت إلى مركز الشرطة؟

- سأفعل، الآن مباشرة.

وسرعان ما كنت في مركز الشرطة. كان ناش في إحدى الغرف
الداخلية والابتسامة تملأ وجهه ومعه الرقيب باركتز. وما أن رأني
حتى قال: كانت مطاردة طويلة، لكننا وصلنا في النهاية.

ألقى إلى برسالة عبر الطاولة، وكانت -هذه المرة- مطبوعة كلها. وإذا ما قورنت بالرسائل الأخرى فإن هذه الرسالة كانت معتدلة اللهجة:

لا فائدة من الاعتقاد أن بإمكانك احتلال مكان امرأة ميّة. البلدة كلها تسخر منك. أخرجني الآن، فسريعًا سيكون الوقت قد فات. هذا تحذير؟ تذكرني ما حدث لتلك الفتاة. أخرجني وابقي خارجًا.

ثم تنتهي الرسالة ببعض العبارات المعتدلة في بذاءتها.

قال ناش: وصلت هذه الرسالة للأنسنة هولاند هذا الصباح.

قال الرقيب باركتز: كنّا نرى غرابة في عدم استلامها أية رسالة من قبل.

سألت: من التي كتبتها؟

تلّاشى شيء من الجدل عن وجه ناش. بدا مرهقاً مهوماً وقال بحزن: إنني آسف لهذا الأمر، لأنّه سيضر رجلاً محترماً بشدة، ولكن لا حيلة لنا. ربما راودته الشكوك بذلك أصلاً.

كررت سؤالي: من التي كتبتها؟

- الأنسنة إيمي غريفيث.

* * *

ذهب ناش وبارتز إلى بيت غريفيث عصر ذلك اليوم ومعهما إذن اعتقال، وذهبت معهما بدعوة من ناش الذي قال لي: إن الطيب

يحبك كثيراً؛ فليس له أصدقاء كثيرون في هذه البلدة. وما لم يكن هذا الأمر مؤلماً لك يا سيد بيرتن فإني أرى أن باستطاعتك مساعدته على تحمل الصدمة.

قلت إنني سأذهب معهما. لم أستسغ هذه المهمة، ولكنني ظنت أنني قد أكون مفيدة. قرعنـا الجرس وسألـنا عن الآنسـة غـريفـيثـ، فـتم إـدخـالـنـا إـلـى غـرـفة الـاستـقبـالـ. كـانـت إـلـيـسيـ هـولـانـدـ ومـيـغانـ وـسيـمـنـغـنـ هـنـاكـ يـشـربـونـ الشـايـ.

تـصـرـفـ نـاـشـ بـحـذـرـ بـالـغـ. سـأـلـ إـيمـيـ عـنـ إـمـكـانـيـةـ الـحـدـيـثـ مـعـهـاـ عـلـىـ اـنـفـرـادـ لـبـعـضـ الـوقـتـ، فـنـهـضـتـ وـجـاءـتـ بـاتـجـاهـنـاـ. وـأـظـنـتـيـ رـأـيـتـ نـظـرـةـ ذـعـرـ بـاهـتـةـ فـيـ عـيـنـيـهاـ، وـلـكـنـ تـلـكـ النـظـرـةـ -لـوـ كـانـتـ صـحـيـحةـ- قـدـ تـلـاشـتـ بـسـرـعـةـ. كـانـتـ طـبـيعـيـةـ تـمـامـاـ وـمـبـهـجـةـ.

- تـريـدـنـيـ؟ أـرـجـوـ أـنـ لـاـ تـكـونـ الـمـشـكـلـةـ بـسـبـبـ أـصـوـاءـ سـيـارـتـيـ مـرـةـ أـخـرـىـ؟

سـارـتـ أـمـامـنـاـ خـارـجـ غـرـفةـ الـاسـتـقبـالـ ثـمـ عـبـرـ الصـالـةـ إـلـىـ مـكـتبـ صـغـيرـ، وـفـيـماـ أـنـاـ أـغـلـقـ بـابـ غـرـفةـ الـاسـتـقبـالـ وـرـائـيـ لـمـحـتـ سـيـمـنـغـنـ يـلـتـفـتـ بـرـأسـهـ بـحـدـةـ وـقـدـ كـادـ يـنـهـضـ عـنـ كـرـسيـهـ. وـحـسـبـتـ أـنـ مـمارـسـتـهـ الـقـانـونـيـةـ قـدـ جـعـلـتـهـ يـأـلـفـ قـضـاـيـاـ الشـرـطةـ، فـلـعـلـهـ مـيـزـ شـيـئـاـ مـاـ فـيـ سـلـوكـ نـاـشـ... وـكـانـ هـذـاـ كـلـ مـاـ رـأـيـتـهـ قـبـلـ أـنـ أـغـلـقـ الـبـابـ وـأـتـبعـ الـآـخـرـينـ.

كـانـ نـاـشـ يـؤـديـ مـهـمـتـهـ بـدـقةـ، وـكـانـ هـادـئـاـ تـمـامـاـ. نـبـهـاـ لـحـقـوقـهـاـ، ثـمـ طـلـبـ مـنـهـاـ أـنـ تـصـحـيـهـ. كـانـ مـعـهـ إـذـنـ بـاعـتـقـالـهـاـ، وـقـرـأـ عـلـيـهـاـ التـهـمـةـ... وـلـقـدـ نـسـيـتـ الـآنـ الـعـبـارـةـ الـقـانـونـيـةـ التـيـ قـالـهـاـ بـالـضـيـطـ، وـلـكـنـهـ كـانـ تـعـلـقـ بـكـتـابـةـ الرـسـائلـ وـلـيـسـ بـجـرـيـمـةـ القـتـلـ.

رفعت إيمى غريفيث رأسها عالياً وضجت بالضحك، ثم صاحت قائلة: يا له من كلام فارغ سخيف! أيمكن أن أكتب مثل هذا الكلام البذيء. لا بد أنك جنتت؛ أنا لم أكتب كلمة واحدة ممّا قلته.

كان ناش قد أخرج الرسالة الموجهة لإلسي هولاند وقال: هل تذكرين أنك كتبت هذه يا آنسة غريفيث؟

إن كانت قد ترددت فإن ذلك لم يستغرق منها إلا جزءاً من الثانية. قالت: أنكر ذلك بالطبع؛ أنا لم أر هذه الرسالة أبداً من قبل.

قال ناش بهدوء: لا بد أن أخبرك يا آنسة غريفيث أن أحدهم لاحظك وأنت تطبعين هذه الرسالة على الآلة الكاتبة في جمعية المرأة بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف مساء، في الليلة قبل الماضية. وبالأمس دخلت مكتب البريد وبيدك حزمة من الرسائل ...

- لم أضع هذه الرسالة في البريد أبداً.

- صحيح، أنت لم تضعها؛ لأنك - بينما كنت تنتظرين الحصول على طوابع - أسقطتها على الأرض بطريقة لا تثير الشكوك، بحيث يأتي شخص ما ويأخذها من الأرض دون ارتياح ثم يضعها في صندوق البريد.

- لم أفعل ...

افتتح الباب ودخل سيمونغتن. قال بحدة: ما الذي يجري؟ إن

كان في الأمر شيء غير طبيعي يا إيمى فيجب أن يكون لديك من يمثلك قانونياً، إن أردتني أن...

انهارت عندها. غطت وجهها بيديها وتلمست طريقها إلى كرسي، ثم قالت: اذهب يا دك، اذهب. ليس أنت... ليس أنت!

- أنت بحاجة لمحام يا عزيزتي.

- ليس أنت، إبني... إبني لا أستطيع تحمل هذا. لا أريدك أن تعرف... كل هذا.

ربما فهم عندها ما تعنيه، فقد قال بهدوء: سأحضر لك المحامي مايلدمي من إكزامبتن، هل هذا ينفع؟

أومأت برأسها موافقة وهي تت selv، وخرج سيمتعتن من الغرفة. عند مدخل الباب اصطدم بأوين غريفيث الذي قال بغضب: ماهذا؟ أختي...

قال ناش: أنا آسف يا دكتور غريفيث، آسف جداً... ولكن ليس أماماً بديل.

- أظن أنها... أنها مسؤولة عن تلك الرسائل؟

قال ناش: أخشى أن لا يكون في ذلك شك يا سيدى.

ثم التفت نحو إيمى وقال: يجب أن تأتي معنا الآن يا آنسة غريفيث... ستتحصلين على كل المساعدة لرؤيه أحد المحامين.

صاح أوين: إيمى؟

اندفعت من أمامه دون أن تنظر إليه قائلة: لا تتحدث معي.
لا تقل شيئاً، ولا تنظر إلىّي بالله عليك!

خرجوا من الغرفة، فيما وقف أوين كرجل مسحور. انتظرت
قليلًا ثم تقدمت نحوه وقلت: إن كان من شيء يمكنني فعله يا سيد
غريفيث فقل لي.

قال كرجل يعيش في حلم: إيمى؟ لا أصدق!
قلت متعللاً: قد يكون في الأمر خطأ.

قال بيطء: ما كانت لتتصرف هكذا لو كان في الأمر خطأ.
ما كنت لأصدق هذا أبداً... لا يمكنني تصديق هذا الأمر.

رمى نفسه على كرسي، وحاولت أن أساعد بتقديم عصير
منعش. شرب ما قدمته له، ويداً أن ذلك أفاده فقد قال: لم أستطع
فهم الأمر في البداية، ولكنني بخير الآن. أشكرك يا بيرتن، ولكن
لا يوجد ما يمكنك فعله... ليس بوسع أحد فعل شيء.

انفتح الباب ودخلت جوانا وهي شديدة الشحوب. جاءت إلى
أوين ونظرت إلىّي وقالت: اخرج يا جيري... هذا عملي أنا.
وفيما أنا أخرج عبر الباب رأيتها تجثو على ركبتيها بجانبه.

* * *

لا أستطيع أن أسرد عليكم بشكل متماسك أحداث الساعات
الأربع والعشرين التي تلت ذلك، إذ تبرز العديد من الأحداث التي
لا يربطها رابط.

أذكر مجيء جوانا إلى البيت وهي شديدة الشحوب والذهول، وكيف أتني حاولت رسم الابتسامة على شفتيها قائلاً: لقد سبق لك أن وصفت إيمي غريفيث بأنها تصرف مع أخيها كالملك الحارس، فمن هو الملك الحارس الآن؟

وأذكر كيف ابتسمت بطريقة محزنة وقالت: "يقول إنه لا يريدني يا جيري؛ إنه شديد الغرور والصلابة!"، فقلت لها: وفتاتي أيضاً لا تريدني ...

جلسنا هناك لبعض الوقت، وقالت جوانا أخيراً: لا تلقى عائلة بيرتن رواجاً في الوقت الحالي！

قلت: لا تهتمي يا عزيزتي، فما زلنا نعيش بعضنا البعض. فردت جوانا: إن هذا لا يشكل لي عزاء يا جيري في الوقت الحاضر ...

* * *

جاء أوين لزيارة في اليوم التالي وانطلق في حديث مسهب مادحاً جوانا و قائلاً إنها رائعة، وتحدث عن الطريقة التي جاءت بها إليه وكيف أغربت عن استعدادها للزواج به... فوراً إن شاء. ولكنه ما كان ليسمح بذلك؛ لأنها فتاة أطيب وأرق من أن يرتبط اسمها بتلك القذارات التي لن تثبت بالانتشار على الألسنة بمجرد وصول خبر أخته إلى الصحف. وكنت أحب جوانا كثيراً وأعرف أنها من النوع الذي يحب الوقوف مع الناس في الأزمات، وقلت لأوين بشيء من الانزعاج أن لا يكون على هذه الدرجة السخيفة من المثالية.

ذهب إلى الشارع العام فوجدت أن السن الجميع ترثى دون انقطاع. كانت إميلي بارتن تقول إنها لم تثق أبداً بإيمى غريفيث، وكانت زوجة البقال تقول بحماسة إنها كانت ترى دائمًا أن للأنسة غريفيث نظرة غريبة في عينيها...

وعلمت من ناش أن الشرطة قد أكملوا التحقيق في القضية، وقد كشف البحث في البيت عن وجود الصفحات المقصوصة من كتاب إميلي بارتن وقد أخفيت -من بين كل الأماكن- في الخزانة أسفل الدرج، ملفوفة بورق جدران قديم.

قال ناش معجبًا: وهو مخبأً جيد! أنت لا تعلم متى يمكن لخادم متطفل أن يعبث في مكتب أو درج مغلق... أما خزائن المستهلكات هذه، المليئة بكرات التنس القديمة وورق الجدران القديم فلا تُفتح أبداً إلا عندما يريدون حشر مزيد من الأغراض داخلها.

- يبدو أن لتلك السيدة ولعاً بهذا المخبأ بالذات.

- نعم، نادرًا ما تجد الكثير من التنوع في العقل الإجرامي... وبالمناسبة، فقد وجدنا حقيقة يمكن السير على هديها فيما يتعلق بالفتاة القتيلة؛ فقد فقدت يدُ هاون كبيرة ثقيلة من صيدلة الطيب، وأرهن على أنها هي الأداة التي ضربت بها الفتاة.

اعتراضت قائلًا: ولكنها أداة يصعب أن يحملها المرء معه.

- ليس بالنسبة للأنسة غريفيث. كانت ستذهب إلى لقاء الكشافة عصر ذلك اليوم، ولكنها كانت ذاهبة أيضًا لإيصال الزهور والخضروات إلى معرض الصليب الأحمر في طريقها، ولذلك كانت تحمل معها سلة كبيرة جداً.

- ألم تجد السيخ؟

- نعم، ولن أجده. ربما كانت تلك الشيطانة المسكينة مجنونة، ولكن الجنون لم يبلغ بها حداً يجعلها تحتفظ معه بسيخ ملطخ بالدماء لتسهل علينا إثبات الجرم عليها، وهي لا تحتاج إلا لغسل السيخ وإعادته إلى درج المطبخ.

وافقتُ قائلًا: أظن أن المرء لا يستطيع الحصول على كل شيء.

كان بيت الكاهن آخر بيت يسمع بالخبر، وقد حزنت الآنسة العجوز ماربل للخبر كثيراً. تحدثت معي في هذا الموضوع باهتمام شديد قائلة: ليس صحيحاً يا سيد بيرتن، أنا واثقة أنه ليس صحيحاً.

- أخشى أنه صحيح تماماً. لقد نصبوا لها كميناً ورأوها تطبع تلك الرسالة بالفعل.

- نعم، نعم... ربما رأوها. نعم، يمكنني فهم هذا الأمر.

- وقد وجدت الصفحات المطبوعة التي أخذت منها حروف الرسالة حيث كانت قد أخفتها في بيتها.

نظرت الآنسة ماربل إليَّ، ثم قالت بصوت خافت جداً: هذا فظيع... عمل شرير حقاً.

جاءت السيدة كالثروب بسرعة وانضمت إلينا قائلة: ما الأمر يا جين؟

كانت الآنسة ماربل تتمت يائسة: يا إلهي، يا إلهي... ما الذي يمكن للمرء أن يفعله؟

- ما الذي أزعجك يا جين؟

قالت الآنسة ماربل: لابد من وجود شيء. ولكنني كبيرة في السن كثيراً وجاهلة جداً، وأخشى أن أكون غبية جداً أيضاً.

أحسست بشيء من الارتباك، وفرحت عندما جاءت السيدة كالثروب وأخذت صديقتها. ومع ذلك فقد قدر لي أن أرى الآنسة ماربل مرة أخرى عصر ذلك اليوم عندما كنت عائداً إلى البيت. كانت تقف قرب الجسر الصغير عند طرف القرية قريباً من بيت السيدة كليت، وكانت تتحدث مع ميغان.

أردتُ رؤية ميغان، بل كنت أريد رؤيتها طوال ذلك اليوم؛ ولذلك سارعت خطوي، ولكن عندما وصلت إليهما دارت ميغان وذهبت في الاتجاه الآخر. وقد أغضبني ذلك، وكان من شأنني أن أتبعها لو لا أن الآنسة ماربل اعتبرت طريفي قائلة: كنت أود الحديث معك. لا تذهب وراء ميغان الآن؛ فلن يكون ذلك تصرفًا حكيمًا.

وقد أوشككتُ على الرد عليها بحدة لو لا أن جردنني من سلامي بقولها: هذه الفتاة شجاعة جداً... شجاعة إلى أبعد حد!

ورغم ذلك أردتُ اللحاق بميغان، ولكن الآنسة ماربل قالت: لا تحاول رؤيتها الآن. إنني أعرف ما أتحدث عنه؛ يعجب عليها أن تحتفظ بشجاعتها.

كان في تأكيد السيدة العجوز شيء أصابني بالقشعريرة، وكأنها

كانت تعرف شيئاً لا أعرفه. كنت خائفاً ولا أعرف سبب خوفي. ولم أذهب إلى البيت، وإنما عدت إلى الشارع العام وسررت فيه جيئة وذهاباً دون هدف. لا أعرف ماذا كنت أنتظر أو بماذا كنت أفكر...

أمسكتني ذلك العجوز الممل الثقيل الكولونيال أبلتون. سألني عن اختي الجميلة كعادته ثم أكمل قائلاً: ما كل هذا الكلام عن اخت غريفيث وعن جنونها المطبع؟ يقولون إنها هي التي كانت تقف خلف تلك الرسائل المجهولة التي كانت مصدر إزعاج للجميع؟ لم أصدق هذا الكلام في البداية، ولكنهم يقولون إنه صحيح تماماً.

قلت له إنه كلام صحيح.

- حسناً، يجب أن أعترف بأن شرطتنا جيدون إجمالاً. أعطهم الوقت الكافي فقط، هذا كل ما هنالك. غريبة مسألة الرسائل المجهولة هذه... إن أولئك العجائز العجاف هن دائماً المولعات بهذا الأمر، مع أن الآنسة غريفيث لم تكن سيئة المظهر، رغم طول أسنانها قليلاً... ولكن لا توجد أية فتاة جميلة في هذه المنطقة، ما عدا تلك الفتاة المربيبة عند سيمونتن؛ إنها جديرة بأن يُنظر إليها، كما أنها فتاة لطيفة تعرب عن الامتنان لأية خدمة صغيرة يؤديها لها المرء. التقيت بها عندما كانت في نزهة مع الأطفالين قبل مدة قصيرة، وكانت يلهوan ويلعبان على العشب بينما كانت تحيل الصوف بصنارتها... وقد انزعجت كثيراً لأن الصوف نفد، فقلت لها: "هل تحبين أن أوصلك إلى لايمستوك؟ سأتوقف هناك لأخذ عصايم العسكرية ولن أتأخر أكثر من عشر دقائق، ثم أعيدك مرة أخرى". كانت متربدة قليلاً في ترك الولدين. قلت لها: "لن يكون

عليهمما بأس. متى يريد أن يؤذيهما؟ لا تخافي فلن نتركهما طويلاً!"
وهكذا أخذتها معه في السيارة وأنزلتها عند محل الصوف ثم عدت
وأخذتها مرة أخرى وانتهي الأمر. كانت في غاية الامتنان وشكرتني
بسخاء... فتاة لطيفة.

نجحتُ أخيراً في الهروب منه.

بعد ذلك رأيت الأنسة ماربل للمرة الثالثة، وكانت خارجة من
مركز الشرطة.

* * *

من أين تأتي مخاوف المرء؟ أين تتشكل هذه المخاوف، وأين
تكون مختبئة قبل أن تخرج للعلن؟

مجرد عبارة واحدة قصيرة، سمعت وسجلت ولم تُنْجَ جانباً
أبداً: "أرجوك أن تأخذني بعيداً... إن البقاء هنا والشعور بكل هذا
الشر أمر فظيع...".

لماذا قالت ميغان هذا، ولماذا عساها تشعر بالشر؟ لم يكن في
وفاة السيدة سيمغتنم ما يجعل ميغان تشعر بالشر.

لماذا شعرت الفتاة بالشر؟ لماذا؟ لماذا؟ أيمكن أن يكون ذلك
لأنها أحست بالمسؤولية بأي شكل؟

ميغان؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون لميغان أية علاقة بتلك
الرسائل... تلك الرسائل القدرة الفاحشة. ولكن: كان أوين غريفيث
قد عرف بحالة مماثلة في الشمال... طالبة مدرسة!

ما الذي قاله المفتش غريفز؟ شيء عن عقل مراهق... سيدات عجائز على طاولة العمليات الجراحية يهذين بكلمات لا يكذن يعرفها... صبية صغار يكتبن أشياء على الجدران.

كلا، كلا... ليس ميغان.

أتكون الوراثة؟ العِرق السيء؟ وراثة لا واعية لشيء شاذ؟ أيُكون سوء حظ لا يدلها فيه... لعنة لحقت بها من جيل مضى؟ لماذا قالت: "لست من النوع الذي يصلح زوجة لك؛ إنني أتقن الكراهة أكثر مما أتقن الحب".؟

آه، ميغان.. طفلتي الصغيرة. عسى أن لا يكون ذلك! كل شيء إلا ذلك. وتلك العانس العجوز تلاحقك، إنها تشک. تقول إنك شجاعة. شجاعة للقيام بماذا؟

كانت نوبة جنون عابرة مرت، ولكنني أردت رؤية ميغان... كنت بحاجة ماسة لرؤيتها. تركت البيت الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة وذهبت إلى البلدة، ومن هناك إلى بيت سيمونتن. وعندها خطرت في بالي فكرة جديدة تماماً... امرأة لم يفكر بها أحد لحظة واحدة (أم أن ناش فكر بها؟)... كان ذلك مُستبعداً جداً، غير محتمل إطلاقاً، وكان من شأنني -حتى هذا اليوم- أن أعتبره مستحيلاً أيضاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك، كلا، لم يكن مستحيلاً.

ضاعت سرعتي، فقد أصبح من الحيوي الآن أن أرى ميغان على الفور. عبرت بوابة منزل سيمونتن وصعدت إلى البيت. كانت ليلة مظلمة ملبدة بالغيوم، وبدأ قليل من المطر في السقوط، وكانت الرؤية سيئة.

رأيت خطأً من الضوء من إحدى النوافذ. أهي الغرفة الصغيرة التي كنا فيها في الصباح؟ ترددت قليلاً، ثم انعطفتُ -بدل الذهاب إلى الباب الأمامي- وزحفت بهدوء إلى أن صعدتُ إلى النافذة متأبطةً غصناً ضخماً، وبقيت هناك خافضاً رأسياً.

كان الضوء يخرج من فتحة الستارة التي لم تكن مغلقة جيداً. كان من السهل النظر منها ورؤيتها ما بداخل الغرفة، وقد كان المنظر في الداخل عائلياً هادئاً: سيمنعن يجلس على كرسي كبير، وإلسي هو لاند منكبة على رتق قميص أحد الأولاد.

كنت أستطيع سماع الحديث إضافة إلى الرؤية لأن النافذة كانت مفتوحة من أعلى. كانت إلسي هو لاند تقول: ولكني أظن فعلاً يا سيد سيمنعن أن الولدين قد كبرا بما فيه الكفاية ويمكّنهما الذهاب إلى مدرسة داخلية. وهذا لا يعني أنني لن أكره غيابهما عنِّي، بل سأكره ذلك فعلاً؛ فأنا أحبهما كثيراً.

قال سيمنعن: أظنك مصيبة بخصوص برايان يا آنسة هو لاند. لقد قررتُ إرساله ليبدأ الفصل القادم في مدرسة وينهايز... مدرستي الابتدائية القديمة. ولكن كولين ما يزال صغيراً، وأفضل أن يتظر سنة أخرى.

- إنني أفهم ما تعنيه بالطبع، كما أن كولين ربما كان صغيراً قليلاً بالنسبة لعمره...

حديث متزلي هادئ... مشهد متزلي هادئ...

ثم فتح الباب ودخلت ميغان. وقفت عند مدخل الباب متتصبة

القامة، ولاحظت فوراً أن بها شيئاً من التوتر. كان جلد وجهها مشدوداً وعيناها لامعتين حازمتين. لم يبد عليها هذه الليلة حياء أو تردد أو طفولية. قالت تناطح سيمونغتن باسمه المجرد (وفجأة فكرت بأنني لم أسمعها تناديه أبداً. هل كانت تناطحه بلفظ أبي أم باسمه أم بماذا؟)، قالت: أود الحديث معك من فضلك، على انفراد.

بدا سيمونغتن مدهوشًا وقطب جبينه، وتصورت أنه لم يكن مسروراً، لكن ميغان أصرت على كلامها بعزم لم يكن من عادتها. التفت إلى إلسي هولاند وقالت: هل تمانعين يا إلسي؟

قفزت إلسي هولاند من مقعدها وقالت: "بالطبع لا". بدت جفلة مضطربة قليلاً وذهبت إلى الباب، ودخلت ميغان حتى تفسح لها طريق الخروج. وللحظة فقط وقفت إلسي عند مدخل الباب جامدة تنظر وراءها. كانت شفتاها مزمومتين وقد وقفت جامدة دون حركة وإحدى يديها ممدودة بينما أمسكت الأخرى بالقميص الذي كانت تعمل فيه، ثم خرجت وأغلقت الباب.

قال سيمونغتن بشيء من الغضب: ما الأمر يا ميغان؟ ماذا تريدين؟

كانت ميغان قد خطت باتجاه المكتب ووقفت هناك تحدق إلى سيمونغتن، وقد ذهلت من جديد للتصميم العازم في وجهها، ولشيء آخر... لصالية كانت جديدة على. وأخيراً فتحت شفيتها وقالت شيئاً أجهلني حتى المصمم: أريد بعض المال!

لم يُحسن هذا الطلب مزاج سيمونغتن. قال بحدة: ألم يكن

بإمكانك الانتظار حتى صباح الغد؟ ماذا جرى؟ أترى أن مصروفك لا يكفي؟

قالت ميغان: أريد مبلغاً كبيراً من المال.

اعدل سيمنعن في جلسته وقال بفتوح: ستبلغين السن القانونية بعد بضعة أشهر، وعندها سيحيل لك الوصي العام الأموال التي تركتها لك جدتك.

قالت ميغان: أنت لا تفهمي... أريد مالاً مثلـ.

ثم أكملت تحدث بسرعة أكبر: لم يكلمني أحد كثيراً عن والدي؛ لا يريدون لي أن أعرف عنه شيئاً، ولكنني أعرف أنه دخل السجن، وأعرف السبب... كان ذلك بسبب الابتزاز!

سكتت قليلاً ثم قالت: حسناً، وأنا ابنته، وربما أشبهه. على أية حال فإني أطلب منك مالاً لأنك... إن لم تفعل... وسكتت مرة أخرى ثم أكملت بكل بطء وهدوء: إن لم تفعل... فسوف أكشف ما رأيتك تفعله بتلك الكبسولة في غرفة والدتي ذلك اليوم.

сад شيء من الصمت، ثم قال سيمنعن بصوت يخلو من أية عاطفة: لا أعرف ما تقصدينه.

- بل أظنك تعرف.

ثم ابسمت، ولم تكن ابتسامة لطيفة. ونهض سيمنعن، ذهب إلى طاولة المكتب فأخرج منها دفتر الشيكات وكتب شيئاً وقعه بحرص شديد ثم عاد فقدمه لها وقال: أنت فتاة بالغة الآن وأفهم أنك

قد تشعرين بالحاجة لشراء شيء خاص كالملابس وغيرها. لا أعرف ما تتحديث عنـه... لم أنتبه، ولكن هـاـك هذا الشـيـك.

نظرت مـيـغانـ إلىـ الشـيـكـ وـقـالتـ: شـكـراـ، هـذـاـ يـكـفـيـ لـمـاـ أـرـيدـهـ.

دارـتـ وـخـرـجـتـ مـنـ الغـرـفـةـ، وـحـدـقـ سـيـمـغـنـتـ إـلـيـهاـ وـهـيـ خـارـجـةـ وـبـالـبـابـ المـغلـقـ، ثـمـ التـفتـ. وـعـنـدـمـاـ رـأـيـتـ وجـهـهـ تـقـدـمـتـ إـلـىـ الـأـمـامـ بـحـرـكـةـ سـرـيـعـةـ لـمـ أـتـمـالـكـهـاـ، وـلـكـنـ تـمـ وـقـفـ حـرـكـتـيـ تـلـكـ بـطـرـيـقـةـ غـرـيـبـةـ جـداـ. فـالـغـصـنـ الـكـبـيرـ الـذـيـ لـاحـظـتـ قـرـبـ الـحـائـطـ لـمـ يـعدـ غـصـنـاـ!

أـحـاطـتـ بـيـ ذـرـاعـاـ المـفـتـشـ نـاـشـ وـهـمـسـ فـيـ أـذـنـيـ: اـهـدـأـ يـاـ بـيـرـتـنـ، اـهـدـأـ بـالـلـهـ عـلـيـكـ.

ثـمـ تـرـاجـعـ إـلـىـ الـورـاءـ بـحـذـرـ شـدـيدـ وـهـوـ يـمـسـكـ بـيـ حـتـىـ أـصـحـبـهـ. وـعـنـدـ جـانـبـ الـبـيـتـ اـنـتـصـبـ وـاقـفـاـ وـمـسـحـ جـيـبـهـ وـقـالـ: لـاـ مـفـرـ منـ تـطـفـلـكـ بـالـطـبـعـ!

قـلـتـ بـإـلـحـاجـ: تـلـكـ الـفـتـاةـ لـيـسـ فـيـ مـأـمـنـ؛ هـلـ رـأـيـتـ وجـهـهـ؟ يـجـبـ أـنـ نـخـرـجـهـاـ مـنـ هـنـاـ.

قـبـضـ نـاـشـ عـلـىـ ذـرـاعـيـ بـقـوـةـ وـقـالـ: اـسـمـعـنـيـ الـآنـ يـاـ سـيـدـ بـيـرـتـنـ، يـجـبـ أـنـ تـصـغـيـ.

* * *

حـسـنـاـ، لـقـدـ أـصـغـيـتـ بـالـفـعـلـ. لـمـ أـحـبـ ذـلـكـ... وـلـكـنـيـ أـذـعـنـتـ، عـلـىـ أـنـيـ أـصـرـرـتـ عـلـىـ الـبـقـاءـ فـيـ الـمـكـانـ، وـأـقـسـمـتـ لـهـ أـنـ أـطـيـعـ الـأـوـامـرـ طـاعـةـ تـامـةـ.

وهكذا دخلت مع ناش وباركرنر إلى البيت من الباب الخلفي الذي ترك غير مغلق عمداً، وانتظرنا عند بسطة الدرج وراء الستارة المخملية التي تفطى فتحة النافذة إلى أن دقّت ساعة العاشر معلنة الساعة الثانية. عندئذ فتح سيمونغتن باب غرفته وعبر بسطة الدرج ودخل غرفة ميغان.

لم أتحرك من مكانني لأنني كنت أعرف أن الرقيب باركرنر كان في الداخل مختبئاً وراء الباب المفتوح، وكنت أعرف أن باركرنر رجل جيد ويعرف عمله، وكانت أعرف أنني لا أستطيع الثقة بقدراتي على المحافظة على هدوئي لو كنتُ مكانه.

وفيما أنا أنتظر هناك وقلبي يخفق بشدة، رأيت سيمونغتن يخرج من الغرفة حاملاً ميغان بين ذراعيه وينزل بها إلى الطابق السفلي، وتبعناه أنا وناش تاركين بيننا وبينه مسافة معقولة. حملها إلى المطبخ، وكان قد أكمل وضعها بشكل مريح بحيث يكون رأسها في فرن الغاز وفتح صمام الغاز عندما دخلت مع ناش المطبخ وأضأنا المصباح.

وكانت تلك نهاية ريتشارد سيمونغتن... وقع منهاه وأنا أبعد ميغان وأغلق صمام الغاز. لم يحاول حتى المقاومة؛ فقد عرف أنه قد خسر اللعبة.

* * *

في الطابق العلوي جلست بجانب سرير ميغان أنتظر أن تستعيد وعيها وأنا أسبّ ناش بين حين وآخر. آتبته قائلاً: كيف تعرف أنها ستكون على ما يرام؟ كانت مجازفة كبيرة من جانبك.

كان ناش يحاول تهدئتي بשתى الطرق، فقد قال: مجرد قليل من المنوم في حليها الذي تصفعه بجانب سريرها دائماً، لا شيء أكثر من ذلك، وهو تصرف متوقع. إنه لم يستطيع المجازفة بتسميمها؛ فقد انتهت القضية -بالنسبة له- باعتقال الآنسة غريفيث، ولن يتحمل وقوع جريمة غامضة أخرى. لا عنف ولا سمو، ولكن إذا ما اعتملت في نفس فتاة كثيبة مسألة انتحار والدتها لفترة طويلة، ثم ذهبت في النهاية ووضعت رأسها داخل فرن الغاز، فإن الناس سيقولون إنها لم تكن فتاة طبيعية تماماً وإن صدمة وفاة والدتها قد قضت عليها.

قلت وأنا أرقب ميغان: مضى وقتٌ طويل ولم تُفْقِ.

- أما سمعت ما قاله الدكتور غريفيث؟ قلبها وبنصها طبيعيان تماماً... ستتم وتنسيقظ بطريقة طبيعية. هو قال إنه يعطي هذه المادة للكثير من مرضاه.

تحركت ميغان قليلاً. تمنت بشيء، وغادر المفتش ناش الغرفة دون تطفل. وسرعان ما فتحت ميغان عينيها وقالت: جيري!

- مرحباً يا حبيبي.

- هل قمت بالأمر جيداً؟

- وكان الابتزاز مهمتك مذ كنت في المهد!

أغلقت ميغان عينيها ثانية، ثم تمنت: الليلة الماضية... كنت

أكتب لك رسالة... خشية أن... أن يحدث لي سوء. ولكنني شعرت
بنعاس لم أستطع معه إكمالها. إنها هناك.

ذهبت إلى طاولة المكتب. وجدت رسالة ميغان غير المكتملة
في دفتر ملاحظات صغير مهترئ، وكانت تبدأ بشكل رسمي على
النحو التالي:

عزيزي جيري،

كنت أقرأ ما كان مقرراً علينا في المدرسة من أعمال
شكسبير، وتلك القصيدة التي مطلعها: «أنت لأفكاري
كما الطعام للحياة، أو كالآمطار في عذب موسمها
للأرض».

وقد أدركت أنني أحبك في نهاية الأمر، لأن هذا
ما أشعر به فعلاً!

* * *

الفصل الرابع عشر

قالت السيدة كالثروب: وهكذا ترى أنني كنت على حق في استدعاء خبير.

نظرت إليها بامتعان. كنا جمِيعاً في بيت الكاهن، وكان المطر يتساقط خارج البيت بغزاره، وكانت النار متقدة في الموقد بشكل يبعث على الارتياب.

قلت مدهوشاً: ولكن، هل استدعيت أحداً حقاً؟ من يكون هذا؟ وماذا فعل؟

قالت: "لم يكن رجلاً"، ثم أشارت إلى الآنسة ماربل بيدها. كانت الآنسة ماربل قد انتهت من حبك الصوف وشغلت نفسها الآن بصنارة وبكرة قطن.

قالت السيدة كالثروب: تلك هي خيرتي... جين ماربل. انظر إليها جيداً. إن هذه المرأة تعرف عن الأنواع المختلفة للشر البشري أكثر من أي شخص آخر أعرفه.

تممت الآنسة ماربل: لا أظن من المناسب أن تصفيني هكذا يا عزيزتي.

- لكنك كذلك فعلاً.

قالت الآنسة ماربل بهدوء: إن المرء يرى الكثير من الطياع
البشرية وهو مقيم طوال العام في القرية.

ثم وضعت النسيج الذي كانت تجده وألقت خطبة لطيفة عن
جرائم القتل وكأنها شعرت بأن ذلك ما هو مُنتظر منها: أهم شيء في
هذه القضايا هو إبقاء الذهن منفتحاً تماماً على كل الاحتمالات. معظم
الجرائم بسيطة لحد السخافة، وهذه الجريمة كذلك. جريمة معقولة
 تماماً واضحة... ومفهومة تماماً... بطريقة كريهة بالطبع.

- كريهة جداً!

- لقد كانت الحقيقة واضحة جداً في الواقع، وقد عرفتها أنت
يا سيد بيرتن.

- الحقيقة أنني لم أعرفها.

- لكنك عرفتها فعلاً، وقد أشرت إلى الأمر كله وأوحيت لي
به. لقد أدركت تماماً علاقة الأشياء بعضها بعض، ولكنك كنت
تفتقر إلى الثقة الكافية بالنفس لفهم ما كانت تعنيه أحاسيسك تلك.
فقد كانت هناك أولًا تلك العبارة المممة: «لا دخان بلا نار»، كانت
تعيظك، ولكنك تقدمت بطريقة صحيحة لتسميتها بالاسم الذي
يناسبها: ساتر دخاني؟ أي تضليل في الاتجاه... حيث ينظر الجميع
إلى الشيء غير الصحيح... أي إلى الرسائل المجهولة، ولكن النقطة
المهمة هي أنه لم تكن في الأمر أية رسائل مجهولة!

- ولكن يا عزيزتي الآنسة ماريل، أؤكد لك أن الرسائل المجهولة كانت موجودة فعلاً... لقد تلقيت واحدة منها.

- آه، نعم... ولكنها لم تكن حقيقة إطلاقاً. العزيزة مود توصلت -دون وعي منها- إلى هذه الحقيقة. حتى في بلدة لا يمستوك المسالمة توجد الكثير من الفضائح، وأؤكد لك بأن من شأن أية امرأة تعيش في هذه البلدة أن تعرف تلك الفضائح وتستخدمها. أما الرجل فلا يهتم بالقيل والقال بنفس الطريقة... وخصوصاً إن كان رجلاً منطقياً بعيداً عن تلك الاهتمامات مثل السيد سيمونغتن. لقد كان من شأن كاتبة حقيقة لهذه الرسائل أن تجعل رسائلها أدق تصويباً.

وهكذا ترى أنك ستهتدى إلى الطريق لو تركت الدخان جانباً وجئت إلى النار. ما عليك إلا أن تعود إلى الحقائق الفعلية لما حدث. وإذا وضعت الرسائل جانباً، فإن شيئاً واحداً قد حدث، وهو وفاة السيدة سيمونغتن.

وفي هذه الحالة، من الطبيعي أن يفكر المرء بالذى يريد وفاة السيدة سيمونغتن. وبالطبع فإن الشخص الأول الذى يفكر فيه المرء في مثل هذه الحالة هو الزوج، ويسأل المرأة نفسه إن كان يوجد أي سبب أو أي دافع... امرأة أخرى مثلاً؟

وكان أول ما سمعته هنا هو وجود مربية أطفال جذابة جداً في البيت. أليس هذا واضحاً؟ السيد سيمونغتن، الرجل العاجف المكتوب غير العاطفي، مرتبط بامرأة نكدة عصبية المزاج، ثم فجأة تأتي هذه الشابة المتألقة.

أخشى أن الرجال يصبحون مجانيين تماماً عندما يقعون في الحب في سن معينة... كما أن السيد سيمغتن -حسب استنتاجي- لم يكن رجلاً طيباً أبداً؛ لم يكن لطيفاً أو ودوداً أو متعاطفاً بل كانت صفاتة سالبة إجمالاً... ولذلك لم يكن يمتلك حقاً القوة لمقاومة جنونه. وفي ظرف كهذا لن يحل مشكلته إلا وفاة زوجته. لقد أراد الزواج بهذه الفتاة، وهي ذات سمعة محترمة، وكذلك هو. وهو محب لأطفاله أيضاً ولا يريد التخلص عنهم. كان يريد كل شيء: بيته وأطفاله وسمعته وإلسي، والثمن الذي كان عليه أن يدفعه للوصول إلى ذلك هو القتل.

واني لأراه اختر طريقة ذكية جداً؛ فقد كان يعرف جيداً من خلال خبرته في القضايا الجنائية أن الشرطة يشتبهون بالزوج على الفور إن ماتت زوجته على نحو غير متوقع... بالإضافة إلى احتمال تشريح الجثة في حالة التسمم؛ ولذلك فقد رتب الجريمة بحيث تبدو مجرد نتيجة عرضية لأمر آخر باختراعه كاتبة غير موجودة لرسائل مجهولة. والشيء الذكي في هذه الخطة أن من المؤكد أن يشتبه الشرطة بأمرأة، وقد كانوا على حق تماماً بطريقه ما. كانت الرسائل جميعها نسوية بالفعل، وقد نسخها بكل ذكاء من تلك التي انتشرت في قضية العام الماضي ومن قضية أخيه عنها الدكتور غريفيث. لا أقصد أنه كان مغفلًا بحيث قلد نفس الأسلوب حرفيًا، ولكنه أخذ عبارات وكلمات منها وخلطها معاً، وكانت النتيجة أن الرسائل كانت تمثل ذهنية امرأة... امرأة ذات شخصية مكبوبة شبه مجنونة.

كان يعرف جميع الأساليب التي يستخدمها الشرطة بالتحري عن خط اليد والآلات الكاتبة، وغير ذلك. وكان يعد لجريمه منه

زمن بعيد، ولذا فقد طبع جميع المجلفات قبل أن يهدي آلته الكاتبة لجمعية المرأة، ولعله قطع الصفحات من كتاب في منزل ليتل فيرز قبل وقت طويل عندما كان يتظاهر في غرفة الاستقبال ذات يوم. إن الناس لا يفتحون كتب المواقع كثيراً!

وأخيراً، وبعد أن نشر تماماً نتاجات قلمه المسموم الزائف وشغل القرية بها، بدأ عمله الحقيقي. وقد اختار لذلك عصر يوم جميل عندما تكون المربية والأولاد وأبنته زوجته في الخارج وعندما يكون الخدم في يوم عطلتهم الأسبوعية، ولم يكن بإمكانه التنبؤ بأن خادمته أغنيس ستستاجر مع صديقها وتعود إلى المنزل.

سألت جوانا: ولكن ما الذي رأته؟ هل تعرفين هذا؟

- لا أعرف، ولكن يمكنني التخمين فقط. وتخميني هو أنها لم تر أي شيء.

- أي أن ذلك كان وهم؟

- لا، لا يا عزيزتي. أقصد أنها وقفت عند نافذة غرفة الخزين طيلة العصر تتضرر مجيء صديقها... وهي لم تر شيئاً بالمعنى الحرفي للكلمة. أي أن أحداً لم يأت إلى البيت أبداً، لا ساعي البريد ولا أي شخص آخر.

وقد كان من شأنها - وهي بطيئة الفهم - أن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أن ذلك كان أمراً غريباً جداً... لأن السيدة سيمونغتن قد تلقت ظاهرياً رسالة مجهولة عصر ذلك اليوم.

سألتها متحيراً: ألم تتلق رسالة؟

- أبداً، بالطبع! إن هذه الجريمة بسيطة جداً كما قلت. الذي حدث أن زوجها وضع لها السيانيد في كبسولة الدواء التي كانت ستربيها بعد ظهر ذلك اليوم بعد تناول الغداء كما هي العادة. كل ما كان على سيمونتن عمله -بعد ذلك- هو العودة إلى البيت قبل عودة إلسي هولاند أو في نفس الوقت معها، ومناداة زوجته دون أن يسمع منها إجابة، فيصعد إلى غرفتها ويضع قطرة من السيانيد في كأس الماء الذي اعتادت أن تشربه مع قرص الدواء، ثم يلقي بالرسالة المكورة التي أعدها أمام الموقد، ويضع بجانب يدها قصاصة الورق التي كتب عليها: «لا يمكنني المضي».

التفت الآنسة ماربل إلى وقالت: كنت محقاً تماماً فيما يخص هذه النقطة أيضاً يا سيد بيرتن؛ إذ أن «قصاصة الورق» كانت غير طبيعية أبداً. إن الناس لا يكتبون رسائل انتحار على قصاصة ورق صغيرة مقطوعة، بل هم يستخدمون ورقة كاملة... ويضعونها غالباً في ملف أيضاً. نعم، كانت قصاصة الورق غير طبيعية، وأنت عرفت ذلك.

قلت: أنت تبالغين في إطارائي، فأنا لم أكن أعرف شيئاً.

- ولكنك عرفت، عرفت فعلاً يا سيد بيرتن. وإلا لماذا أثرت فيك على الفور الرسالة التي كتبتها أخلك على عجل وتركتها على حاملة الهاتف؟

كررت بيضاء: «لا يمكنني المضي يوم الجمعة»... فهمت: «لا يمكنني المضي»!

ابتسمت لي الآنسة ماربل وقالت: بالضبط. لقد عثر السيد سيمونغتون على رسالة شبيهة بهذه ورأى ما يمكن أن تتطوّي عليه من احتمالات فقطع الكلمات التي أرادها حتى يستخدمها عندما يحين الوقت... وكانت رسالة صحيحة كتبت بخط يد زوجته.

سألتها: وهل ظهرت أية لمحات ذكية أخرى من طرفِي؟

طرفت عيناً الآنسة ماربل وهي تنظر إليّ وقالت: لقد وضعني على الطريق الصحيح... أنت جمعت لي تلك الحقائق على نحو متسلسل، وعلى رأسها أهم نقطة قلتَها لي من بين كل تلك النقاط، وهي أن إلسي هولاند لم تلق أية رسالة مجهولة أبداً.

قلت: هل تعرفين أنني فكرت الليلة الماضية بأنها هي كاتبة الرسائل، وأن ذلك هو سبب عدم تلقّيها لأي منها؟

- آه يا عزيزي... أنا لم أفكِر بذلك؛ فالشخص الذي يكتب رسائل مجهولة يرسل دائمًا رسالة منها إلى نفسه، وأحسب أن ذلك يشكل جزءاً من... من الإثارة. ولكن لا، لقد أثارت هذه الحقيقة اهتمامي لسبب مختلف تماماً. كانت هذه -في الواقع- نقطة الضعف الوحيدة عند السيد سيمونغتون؛ لم يستطع حمل نفسه على كتابة رسالة قذرة إلى الفتاة التي أحب. إنها ملاحظة جانبية مثيرة جداً تلقي الضوء على الطبيعة البشرية... وهي قد تسجّل لصالحه بطريقة ما، ولكنها النقطة التي فضحته.

قالت جوانا: وهل هو الذي قتل أغنيس؟ إن ذلك لم يكن ضروريًا بالتأكيد؟

- ربما كان ضرورياً إن ما لا تدركينه يا عزيزتي (إذ لم تقتلني أحداً) هو أن أحكام المجرم تتشوه بعد ذلك ويبدو له كل شيء مبالغ فيه. لا شك أنه سمع الفتاة تهافت بارتريديج وتقول إنها كانت قلقة منذ وفاة السيدة سيمونغتن وأن في الأمر شيئاً لم تفهمه. لم يكن يستطيع المجازفة... فهذه الحمقاء الغبية ربما رأت شيئاً أو تعرف شيئاً.

- ألم يكن موجوداً في مكتبه طيلة عصر ذلك اليوم؟

- يُخيل إلي أنه قتلها قبل مغادرة البيت. كانت الآنسة هولاند في غرفة الطعام، ولعله اكتفى بالخروج إلى الصالة حيث فتح الباب الأمامي وأغلقه وكأنه قد خرج من البيت، ثم انسل إلى غرفة الملابس الصغيرة عند الباب الأمامي. وعندما بقيت أغتنيس وحدها في البيت، ربما قرع جرس الباب وعاد إلى غرفة الملابس بسرعة، ثم جاء من ورائها وضربها على رأسها عندما كانت تفتح الباب، ثم بعد أن حشر العجة داخل الخزانة، أسرع إلى مكتبه بتأخير قليل جداً خشية أن يلحظه أحد، ولكن ربما لم يلحظ ذلك أحد... فكما تعرفين لم يكن أحد يشك في رجل.

قالت السيدة كالثروب: يا له من وحش بغرض!

سألتها: أرى أنك لا تشعرين بالأسف عليه يا سيدة كالثروب؟

- إطلاقاً. لماذا؟

- لا شيء، إنما يسعدني سماع ذلك.

قالت جوانا: ولكن لماذا إيمى غريفيث؟ أعرف أن الشرطة اكتشفوا أن يد الهاون قد اختفت من صيدلية أوين... والشيخ أيضاً. لا أظن أن من السهل على رجل أن يعيد أشياء إلى أدراج المطابخ. واحذرى أين كانت موجودة؟ لقد أخبرنى المفتش ناش قبل قليل عندما التقىته وأنا في طريقى إلى هنا أنها كانت في واحد من تلك الصناديق القديمة التي يحفظ بها الوثائق في مكتبه. صندوق وثائق عقارات الراحل السير جاسبر هارينغتون ويست.

قالت السيدة كالثروب: مسكين جاسبر... كان أحد أبناء عمومتى، وكان عجوزاً مستقيماً. لو علم بذلك لأصيب بنوبة قلبية!

سألتها: ألم يكن من الجنون أن يحتفظ بها؟

قالت السيدة كالثروب: ربما سيكون أكثر جنوناً لو رماها. لم يكن أحد يرتاب بسيمنغتن أبداً.

قالت جوانا: إنه لم يضر بها يد الهاون. كانت هناك أيضاً كرة حديدية من تلك التي تُعلق في الساعات الجدارية، وعليها شعر ودم. وينظر أنه سرق يد الهاون في اليوم الذي اعتقلت فيه إيمى وأنه أخفى صفحات الكتاب في بيتها. وهذا يعيدنى إلى سؤالى الأصلي: ماذا عن إيمى غريفيث، لقد شوهدت عملياً وهي تكتب تلك الرسالة.

قالت الآنسة ماربل: بالطبع، فقد كتبت تلك الرسالة فعلاً.

- ولكن لماذا؟

- يا عزيزتي ! لا بد أنك أدركتِ أن الآنسة غريفيث كانت تحب سيمونغتن طيلة حياتها.

قالت السيدة كالثروب بطريقة آلية : المسكينة !

- لقد كانا صديقين حميمين دائماً ، وأحسب أنها رأت بعد وفاة السيدة سيمونغتن أنها ربما استطاعت في يوم من الأيام ...

تحنحت الآنسة ماربل مفضلة التلميح على التصرير ، ثم أضافت : ثم بدأ الكلام ينتشر عن إلسي هولاند ، وأظن أن ذلك قد ضايقها كثيراً . رأت في الفتاة امرأة لعوايا تخطط لإيقاع سيمونغتن في أحابيلها وأنها غير جديرة به . وهكذا ، أحسبها استسلمت للإغراء : لماذا لا تكتب رسالة إضافية واحدة وترعب الفتاة بحيث تخرجها من المنزل ؟ لا بد أن ذلك بدا لها آمنا تماماً وظننت أنها قامت بجميع الاحتياطات .

قالت جوانا : وبعد ذلك ؟ أكملني القصة .

قالت الآنسة ماربل ببطء : يُخيل لي أن السيد سيمونغتن قد عرف على الفور كاتبة الرسالة عندما أرته إياها الآنسة هولاند ، ورأى في ذلك فرصة لإنهاء القضية إلى الأبد وتأمين نفسه . لم يكن ذلك تصرفاً لطيفاً ... نعم ، ولكنه كان خائفاً . فلم يكن الشرطة ليقنعوا حتى يمسكوا بكاتبة الرسائل المجهولة . وعندما أخذ الرسالة إلى الشرطة ، وعرف أنهم قد رأوا إيمي عملياً وهي تكتبها أحس بأن فرصة لا تلوح إلا نادراً تلوح له الآن لإنهاء القضية كلها .

وهكذا أخذ العائلة لشرب الشاي هناك عصر ذلك اليوم ، وقد

كان من السهل عليه - وهو قادم من مكتبه حاملاً حقيبته - أن يحضر فيها الصفحات التي قصها من الكتاب لكي يخفيها تحت الدرج ويحسم القضية. وكان إخفاؤها تحت الدرج لمسة بارعة، فهو يذكر الجميع بالطريقة التي أخفيت فيها جثة أغنيس. ومن الناحية العملية كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة له، فعندما لحق بيامي في الصالة كانت دقيقة واحدة أو دقيقةان تكفي لهذا العمل.

قلت: ومع ذلك، يبقى شيء واحد لا يمكنني غفرانه لك يا آنسة ماربل... إقناعك ميغان بالمشاركة في هذا الأمر.

وضعت الآنسة ماربل صنارتها جانباً، ونظرت إليّ من فوق نظارتها بعينين صارمتين وقالت: كان يجب عمل شيء يا عزيزي! لم يكن لدينا أي دليل ضد هذا الرجل الذكي جداً والمفتر تماماً لأي وازع. كنت بحاجة لشخص يساعدني، شخص ذي شجاعة فائقة وذكاء كبير، وقد وجدت الشخص الذي أردته.

- كان ذلك خطراً كيراً عليها.

- نعم، كان خطراً، ولكننا لم نخلق يا سيد بيرتن للهروب من الخطر عندما تكون حياة إنسان بريء آخر مهددة. هل فهمتني؟

وقد فهمتها.

* * *

الفصل الخامس عشر

ذات صباح في الشارع العام:

خرجت الآنسة إميلي من محل البقالة حاملة حقيبة مشترياتها،
خداتها متوردان وعيناها متفعلتان: آه يا عزيزي السيد بيرتن، إنني
أشعر حقاً بالإثارة وأنا أفكر في ذهابي في رحلة أخرى!

- أرجو أن تستمتعي بها.

- أنا واثقة من ذلك. لم أكن لأجرؤ على الذهاب بمفردي. يبدو
أن الأمور قد انتهت إلى هذا الحال بفضل العناية الإلهية. لقد شعرت
منذ وقت طويل بضرورة ترك منزل ليتل فيرز، وأدركت أن إمكاناتي
المالية ضعيفة، ولكنني لم أستطع تحمل فكرة وجود غريباء فيه. أما
وقد اشتريته الآن وقررت العيش فيه مع ميغان فإن الأمر مختلف
 تماماً. وإيمي بعد محنتها القاسية... لا تعرف ماذا تفعل بنفسها،
وأخوها سيتزوج (كم هو جميل أن تقررا -أنت وجوانا- الاستقرار
 عندنا!)، وقد وافقت إيمي على المجيء معي. إننا نعتزم الرحيل
 لفترة طويلة.

ثم خفضت الآنسة إميلي صوتها وقالت: بل إننا ربما نذهب

في رحلة حول العالم! وإيمي رائعة وعملية جداً، إنني أرى فعلاً أن كل شيء ينتهي نهاية سعيدة.

فكرت للحظة عابرة بالسيدة سيمونغتن وأغليس وُدل في قبريهما وتساءلت إن كانتا ستتوافقان على كلام إميلي عن النهاية السعيدة، ثم تذكرت أن صديق أغليس لم يكن يحبها كثيراً، وأن السيدة سيمونغتن لم تكن لطيفة مع ميغان، فلماذا أهتم كثيراً؟ لا بد أن نموت جميعاً يوماً ما! ووافقت الآنسة إميلي السعيدة على أن كل شيء انتهى نهاية سعيدة.

ذهبت إلى الشارع ثم إلى بوابة بيت سيمونغتن، وخرجت ميغان لمقابلتي. لم يكن لقاء رومانسيًا لأن كلباً إنكليزياً ضخماً خرج مع ميغان وكاد يوقعني أرضاً بنشاطه سيء التتوقيت.

قالت ميغان: أليس رائعاً؟

- ولكنك مبالغ قليلاً في روعته. فهو لنا؟

- نعم، إنه هدية زفافنا من جوانا. لقد تلقينا هدايا جميلة، أليس كذلك؟ قطعة الصوف تلك التي لا نعرف لماذا تُستعمل من الآنسة ماريبل، وطقم الشاي الجميل ذاك من السيد باي، كما أرسلت لي إلسي حمالة توست توضع على المائدة...

- يا لها من هدية تمثل صاحبتها.

- كما أنها حصلت على وظيفة عند طبيب أسنان، وهي سعيدة جداً. وماذا كنت أقول؟

- كت تتعدين هدايا الزفاف. لا تنسى أن عليك أن تعيديهما كلها إلى أصحابها إذا غيرت رأيك.

- لن أغير رأيي. ماذا تلقينا غير ذلك؟ آه، نعم، لقد أرسلت السيدة كالثروب لنا تحفة على شكل خنفساء مصرية.

- امرأة متفردة.

- ولكنك لا تعرف الهدية الفضلى. لقد أرسلت لي بارترidding هدية. إنها منشفة للأطباق، أبغض منشفة رأيتها. ولكنني أعتقد أنها تحبني الآن دون شك، فهي تقول إنها طرزتها بيديها.

- أظنهما طرزتها بمعتقد حضرم وأشواك؟

- كلا، بل بصورة القلب رمزاً للحب.

- يا إلهي، يا إلهي... إن بارترidding تتطور!

كانت ميغان قد سجنتي إلى داخل البيت حيث قالت: شيء واحد فقط لا أستطيع فهمه؛ فإلى جانب الطوق والجبل الموجودين على الكلب أرسلت جوانا طوقاً وحبلًا إضافيين. لأي شيء تظنها أرسلتهما؟

قلت: هذه مزحة من مزحات جوانا.

* * *

لمتابعة أخبار روايات أغاثا كريستي

ولمعرفة ما تُشرَّف من عناوين حتى الآن
وما يجري طبعه حالياً وهو في طريقه إليكم

وللمشاركة في نادي معجبي أغاثا كريستي
وتبادل الآراء والتعليقات مع قراء آخرين

ولكل ما يهمكم بشأن هذه الكاتبة ومؤلفاتها

نفضلوا بزيارة موقعنا على الشبكة العالمية:

www.al-ajyal.com

الإصبع المتحرّك

الموت يضرب بصمت!

أذكرُ أنَّ الرسالة وصلت عند الإفطار.
كانت رسالة محلية طُبع العنوان فيها بالآلية
الكاتبة... وفي الداخل كانت كلمات
مطبوعة قد قُصّت ولُصقت على ورقة.
حدّقتُ إلى الكلمات للحظات دون أن
أستوعبها، ثم شهقت...».

في البداية لم تسب الرسائل الحاقدة
المجهولة إلا الرعب، ولكنها أدت - من
بعد - إلى جريمة قتل. والسؤال هو: مَن
سيكون الضحية التالية؟



The Moving Finger



الأنسة ماربل



رقم هذه الرواية حسب:
صدور الروايات بالإناء

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة
التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من
حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من
نسخ، وهي - بلا جدال - أشهر من كتب
قصص الجريمة في القرن العشرين وفي
سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى
معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع
منها ألفي مليون نسخة!

الناشر وصاحب

بالطبع العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال

للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

توزيع دار الألق

٦ ش. حسين فهمي من عباس العقاد
٠١٢١٠٣٣١٦٠ ٢٧٢٥٣٣٥ موبайл: